



تحفة الأنام من هدي النبي العدنان

دين

ر. خالد النجار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحفة الأنام من هدي النبي العدنان

الحمد لله وكفى وصلاة وسلام على عبده الذي اصطفى نبينا محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أما بعد:

فإن معايشة السنة النبوية الشريفة مطالعة وشرحا وتطبيقا لمن أجل النعم والمنح الربانية، كيف لا وهي نور من نور الحق قذفه الله تعالى في قلب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

ولقد وفقني الله تعالى من خلال الكتابة في المجالات العربية والإسلامية المطبوعة أن أتناول بالشروح طرفا من أحاديث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طيلة سنوات طويلة مديدة، ورأيت أن أجمعها في هذا المؤلف اللطيف وسميته «تحفة الأنام من هدي النبي العدنان» واقتصر في فيه على صحاح الأحاديث قدر استطاعتي، وأعدل الأقوال والأخبار في ذلك، وهذا أقل القليل الذي يمكن أن نقدمه لسنة الحبيب عليه أفضل الصلاة والسلام راجيا الفضل والمثوبة من الله الكريم الوهاب وأن يلحقنا بشمول شفاعة النبي العدنان.. اللهم آمين

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

مصر

٠١٢٢٩٥٩٦٦٥٨

٠١١٥٥٥٨١١٧٥

التوازن النفسي والسلوكي في شخصية رسول الله ﷺ

إن الدارس لشخصية رسول الله ﷺ ليستلف نظره ذلك التوازن الدقيق بين معالمها مما لا يمكن أن تجده في أي بشر سواه، هذا التوازن - الذي يعد من أبرز دلائل نبوته - يتمثل في الكم الهائل من الشمائل ومحاسن الأخلاق التي اجتمعت في شخصيته ﷺ على نسق متعادل لا تطغى صفة على صفة ولا توظف صفة في موقف لا تحتاجه ولا تليق به بل لكل مقام مقال ولكل حالة لبوسها حتى لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه إذ كل منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر، إنه الكمال البشري الذي يقود المسلمين إلى مزيد من الإعجاب والحب لرسولهم الكريم مفاخرين الدنيا بأسرها أنهم أتباع سيد البشر.

التوازن النفسي في شخصية الرسول ﷺ

حقق التوازن النفسي في شخصية الرسول ﷺ أسمى غاياته فكان ذو نفس سوية تتمتع بمثالية يدركها من له أدنى معرفة بالسلوك النفسي وأبعاده فما كان ﷺ بالكئيب العبوس الذي تنفر منه الطباع ولا بالكثير الضحك الهزلي الذي تسقط مهابته من العيون ولم يكن حزنه وبكاؤه إلا مما يحزن ويبكي منه العقلاء في غير إفراط ولا إسراف.

وفي ذلك يقول ابن القيم: وأما بكاؤه ﷺ فلم يكن بشهيق ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا ويسمع لصدره أزيز وكان بكاؤه تارة رحمة للميت وتارة خوفا على أمته وشفقة عليها وتارة من خشية الله وتارة عند سماع القرآن وهو بكاء اشتياق ومحبة

وإجلال مصاحب للخوف والخشية ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له وقال:
(تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون).
وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء
وانتهى فيها إلى قوله تعالى: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء
شاهداً} وبكى لما مات عثمان بن مظعون وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف
وجعل يبكي في صلاته وجعل ينفخ ويقول: (رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم
يستغفرون ونحن نستغفرك) وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته وكان يبكي أحياناً في صلاة
الليل. (١).

أما ضحكك ﷺ فكان يضحك مما يُضحك منه وهو مما يُتَعجب من مثله ويستغرب
وقوعه ويستندر كما كان يداعب أصحابه. فعن زيد بن أسلم ﷺ قال: (أتت امرأة يقال لها
أم أيمن إلى النبي ﷺ فقالت إن زوجي يدعوك قال: ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟ قالت
والله ما بعينه بياض فقال بلى إن بعينه بياضاً فقالت لا والله فقال ما من أحد إلا وبعينه
بياض) [رواه أبو داود]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستحمله فقال رسول الله
ﷺ (إنا حاملوك على ولد ناقة) فقال يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة فقال رسول الله ﷺ:
(وهل تلد الإبل إلا النوق) [رواه الترمذي].

التوازن السلوكي في شخصية الرسول ﷺ كان التوازن السلوكي في شخصية
رسول الله ﷺ أحد دلائل نبوته فلقد جعل هذا التوازن من رسول الله ﷺ القدوة العليا التي
تمثلت فيها كل جوانب الحياة فهو الأب والزوج ورئيس الدولة والقائد للجيش والمحارب
الشجاع كما كان المستشار والقاضي والمربي والمعلم والعابد والزاهد... إلى آخر صفاته ﷺ
التي كانت من الخصب بحيث استوعبت كل جوانب حياة البشر الأمر الذي جعل من رسول
الله ﷺ المثل الأعلى للناس كافة على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم حتى تقوم الحججة على

الناس مرتين مرة بالبيان النظري ومرة بالبيان العملي وإليك بعض مظاهر هذا التوازن السلوكي:-

(أ) التوازن النبوي بين القول والفعل.

شهدت البشرية في تاريخها الطويل انفصالا بين المثل والواقع، بين المقال والفعال، بين الدعوى والحقيقة وكان دائما المثل والمقال والدعوى أكبر من الواقع والفعال والحقيقة وهذا شيء يعرفه من له أدنى معرفة بالتاريخ والحياة غير أن هذه الظاهرة تكاد تكون مفقودة في واقع الرسل وأتباعهم فهم وحدهم الذين دعوا الإنسانية إلى أعظم قمم السمو ومثلوا بسلوكهم العملي هذه الذروة بشكل رائع مدهش (٢).

وظهور هذا التوازن في حياة رسول الله ﷺ العملية كان على أعلى ما يخطر بقلب بشر فهو العابد والزاهد والمجاهد والزوج و... و... الذي ما كان يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شر إلا كان أو تارك له.

- فعن عبادته تقول السيدة عائشة ؓ: (كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال (أفلا أكون عبدا شكورا) [رواه الشيخان]

وعن أنس ؓ قال: (كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نطن أن لا يصوم منه شيئا ويصوم حتى نطن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيتاه ولا نائما إلا رأيتاه) [رواه البخاري].

- وعن زهده يروى الإمام أحمد عن عائشة ؓ قالت: دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله ﷺ فقال: (ما هذا؟) فقلت فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك فبعثت إلى بهذا فقال (رديه) قالت فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال

ذلك ثلاث مرات ثم قال (يا عائشة رديه فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة) قالت: فرددته.

وهو إمام الزاهدين الذي ما أكل على خوان قط وما رأى شاة سميطة قط وما رأى منخلاً منذ أن بعثه الله إلى يوم قبض ما أخذ من الدنيا شيئاً ولا أخذت منه شيئاً وصدق ﷺ إذ يقول: (مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل بظل شجرة ثم راح وتركها).

- وأما عن شجاعته وجهاده فيروى أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول (لم تراعوا... لم تراعوا) وهو على فرس لأبي طلحة عرى ما عليه سرج في عنقه سيف فقال (لقد وجدته بحراً). وعن علي ﷺ قال: كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه. ولولا خوف الإطالة لسردنا شمائله ﷺ التي نادى بها وعلمها أمته وكان أول الممارسين العمليين لها.

(ب) الصدق النبوي في الجد والدعابة.

(الصدق صفة أساسية لا بد أن يتمتع بها صاحب الرسالة، هذا الصدق لا بد أن يكون مطلقاً لا يُنقض في أي حال بحيث لو امتحن صاحب الرسالة في كل قول له لكان مطابقاً للواقع إذا وعد أو عاهد أو جد أو داعب أو أخبر أو تنبأ وإذا انتقضت هذه الصفة أي نقض فإن دعوى الرسالة تنتقض من أساسها؛ لأن الناس لا يثقون برسول غير صادق والرسول الصادق لا تجد في ثنايا كلامه شيئاً من الباطل في أي حال من الأحوال) (٣)

ولقد كان الصدق من أوضح السمات في شخصية رسول الله ﷺ وكفي دلالة على هذا الصدق أن قومه لقبوه بالصادق الأمين، بل إن أول انطباع يرسخ في نفس من يراه لأول مرة أنه من الصديقين. فعن عبه الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس وقيل قد قدم النبي ﷺ وجئت فيمن جاء قال فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه

ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: (يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام) [رواه الترمذي].

- فهو الصادق في وعده وعهده فعن عبد الله بن أبي الخنساء قال بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال (يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث انتظرك) [رواه أبو داود]

وبعد غزوة حنين جلس رسول الله ﷺ يقسم غنائم هوازن، فوقف عليه رجل من الناس، فقال: إن لي عندك موعدا يا رسول الله قال: (صدقت، فاحتكم ما شئت). قال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها. قال: (هي لك وقال احتكمت يسيرا) [رواه الحاكم].
وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى في قصة إسلامه أنه عندما كان مشركا تولى مطالبة الرسول ﷺ بالجلاء عن مكة في عمرة القضاء بعد انقضاء مدة الثلاثة أيام المتفق عليها يقول حويطب: ولما قدم رسول الله ﷺ لعمرة القضاء وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو لكي نخرج رسول الله ﷺ إذا مضى الوقت فلما انقضت الثلاثة أقبلت أنا وسهيل بن عمرو فقلنا: قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا فصاح: (يا بلال لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا) وما حدث أن وعد رسول الله ﷺ أو عاهد فأخلف أو غدر ولقد روى البخاري (أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر؟ أجاب أبو سفيان لا فقال هرقل بعد ذلك وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر) بل إنه ﷺ لا يجيد عن الصدق ولا حتى مجاملة لأحد فعن عمرو بن العاص ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه عليّ حتى ظننت أني خير القوم فقلت يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر فقال أبو بكر فقلت يا رسول الله أن خير أم عمر فقال عمر فقلت أنا خير أم عثمان فقال عثمان فلما سألت رسول الله ﷺ فصدقني فلوددت أني لم أكن سألته) [رواه الترمذي].

وحتى في أوقات الدعابة والمرح حيث يتخفف الكثيرون من قواعد الانضباط كان رسول الله ﷺ الصادق في مزاحه فعن أبي هريرة قال (قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا قال إني لا أقول إلا حقا) [رواه الترمذي].

(ج) التوازن الأخلاقي في شخصية رسول الله ﷺ.

من أبلغ وأجمع الكلمات التي وصفت أخلاق رسول الله ﷺ ما قالته السيدة عائشة ؓ: (كان خلقه القرآن) ولقد كانت هذه الأخلاق من السمو والتوازن ما جعل تواضعه لا يغلب حلمه ولا يغلب حلمه بره وكرمه ولا يغلب بره وكرمه صبره ... وهكذا في كل شمائله صلوات الله وسلامه عليه هذا مع انعدام التصرفات الغير أخلاقية في حياته.

- فعن تواضعه يروى أبو نعيم في دلائل النبوة عن أنس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفًا والله ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه وما تناول أحد بيده إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزعها منه.

- وعن حلمه يروى البخاري يوم حنين ورسول الله ﷺ يقسم الغنائم فقال رجل والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت -أي عبد الله راوي الحديث- والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال (من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله رحم الله موسى قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر)

- وعن كرمه يروى الشيخان عن جابر بن عبد الله ؓ قال (ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا..) وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ لم يسأل شيئًا على الإسلام إلى أعطاه قال فأتاه رجل فأمر له بشيء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الرجل إلى قومه فقال يا قوم أسلموا فإن محمد يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة

وأخرج ابن عساكر في قصة إسلام صفوان بن أمية عن عبد الله بن الزبير قال: وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر وقد أرسل إليه يستعيره سلاحه فقال صفوان طوعا أو كرها فقال رسول الله ﷺ عارية رادة فأعاره مائة درع بأداتها فأمر رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنينا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية جعل صفوان ينظر إلى شعب ملاء نعماء وشاء ورعاء فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: (أبا وهب يعجبك هذا الشعب) قال: نعم. قال: (هو لك وما فيه). فقال صفوان: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأسلم مكانه.

(د) التوازن النبوي بين الحزم واللين.

(فرغم ما حباه الله به من الحلم والرفقة إلا أنه الحلم والرفقة التي لا تجاوز حدها فكان ﷺ يغضب للحق إذا انتهكت حرمة الله فإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتى يهدم الباطل وينتهي وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسيء للأدب أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن) (٤).

فمن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما له قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثما فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمة الله فيكون هو ينتقم لله) [رواه أحمد]

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحي أو وعظ قلت نذير قوم أتاهم العذاب فإذا ذهب عنه ذلك رأيت أنه أطلق الناس وجها وأكثرهم ضحكا وأحسنهم بشرا) [رواه البزار].

ولما نكث بنو قريظة العهد وتحالفوا مع الأحزاب على حرب المسلمين ثم رد الله كيدهم في نحورهم وأمكن الله رسوله منهم رضوا بحكم سعد بن معاذ كما رضيه رسول الله

ﷺ فحكّم سعد أن تقتل رجالهم وتسبي نساؤهم ووزاربيهم فتهلل وجه الرسول وقال (لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات) فقتل رسول الله ﷺ منهم في يوم واحد أربعمائة رجل صبيرا.

وروى ابن إسحاق في قصة أسرى غزوة بدر قال: ومنهم أبو عزة الشاعر كان محتاجا ذا بنات فقال يا رسول الله لقد عرفت مالي من مال وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن عليّ فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحد فقال أبو عزة في ذلك شعرا يمدح به رسول الله ﷺ ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد عليه الرسول ولعب المشركون بعقله فرجع إليهم فلما كان يوم أحد أُسر فسأل النبي ﷺ أن يمن عليه أيضا فقال النبي ﷺ: (لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعت محمدا مرتين) ثم أمر به فضربت عنقه. وعن المسور بن مخرمه رضي الله عنه قال خطب عليّ بنت أبي جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأتت النبي ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا على ناكح ابنه أبي جهل. فقام النبي ﷺ فتشهد، وقال: أما بعد فإني أنكحت أبي العاص بن الربيع فحدثني وصدقني وإن فاطمة بضعة مني يربني ما يرببها والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبدا قال فترك عليّ الخطبة. إنه اللين الذي لا يعرف الخور والحزم الذي به تكون الرجال فصلوات الله وسلامه عليه.

لقد سجل لنا التاريخ سير آلاف المصلحين والزعماء الذين عاشوا مناضلين من أجل فكرة أو مبدأ أفاد شعوبهم أو الإنسانية عامة، ولكن لم تجتمع كل المبادئ الطيبة إلا في شخص رسول الله ﷺ في البيت والقيادة والأخلاق والعبادة والكثير من أوجه الحياة التي استنارت بمبعثه فصلوات الله عليه في الأولين والآخرين.

الهوامش والمصادر

(١) زاد الميعاد، ابن القيم، الجزء الأول، بتصريف مؤسسة الرسالة.

(٢) الرسول، سعيد حوى، ص ٥٥، بتصريف دار السلام.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣ بتصريف.

(٤) المرجع السابق ص ١٣٩ بتصريف.

– علو الهمة، محمد بن إسماعيل.

– شرح السنة البغوي.

– البداية والنهاية، ابن كثير.

الحنكة النبوية في علاج كبوات النفس البشرية

علم إدارة الذات يتميز برعايته للفرد والمجتمع، وتحقيق التوازن في المصالح والعلاقات، بما يؤدي إلى إيجاد المجتمع الفاعل، المتماسك، المتكافل، وإقامة ذلك على تصور محكم وشامل للإنسان، والكون، والحياة... إنه علم في غاية الأهمية من جهة علاج الواقع الذي نعيش فيه، فإننا في حال هزيمة على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، والعودة بالنفس والمجتمع من حال الهزيمة إلى حال الانتصار تحتاج إلى مزيد الاهتمام بهذا العلم، وتقديمه للكبير والصغير في صورة مبسطة وسهلة، وفق عقيدة إسلامية سليمة، وبعيدا عن التعقيدات الفلسفية والشطحات الفكرية.

ورغم أن لعلماء الغرب جهوداً واضحة في هذا العلم، إلا أن ما يعيب عليهم، تلك المادية المفرطة في تناول جزئياته، والتي تدور دوماً حول تكوين الرجل الجبار الذي يقهر الأقدار، وعلى تسلسل الأحداث وفق مقدمات ونتائج حتمية أشبه بالمعادلات الرياضية الصماء، حتى غابت الحقيقة التي لا ريب فيها من أن أساس النجاح في أي عمل يرجع إلى توفيق الله سبحانه وتعالى.

أما علماءنا المسلمين فلهم القدر الأعلى والحظ الأوفر في خدمة هذا العلم الشريف، لكن في أجواء روحانية سامية، ولمسات إيمانية راقية، وتناغم مع الفطرة البشرية بما فيها من قوة في مجالات وضعف في مجالات أخرى، وبما فيها من إقدام وإحجام، وحزن وفرح، وعلم في أمور وجهل بأمور أخرى... بما فيها من تناقضات، وإيجابيات وسلبيات.

ويرجع السبب الأعظم في هذا التميز الإسلامي، وهذا المذاق الخاص عند علمائنا الأخيار، إلى النهل من النبع الكريم، نبع القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والاسترشاد بالسنة النبوية المطهرة التي نزلت على أطهر قلب،
قلب الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ولا ريب أن الاعتراف من معين الكتاب الكريم وأقوال رسولنا الأمين لهما أبعاد الأثر في
الوقوف الحقيقي على طبيعة النفس البشرية {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}
[المالك: ١٤] وكيفية التعامل معها، فضلا عن النظرة الشمولية لحياة الفرد، بداية من أخذ
الله الميثاق عليه في الأزل ثم تواجده على الأرض في الحياة الدنيوية ثم ما يتبعها من حياة
برزخية وأحداث يوم القيامة ثم دار القرار جنة الخلد أو النار أعذنا منها الكريم
الجبار... ولاشك أن هذه النظرة الشمولية تختلف كثيرا عن النظرة القاصرة لحياة الإنسان
الدنيوية فقط، والتي تركز المادية المفرطة، والدوران في فلك اللذات والشهوات، دون
رقيب أو حسيب.

هذا التناغم بين المصادر الإلهية والتجارب الحياتية في إطار سلامة المعتقد وشمولية
النظرة للكون والحياة، جعل من علم إدارة الذات رائعة من روائع الحضارة الإسلامية لا تجد
لها مثيلا في الأمم الأخرى، حتى صار هذا العلم فن إسلامي باقتدار، ويكفي أن تتابع كتابات
الأفذاذ من أمثال ابن القيم وابن الجوزي وابن حبان.. وغيرهم من المتأخرين، فضلا عن كتابات
مشايخنا المعاصرين حتى تدرك هذه اللمسات الإيمانية الفريدة التي تدلل على براعة علمائنا....
ومن ذاق عرف.

أيضا مما يمتاز به علم إدارة الذات الإسلامي التطرق إلى أمور تغيب تماما عن الفكر
الغربي المادي، رغم شدة حاجتها لكل ذي فطرة سوي ومنها: عقيدة القضاء والقدر، وقيم
الصبر على أقدار الله، والرضا بالقسم الرباني. أمراض القلوب من غل وحقد وحسد...
وغيرها. الهوى والشيطان وكيف يستعيد منهما الإنسان. إستراتيجية العمل لما ينفع بعد
الموت، وقيم الصدقة الجارية، وفقه من تجاوزت أعمالهم أعمارهم... وغيرها الكثير. دور
الإيمان بالغيبات في إيجابية حياة الفرد في الدنيا والآخرة، وأن قيم الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسوله وباليوم الآخر كلها قيم دافعة لصالح الذات..... وهذا غيض من فيض،

فالمقام لا يسمح باستقصاء كل مميزات علم إدارة الذات الإسلامي، لكن لا يغيب على كل فطن أهمية هذه المميزات في حياة الإنسان، وفي تفاعله المثمر مع خالقه وبارئته، بل ومع الكون كله.

إن الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى، أي الإيمان الراسخ في القلب رسوخ الجبال الشامخات، والذي يصدقه العمل الصالح، وليس الإيمان الذي يردده اللسان فقط - هذا الإيمان يجعل الإنسان المؤمن قوياً في إرادته، لا تعجزه ولا توقفه العقبات والمشاكل التي تعترض طريقه في الحياة، بل ينظر إليها ويضعها في حجمها الطبيعي، ويوقن أنه سيتغلب عليها أو يتأقلم معها طالما التزم التوكل على الله سبحانه حق التوكل، وهذا التوكل - وليس التواكل - هو الدافع الحقيقي للفرد المؤمن نحو الشجاعة والإقدام واقتحام المشاكل وعدم التسويف الذي يورث في النفس الخوف من المجهول، والخوف من المستقبل.

إن التوكل على الله تعالى يولد الثقة بالنفس، والثقة بالقدرات الهائلة التي وضعها الله سبحانه فينا... فلا مجال إذن إلا للإرادة القوية المقرونة بالتوكل الحق على الله سبحانه خالق ومالك كل شيء، وأن تنطلق هذه الإرادة من يقين راسخ بأن الله سبحانه هو المتصرف في ملكه، وهو القادر عليه، وهو المعطي والمانع، وهو الرافع والخافض... قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٢٦ - ٢٧].

من هذا المنطلق نستطيع أن نقول أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان رائد علم إدارة الذات باقتدار، وتنوعت مهاراته -بأي هو وأمي- في معالجة كبوات النفس البشرية تنوعاً يناسب طبيعة الكبوة، سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي.

فعن أبي أمامة قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام شاب، فقال: يا رسول الله أئذن لي في الزنا. فصاح به الناس، وقالوا مه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ذروه،

«ادن» فدنا حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أتجبه لأمك؟» قال: لا. قال: «فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتجبه لابنتك؟» قال: لا. قال: «وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. أتجبه لأختك؟» قال: لا. قال: «فكذلك الناس لا يحبونه لآخواتهم. أتجبه لعمتك؟» قال: لا. قال: «وكذلك الناس لا يحبونه لخالاتهم، فأكره لهم ما تكره لنفسك، وأحب لهم ما تحب لنفسك». فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يطهر قلبي. فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على صدره، فقال: «اللهم أغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء. [الطبراني في مسند الشاميين ج ٢/ص ١٤٠ ح ١٠٦٦].

وهنا تكمن براعة المصطفى صلى الله عليه وسلم في التعامل بفردية بحتة مع هذه القضية الفردية، ذاك أنها مشكلة تخص هذا الشخص وحده، ولا تخص غيره، حيث لا يختلف عاقلان على قبح الزنا وبشاعته، ولكنها حالة خاصة من تشوش الفكرة وانقلاب الفطرة، فكانت السياسة النبوية قائمة على الإقناع أكثر منها بالمواجهة لحكم الله تعالى في هذا الأمر، ذاك لأن العقول لو تفهمت مراد الله عز وجل لسهل عليها الانقياد لشعره والإذعان لحكمة.

لم نجد النبي صلى الله عليه وسلم يسرد على الفتى آيات القرآن الكريم التي قبحت الزنا وتوعدت فاعله، بل إنه عليه الصلاة والسلام قابل تشوش الفكرة بعين الحكمة والإقناع، ثم بجميل الدعاء، مما سهل عليها الانصياع لحكم الله الذي لا يجهله مسلم. لكن في موقف آخر نجد أن الطريقة النبوية تختلف تماماً في تناول معالجتها، ذلك لأنها قضية عامة تمس الأمة قاطبة لا فرد بعينه، فكان لابد من الجهار والاستنكار دون تجريح أو تفضيح.

فعن أبي حميد الساعدي قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد - يقال له ابن اللثبية - على الصدقة. فلما قدم، قال: هذا لكم وهذا أهدي إلي!! قال: فقام رسول الله على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإني استعمل الرجل منكم

على العمل مما ولاي الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هديةً أهديت لي! أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاءٌ أو بقرةً لها خوارٌ أو شاةٌ تيعر، ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه، يقول: اللهم هل بلغت» [الجمع بين الصحيحين: ٧٥٦]

ولما كانت النصيحة على الملأ فضيحة نجد الأدب النبوي أعرض عن ذكر اسم الرجل على المنبر، فالتشهير بذوات الناس لا يحقق المراد ويوغر الصدور، ولكن المقصود أن يعلم القاصي والداني عاقبة الرشوة، لأنها ثمرة فساد الأمم، حيث تستجلب بها الرغبات بغير حق، فيتحول المجتمع إلى غابة موحشة الحق كله فيها للغني دون الفقير، وهذا نذير شؤم وعاقبة هلاك.

لذلك قال شرح الحديث:

- وفيه أن مَنْ رأى متأولاً أخطأ في تأويلٍ يضرُّ مَنْ أخذ به، أن يُشهر القول للناس، ويُبين خطأه؛ ليحذّر من الاغترار به.

- وفيه جواز توبيخ المخطئ وجواز تقرّبه تقرّيباً يتوجّع منه كلُّ ذي شعور، ويستحقّه مثل هذا العامل الذي أراد أن يخدع نفسه، ويخدع الناس، ويُفتيهم بحلِّ ما أخذ من المُركّين بدعوى أنه هديّة.

إننا في أشد الحاجة لتلمس تلك الحنكة النبوية في تعاملها مع الأحداث، وأن نقدمها لشبابنا وبناتنا خاصة للتسع نظرهم للحياة، ولتحسن إدارة ذواتهم في رحلة الحياة بما يضمن لهم الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، نريد أن نسترشد بهدي سيد المرسلين لنخرج من متعة اللحظة إلى آفاق المتعة الرحبة في الدنيا والآخرة، وندير حياتنا بشكل نموذجي نشكر فيه السراء ونصبر على الضراء، ونرضى بقضاء الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا النبي لا كذب

رافقت الدعوة المحمدية من مهدها العديد من المعجزات الدالة على صدق المبلغ عن الوحي الإلهي وكان أعظمها على الإطلاق القرآن الكريم، إلا أنه لا يمكن لمنصف تجاهل باقي المعجزات والتي تمثلت في سلسلة مضيئة من الأقوال الغيبية والأفعال الخارقة للعادة شاهدها الصحابة الكرام واقعا حيا يتحقق أمام أعينهم وتلمس صدقها اللاحقون في تحقق النبوءات التي أخبر عن وقوعها الحبيب ﷺ بعد وفاته لتظل عبارته الخالدة حية فعالة (أنا النبي لا كذب) وكأنه لم يقذف بها في وجه هوازن فقط، بل وفي وجه الدنيا بأسرها

قال تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا} [الجن: ٢٧]، قال القرطبي _ قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه، وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج أتلقاهم والقمر في العقرب؟ فقال رضي الله عنه فأين قمرهم وكان ذلك في آخر الشهر فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم (١)

إخباره عليه الصلاة والسلام عن أمور غيبية وقعت في حياته ﷺ

أولاً: إخباره عن غيبات كبت بها المشركين والمنافقين

منها ما حدث ليلة الإسراء كما رواه ابن هشام في السيرة حيث يقول: فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم فعجبوا، وقالوا: ما آية ذلك يا محمد فإننا لم نسمع بمثل هذا قط، قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفروهم حس الدابة فند لهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياما ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان وآية ذلك أن غيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء قالت فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه وإنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا صدق والله لقد أنفرونا في الوادي الذي ذكر وند لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه (٢)

ومنها أن ناقته له ضلت في توجهه إلى تبوك فتفرق الناس في طلبها وكان عنده عمارة بن حزم وفي رحل عمارة زيد بن اللصيت وكان يهوديا قد أسلم وناقق فقال زيد في رحل عمارة: يزعم محمد أنه نبي يخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته فقال ﷺ إن منافقا يقول أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته والله لا أعلم إلا ما علمني ربي وقد أعلمني أنها في الوادي في شعب كذا حبستها سمرة بزمامها فبادر الناس فوجدوها كذلك فأتوه بها (٣)

ثانياً: إخباره ﷺ عن غيبات في حضور العديد من أصحابه ﷺ

✓ منها إعلامه صحابته بموت أشخاص لم يكونوا وقتها بالمدينة

فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم

إلى المصلى فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات (٤)

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرغان حتى أخذ سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم (٥) ✓ ومنها إخباره بأسرار الأحاديث:

_ فعن عروة قال: لما رجع المشركون إلى مكة من بدر وقد قتل الله تعالى من قتل منهم أقبل عمير بن وهب حتى جاء إلى صفوان بن أمية في الحجر فقال صفوان قبح الله العيش بعد قتلى بدر فقال عمير أجل والله ما في العيش خير بعد ولولا دين علي لا أجد له قضاء وعيالي ورائي لا أجد لهم شيئًا لدخلت على محمد فلقنته إن ملئت عيني منه فإن لي عنده علة أقول قدمت على ابني هذا الأسير ففرح صفوان بقوله فقال علي دينك وعيالك أسوة عيالي في النفقة إن يسعني شيء ونعجز عنهم فحمله صفوان وجهزه بسيف صفوان فصقل وسم وقال عمير لصفوان اكنمني ليالي فأقبل عمير حتى قدم المدينة فنزل باب المسجد وعقل راحلته وأخذ السيف لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه عمر بن الخطاب وهو في نفر من الأنصار يتحدثون عن وقعة بدر ويشكرون نعمة الله فلما رأى عمر عمير بن وهب معه السيف فزع منه فقال عندكم الكلب هذا عدو الله الذي حرش بيننا وحرزنا للقوم فقام عمر فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا عمير بن وهب قد دخل المسجد معه السلاح فهو الفاجر الغادر يا رسول الله لا تأمنه قال أدخله علي فدخل عمر وعمير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له صلى الله عليه وسلم ما أقدمك يا عمير قال قدمت في أسيري عندكم فقاربوني في أسيري فإنكم العشيرة والأهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بال السيف في رقبتك فقال عمير قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا من شيء؟! أنا نسيته وهو في رقبتك حين نزلت ولعمري إن لي غيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اصدقني ما أقدمك قال ما قدمت إلا في أسيري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما شرطت لصفوان بن أمية الجمحي في الحجر ففرح عمير وقال ماذا اشترطت له؟ قال تحملت له بقتلي علي أن يعول بنيك ويقضي دينك والله حائل بينك وبين ذلك فقال عمير

أشهد أنك رسول الله وأشهد أنه لا إله إلا الله كنا يا رسول الله نكذب بالوحي وبما يأتيك من السماء وإن هذا الحديث الذي كان بيني وبين صفوان في الحجر لم يطلع عليه أحد غيري وغيره ثم أخبرك الله به فأمنت بالله ورسوله والحمد لله الذي ساقني هذا المقام ففرح المسلمون حين هداه الله وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لخنزير كان أحب إلي منه حين اطلع وهو اليوم أحب إلي من بعض بني (٦)

- وروى أصحاب السير أنه رضي الله عنه قال لعمة العباس وقد أسر يوم بدر افد نفسك وابني أخيك عقيلًا ونوفلاً وحليفك فإنك ذو مال فقال يا رسول الله إني كنت مسلماً وأخرجت مكرها فقال رضي الله عنه الله أعلم بإسلامك فأين المال الذي وضعته بمكة عند أم الفضل حين خرجت وليس معكما أحد؟ فقلت إن أصبت في سفري فللفضل كذا ولعبد الله كذا ولقلثم كذا فقال والذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد غيري وغيرها وإني لأعلم أنك رسول الله ففدى نفسه وابني أخيه وحليفه، فقال له رسول الله ﷺ: (إن الله سيعوضك خيراً إن كان ما قلته من إسلامك حقاً) فعوضه الله تعالى مالا جما (٧)

✓ ومنها إخباره بشؤون بعض المعارك

كقصة أسر خالد للأكيدر ملك دومة الجندل قال ابن هشام: ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً فقال رسول الله ﷺ لخالد (إنك ستجده يصيد البقر) فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر فقالت له امرأته هل رأيت مثل هذا قط؟ قال لا والله قالت فمن يترك هذه؟ قال لا أحد فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ يقال له حسان فركب وخرجوا معه بمطاردهم [رمح قصير يطارد به الوحش] فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته وقتلوا أخاه وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه (٨)

- وروى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة رضي الله عنه قال كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه

تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان رمدا فقال أنا أتخلف عن النبي ﷺ فلحق به فلما بتنا الليلة التي فتحت قال لأعطين الراية غدا أو ليأخذن الراية غدا رجل يحب الله ورسوله يفتح عليه فنحن نرجوها فقبل هذا علي فأعطاه ففتح عليه (٩)

إخباره عليه الصلاة والسلام عن أمور غيبية وقعت بعد وفاته ﷺ

أولا: إخباره ﷺ باستشهاد بعض أصحابه صلوات الله عليهم أجمعين

_ فعن أنس بن مالك ؓ قال سعد النبي ﷺ إلى أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله قال اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان (١٠) وقد قتل عمر أبو لؤلؤة وقتل عثمان في الفتنة المشهورة.

وعن أنس بن مالك ؓ أنه سمعه يقول كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلت وما يضحكك يا رسول الله قال ناس من أمي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة شك إسحاق قالت فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها رسول الله ﷺ ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك فقلت وما يضحكك يا رسول الله قال ناس من أمي عرضوا علي غزاة في سبيل الله كما قال في الأول قالت فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت من الأولين فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت (١١).

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لعمار (تقتلك الفئة الباغية) (١٢)

ثانيا: إخباره ﷺ بأحداث عظام تقع بعد وفاته

◆ هلاك كسرى وقيصر: فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا هلك كسرى

فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله) (١٣) ومعروف تاريخيا أنه بسقوط دولة الأكاسرة ثم القياصرة انتهت دولتهما تماما ولم يستردوهما مرة ثانية

◆ ظهور الفتن بعد قتل عمر: فعن حذيفة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقال حذيفة أنا أحفظ كما قال: قال هات إنك لجريء قال رسول الله ﷺ فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال ليست هذه ولكن التي تموج كموج البحر قال يا أمير المؤمنين لا بأس عليك منها إن بينك وبينها بابا مغلقا قال يفتح الباب أو يكسر؟ قال لا بل يكسر قال ذاك أحرى أن لا يغلق قلنا علم عمر الباب قال نعم كما أن دون غد الليلة إني حدثته حديثا ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأله وأمرنا مسروقا فسأله فقال من الباب؟ قال عمر (١٤)، وعن أبي ذر أنه لقي عمر بن الخطاب فأخذ بيده فغمزها وكان عمر رجلا شديدا فقال أرسل يدي يا قفل الفتنة فقال عمر وما قفل الفتنة؟ قال جئت رسول الله ﷺ ذات يوم ورسول الله جالس وقد اجتمع عليه الناس فجلست في آخرهم فقال رسول الله ﷺ: (لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم) (١٥) والأمر مشهور في أن الفتنة بين المسلمين وقعت بعد موت عمر أما الردة فلم تكن فتنة بين المسلمين وإنما كانت كفرا بالإسلام حاربه المسلمون وهم يد واحدة

◆ الصلح على يد الحسن رضي الله عنه: فعن أبا بكره قال رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: (إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) (١٦) فهذه نبوءة عن انقسام وفرقة وصلح بواسطة الحسن، وقد كان الانقسام بين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه وجرت الدماء ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة وحقق دماء المسلمين

◆ فتنة الخوارج: خرجت هذه الفرقة في عهد الصحابة وكفرتهم واستباححت دماء

المسلمين وأحدثت في الأمة بلاء كثيرا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل، فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله [رأس السهم المدبب] فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه [ما يلف على مدخل النصل في السهم] فما يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه [ريش السهم] فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث [الأمعاء والأحشاء] والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة [قطعة اللحم] تدردر [تتحرك وتضطرب] ويخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي صلى الله عليه وسلم الذي نعتته (١٧)

◆ نار الحجاز: فعن أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى) (١٨) وبصرى كما يقول النووي (١٩) مدينة معروفة بالشام وهي مدينة حوران. وقد ذكر المؤرخون أن أمر هذه النار وقع وقد كان خروجها في سنة ٦٥٤ هجرية وكان طلبة العلم يقرؤون على ضوئها في كثير من البلاد النائية عن المدينة، ومن العلماء الكبار الذين كانوا أحياء وقت خروج هذه النار الإمام النووي وقد ذكرها في شرحه لصحيح مسلم فقال (وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة وكانت نارا عظيمة جدا من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة تواتر العلم بخروجها عند جميع أهل الشام وسائر البلدان) (٢٠) وواضح من وصف المؤرخين المشاهدين لهذه النار أنها كانت بركانا هائلا صاحبه زلازل عظيمة والشاهد أن هذه النار خرجت على النحو الذي أخبرنا به الصادق المصدوق عليه السلام.

ثالثا: الفتوحات

عن عدي بن حاتم قال بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت لم أرها وقد أنبتت عنها قال فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز؟ قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن له ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول بلى فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدي سمعت النبي ﷺ يقول اتقوا النار ولو بشقة تمره فمن لم يجد شقة تمره فبكلمة طيبة، قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه... (٢١)

قال البيهقي: قد وقعت الثالثة في زمن عمر بن عبد العزيز ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله نتذكر من نضعه فيهم فلا نجد فيرجع بماله قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس (٢٢)

• وعن البراء بن عازب قال أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق قال وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول قال فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ إلى الصخرة فأخذ المعول فقال بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا ثم قال بسم

الله وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا ثم قال بسم الله وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا (٢٣)

إنها النبوة ولا شيء غير ذلك {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} [الكهف: ٢٩]..
إنها النبوة التي دللتنا بما أخبرتنا عنه من غيوب أن لصاحبها صلة كاملة بالله تعالى، ولولا ذلك ما ظهر في كلام صاحبها آثار علم الله المحيط في الماضي والحاضر وكأنما المستقبل أمامه مكشوف بكشف الله تعالى له.

الهوامش والمصادر

- (١) تفسير القرطبي / تفسير سورة الجن / بتصريف يسير ج: ٨ ص ٧٠ (٢) السيرة النبوية / ابن هشام / ج: ٢ ص: ٢٤٩ (٣) أعلام النبوة / أبو الحسن الماوردي / الباب العاشر / ج ١ ص ١٢١ (٤) البخاري / كتاب الجنائز رقم ١٢٤٧
- (٥) البخاري كتاب الجنائز ٣٤٧٤ (٦) المعجم الكبير للطبراني بتصريف يسير ج: ١٧ ص: ٥٦
- (٧) أعلام النبوة أبو الحسن الماوردي الباب العاشر فصل فيما سمع من معجزات أقواله
- (٨) السيرة النبوية ابن هشام ج: ٥ ص: ٢٠٨ (٩) البخاري كتاب المغازي برقم ٣٨٨٧
- (١٠) البخاري كتاب المناقب برقم ٣٤١٠ (١١) البخاري كتاب الجهاد والسير ٢٥٨٠
- (١٢) مسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة برقم ٥١٩٣ (١٣) البخاري / كتاب فرض الخمس رقم ٢٨٨٨
- (١٤) البخاري / كتاب المناقب ٣٣٢١ (١٥) المعجم الأوسط ج: ٢ ص: ٢٦٨ رقم ١٩٤٥
- (١٦) البخاري / كتاب الصلح رقم ٢٥٠٥ (١٧) البخاري كتاب المناقب رقم ٣٣٤١
- (١٨) رواه البخاري / كتاب الفتن، باب خروج النار، فتح الباري (٧٨/١٣) ورواه مسلم رقم ٢٩٠٢
- (١٩) شرح النووي على مسلم [٣٠/١٨] (٢٠) شرح النووي على مسلم ٢٨/١٨
- (٢١) البخاري كتاب المناقب ٣٣٢٨ (٢٢) الرسول / سعيد حوى / دار السلام ص ٣٥٠
- (٢٣) رواه أحمد / مسند الكوفيين رقم ١٧٩٤٦

سبيكة فضة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أبيض، كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر [مسرحة الشعر] (١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحسن الناس، ربة [متوسط بين الطول والقصر]، إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين، أسيل الخدين [ليس في خديه تجاعيد]، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، أهدب الأشفار [طويل الرموش]، إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس له أخص، إذا وضع رداءه عن منكبيه فكأنه سبيكة فضة (٢)

(سبيكة فضة) أجمع وأروع صفة وُصف بها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، تحمل في طياتها من الوضاعة والاستنارة ما يليق بمقام النبوة، فوضاعة الوجه وحسن السمات أول عوامل الخير التي تفتح القلوب المغلقة، وحسبنا أن نسترسل مع أقوال صحبه الأجلاء رضي الله تعالى عنهم، الذين وصفوه لندرك كيف أن الله تعالى أحسن صورته كما أحسن سريرته فصلاة ربي وسلامه عليه صلاة تشرق إشراق البدور.

◆ عن الطفيل رضي الله عنه، قال: كان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أبيض مليحاً مُقَصِّداً [ليس بجسيم] (٣)

◆ عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في ليلة إضحيان [مقمرة] وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر (٤)

◆ وعن أبي إسحاق قال: سأل رجل البراء بن عازب أكان وجه رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر (٥)

◆ وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد شَمَطَ [اختلط السواد والبياض] مقدم رأسه ولحيته، وكان إذا ادهن لم يتبين، وإذا شعث رأسه [تفرق شعره] تبين، وكان كثير شعر اللحية، فقال رجل: وجهه مثل السيف؟ قال: لا، بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديرا، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده (٦)

◆ عن أنس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ [يميل يمينا وشمالا] ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (٧)

◆ عن البراء رضي الله عنه، قال: كان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحسن الناس وجها وأحسنه خلقا، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير (٨)

◆ عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: كان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مربوعا، بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنه، رأيته في حلة حمراء لم أر شيئا قط أحسن منه (٩) وفي رواية عنه قال: (ما رأيت من ذي لمة، في حلة حمراء، أحسن من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، له شعر يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، لم يكن بالقصير ولا بالطويل) (١٠)

◆ عن كعب بن مالك رضي الله عنه، يحدث حين تخلف عن تبوك، قال: فلما سلمت على رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه (١١)

◆ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ربعة من القوم، ليس بالقصير ولا بالطويل البائن [المفرط الطول] أزهر [أبيض مستنير] ليس بالآدم

[الأسمر] ولا بالأبيض ولا الأمهق [الشديد البياض] رجل الشعر، ليس بالسبط [المسترسل] ولا الجعد القلط [الملتوي] بعث على رأس أربعين، أقام بمكة عشرا، وبالمدينة عشرا، وتوفي على رأس ستين سنة، ليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء (١٢)

◆ عن علي رضي الله عنه، قال: كان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضخم الهامة، مشربا حمرة، شثن [غليظ] الكفين والقدمين، ضخم اللحية، طويل المسربة [الشعر المستدق من الصدر للسرة] ضخم الكراديس [رؤوس العظام] يمشي في صلب [المنحدر من الأرض] يتكفأ [يميل يمينا وشمالا] في المشية، لا قصير ولا طويل لم أر قبله مثله، ولا بعده - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (١٣)

◆ عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضليع الفم، أشكل العين، منهوس العقبين، قال: قلت لسماك ما ضليع الفم؟ قال: عظيم الفم، قال قلت ما أشكل العين؟ قال: طويل شق العين، قال: قلت ما منهوس العقب؟ قال قليل لحم العقب (١٤)

◆ عن ابن سيرين، قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه، هل كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خضب [صبغ الشعر بغير السواد] فقال: لم يبلغ الخضاب، كان في لحيته شعرات بيض، قلت له: أكان أبو بكر يخضب؟ فقال: نعم، بالحناء والكتم (١٥)

الهوامش والمصادر

- (١) رواه الترمذي في الشمائل (حسن) انظر حديث رقم: ٤٦١٩ في صحيح الجامع. السيوطي / الألباني
- (٢) رواه البيهقي (حسن) انظر حديث رقم ٤٦٣٣ في صحيح الجامع
- (٣) (صحيح) مختصر الشمائل المحمدية الترمذي / الألباني برقم ١٢
- (٤) (صحيح) مختصر الشمائل المحمدية الترمذي / الألباني برقم ٨
- (٥) (صحيح) مختصر الشمائل المحمدية الترمذي / الألباني برقم ٩
- (٦) مسلم. كتاب الفضائل برقم ٤٣٢٦
- (٧) مسلم. كتاب الفضائل برقم ٤٢٩٩
- (٨) مسلم. كتاب الفضائل برقم ٤٣١٠

- (٩) البخاري .كتاب المناقب برقم ٣٢٨٧
- (١٠) مختصر الشمائل المحمدية الترمذي / الألباني برقم ٣
- (١١) البخاري .كتاب المناقب برقم ٣٢٩٢
- (١٢) أحمد . المسند برقم ١٣٠٣١ مختصر الشمائل المحمدية الترمذي / الألباني برقم ١
- (١٣) أحمد . مسند العشرة المبشرين بالجنة برقم ١٠٦٧ مختصر الشمائل المحمدية الترمذي / الألباني / ٤
- (١٤) مسلم .كتاب الفضائل برقم ٤٣١٤ والترمذي في المناقب برقم ٣٦٤٩
- (١٥) مسلم .كتاب الفضائل برقم ٤٣١٨

وإنك لعلی خلق عظیم

♦ عن عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله. تعني خدمة أهله. فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

البخاري كتاب الأذان برقم ٦٣٥

♦ عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: اللهم صلي على آل فلان. فأتاه أبي بصدقته، فقال: اللهم صلي على آل أبي أوفى.

البخاري . كتاب الزكاة برقم ١٤٠٢

♦ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ لا يطرق أهله [الإتيان في الليل فجأة] كان لا يدخل إلا غدوة أو عشية.

البخاري . كتاب الحج برقم ١٦٧٣

♦ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ [تبين] الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة، عري، وفي عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا لم تراعوا [لا تفزعوا] ثم قال: وجدناه بحرا [أي سريعا].

البخاري . كتاب الجهاد والسير برقم ٢٦٩٢

♦ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال أحسبه فطيما، وكان إذا جاء قال يا أبا عمير ما فعل النغير [اسم طائر] نغر كان يلعب

به، فرمما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا.

البخاري . كتاب الأدب برقم ٥٧٣٥

◆ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسير له، فحدا الحادي، فقال: النبي صلى الله عليه وسلم: ارفق يا أنجشة، ويحك بالقوارير [النساء]

البخاري . كتاب الأدب برقم ٥٧٤١

◆ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعلها.
البخاري . كتاب الاستئذان برقم ٥٧٧٨

◆ عن أسامة بن زيد رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ثم يقول: اللهم ارحمهما فإني أرحمهما.
البخاري . كتاب الأدب برقم ٥٥٤٤

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤتى بالصبيان فيدعو لهم، فأتي بصبي فبال على ثوبه، فدعا بماء فأتبعه إياه ولم يغسله.

البخاري . كتاب الدعوات برقم ٥٨٧٨

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام، بهذه الآية {لا يشركن بالله شيئاً} قالت: وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها.

البخاري . كتاب الأحكام برقم ٦٦٧٤

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً لو عده العادّ لأحصاه.

مسلم . كتاب الزهد والرقائق برقم ٥٣٢٥

◆ عن بريدة رضي الله عنها قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما وعليهما قميصان أحمران يعثران فيهما، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فقطع كلامه فحملهما، ثم عاد إلى المنبر، ثم قال: صدق الله {إنما أموالكم وأولادكم فتنة} رأيت هذين يعثران في قميصيهما، فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما.

النسائي . كتاب الجمعة (صحيح) حديث ٣٧٥٧ صحيح الجامع.

◆ عن أنس بن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند أهل بيت، قال: أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وتنزلت عليكم الملائكة.

أحمد . المسند (صحيح) حديث ٤٦٧٧ صحيح الجامع.

◆ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى التمرة، فلولا أنه يخشى أن تكون صدقة لأكلها.

أحمد . المسند (صحيح) حديث ٥٣٠٩ في صحيح الجامع بمعناه

◆ عن نافع بن سرجس قال: عدنا أبا واقد البكري في وجعه الذي مات فيه، فسمعه يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم أخف الناس صلاة على الناس، وأطول الناس صلاة لنفسه.

أحمد . مسند الأنصار (صحيح) حديث ٤٦٣٦ صحيح الجامع.

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان، لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمعن منه [يتغيبن منه] فيسربهن [يرسلهن] إلي فيلعبن معي.

البخاري . كتاب الأدب برقم ٥٦٦٥

◆ عن ابنة لخباب، قالت: خرج خباب في سرية، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعاهدنا، حتى كان يحلب عنزا لنا، قالت: فكان يحلبها حتى يطفح أو يفيض، فلما رجع خباب حلبها فرجع حلابها إلى ما كان، فقلنا له: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلبها حتى يفيض. وقال: مرة حتى تمتلي، فلما حلبتها رجع حلابها.

أحمد . باقي مسند الأنصار ٢٥٨٤٩

◆ عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثُر الذكر، ويقُل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف ولا يستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما حاجتهما.

سنن الدارمي . صحيح الجامع ٥٠٠٥

◆ عن أبي قلابة، قال: حدثنا مالك: أتينا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شبة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يوما وليلة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيمًا رفيقًا، فلما ظن أننا قد اشتهينا أهلنا، أو قد اشتقنا، سألنا عن تركنا بعدنا، فأخبرنا، قال: ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم ومروهم، وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها، وصلوا كما رأيتُموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم.

البخاري . كتاب الأذان برقم ٥٩٥

◆ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم، قام النساء حين يقضي تسليمه، ويمكث هو في مقامه يسيرا، قبل أن يقوم، قال: نرى والله أعلم أن ذلك كان لكي ينصرف النساء قبل أن يدركهن أحد من الرجال.

البخاري . كتاب الأذان برقم ٨٢٣

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يجب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم.

البخاري . كتاب الجمعة برقم ١٠٦٠

◆ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مات إنسان كان رسول الله ﷺ يعودُه، فمات بالليل، فدفنوه ليلا، فلما أصبح أخبروه، فقال: ما منعكم أن تعلموني؟ قالوا: كان الليل، وكانت ظلمة، فكرهنا أن نشق عليك، فأتى قبره فصلى عليه.

البخاري . كتاب الجنائز برقم ١١٧٠

◆ عن عروة عن أبيه، قال: قالت عائشة: يا ابن أخي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها، قالت: نقول في ذلك: أنزل الله تعالى وفي أشباهها أراه قال: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا}.

أبو داود . كتاب النكاح برقم ١٨٢٣

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتها خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليتها لعائشة زوج النبي ﷺ، تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ.

البخاري . كتاب الهبة برقم ٢٤٠٤

◆ عن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفا، فأتيته أزوره ليلا، فحدثته ثم قمت، فانقلبت فقام معي ليقبني [يصحبني إلى منزلي] وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: على رسلكما، إنها صفية بنت حيي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا أو قال شيئا.

البخاري . كتاب بدء الخلق برقم ٣٠٣٩

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت أسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب، وإن كان رسول الله ﷺ ليذبح الشاة ثم يهدي في خلتها منها.

البخاري . كتاب الأدب برقم ٥٥٤٥

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإني لم أدركها، وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة، فيقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة. قالت: فأغضبته يوما، فقلت: خديجة. فقال رسول الله ﷺ: إني قد رزقت حبها.

مسلم . كتاب فضائل الصحابة برقم ٤٤٦٤

◆ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أذن بالصلاة في ليلة ذات برد وريح، فقال: ألا صلوا في الرحال. ثم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر المؤذن، إذا كانت ليلة باردة ذات مطر، يقول: ألا صلوا في الرحال [البيوت].

مسلم . كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١١٢٥

◆ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس خاتما من ذهب، فنبذه، فقال: لا ألبسه أبدا. فنبذ الناس خواتيمهم.

البخاري . كتاب اللباس برقم ٥٤١٨

◆ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض.

الترمذي . كتاب الطهارة برقم ١٤

◆ عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما، لم يغر حتى يصبح، فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار.

البخاري . كتاب الجهاد والسير برقم ٢٧٢٥

◆ عن أبي موسى رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا.

مسلم . كتاب الجهاد والسير برقم ٣٢٦٢

◆ عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا، ولا مسست خزا قط ولا حريبا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الترمذي . كتاب البر والصلة برقم ١٩٣٨

◆ عن أنس كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟ قال: قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين، ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا، أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا.

مسلم . كتاب الفضائل برقم ٤٢٧٢

◆ عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلم من أسلم، يقول: (اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني).

مسلم . كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم ٤٨٦٣

◆ عن الهياج بن عمران، أن عمران أبق له غلام، فجعل الله عليه لئن قدر عليه ليقطعن يده، فأرسلني لأسأل له، فأتيت سمرة بن جندب ﷺ فسألته، فقال: كان نبي الله ﷺ يحثنا على الصدقة، وينهانا عن المثلة. فأتيت عمران بن حصين ﷺ فسألته، فقال: كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة.

أبو داود . كتاب الجهاد برقم ٢٢٩٣

◆ عن أبي أمامة قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفعت المائدة، قال: الحمد لله، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، غير مكفي [مردود] ولا مودع [متروك] ولا مستغنى عنه ربنا.

أبو داود . كتاب الأطعمة برقم ٣٣٥١

◆ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا هؤلاء الكلمات، كما تعلم الكتابة: اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن نرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر.

البخاري . كتاب الدعوات برقم ٥٩١

◆ عن أنس رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له: إن لي إليك حاجة. فقال: اجلسي في أي طريق المدينة شئت أجلس إليك.

(صحيح) مختصر الشمائل الترمذي / الألباني برقم ٢٨٥

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا [شديد الصوت] في الأسواق، ولا يجزئ بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

(صحيح) مختصر الشمائل الترمذي / الألباني برقم ٢٩٨

◆ عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط، ما لم ينتهك من محارم الله شيء، فإذا انتهك من محارم الله شيء، كان من أشدهم في ذلك غضبا، وما خير بين أمرين إلا أختار أيسرهما، ما لم يكن مآثما.

(صحيح) مختصر الشمائل الترمذي / الألباني برقم ٣٠٠

سيد العباد صلى الله عليه وسلم

- كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يذكر الله على كل أحيانه.
البخاري . كتاب الحيض
- عن حذيفة -رضي الله عنه- قال كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا حزبه أمر صلى.
(حسن) أبو داود - ٤٧٠٣ صحيح الجامع.
- عن المغيرة -رضي الله عنه- قال: إن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ليقوم ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه، فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا.
البخاري كتاب الجمعة برقم ١٠٦٢
- عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي في السفر على راحلته حيث توجهت به يومئ [يشير برأسه] إيماء صلاة الليل إلا الفرائض ويوتر على راحلته.
البخاري كتاب الجمعة برقم ٩٤٥
- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا افتتح الصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك.
(حسن صحيح) الترمذي . كتاب الصلاة برقم ٢٢٦

• عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير، كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك.

وإذا ركع قال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي.

وإذا رفع قال: اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد.

وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت.

مسلم . كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١٢٩٠

• عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قام من الليل يتهجد، قال: اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق

ولقاءك حق وقولك حق، والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد -صلى الله عليه وسلم- حق والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاکمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسرت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله

البخاري كتاب الجمعة برقم ١٠٥٣

● عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا عمل عملاً أثبته، وكان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، قالت: وما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قام ليلة حتى الصباح، وما صام شهراً متتابعاً إلا رمضان.

مسلم . كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١٢٣٥

● كان عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- على المنبر يقول: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا انصرف من الصلاة يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، أهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

مسلم، أبو داود . كتاب الصلاة برقم ١٢٨٨

● عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة -رضي الله عنها- كيف كانت صلاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في رمضان؟ فقالت: ما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسئل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعاً فلا تسئل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أأنام قبل أن توتر؟ فقال يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي.

البخاري . كتاب الجمعة برقم ١٠٧٩

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل العشر، شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله.

البخاري . كتاب صلاة التراويح برقم ١٨٨٤

• عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما.

البخاري . كتاب الاعتكاف برقم ١٩٠٣

• عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قفل [رجع] من الحج أو العمرة -ولا أعلمه إلا قال الغزو- يقول كلما أوفى على ثنية أو فدفد [المرتفع من الأرض] كبر ثلاثا ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

البخاري . كتاب الجهاد والسير برقم ٢٧٧٣

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا عصفت الريح، قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به. قالت: وإذا تخيلت [تغيمت] السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سري عنه، فعرفت ذلك في وجهه. قالت عائشة: فسألته، فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: { فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا }.

مسلم . كتاب صلاة الاستسقاء برقم ١٤٩٦

• عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو عند الكرب، يقول: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم.

البخاري . كتاب الدعوات برقم ٥٨٦٩

• عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو يقول: رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكارا لك ذكارا لك رهابا [كثير الخوف] لك مطوعا لك محببا [خاضعا خاشعا] إليك أواها منيبا [متذلا كثير البكاء] رب تقبل توبتي واغسل حوبتي [الخطيئة والإثم] وأجب دعوتي وثبت حجتي وسدد لساني واهد قلبي واسلل سخيمة [الحقد والغل] صدري.

الترمذي . كتاب الدعوات (صحيح) حديث ٣٤٨٥ صحيح الجامع.

• عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثُر أن يقول في دعائه: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

أحمد . المسند (صحيح) حديث ٤٨٠٢ صحيح الجامع

• عن زيد ابن أرقم -رضي الله عنه- قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول، كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهزم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها

ومولاهﺎ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع،
ومن دعوة لا يستجاب لها.

مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم ٤٨٩٩

كان النبي صلى الله عليه وسلم

• عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخولنا [يتخير الوقت المناسب] بالموعظة في الأيام كراهة السّامة علينا.

البخاري . كتاب العلم رقم ٦٦

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله.

البخاري . كتاب الوضوء برقم ١٦٣

• قال شريح بن هانئ لعائشة: أخبريني بأي شيء كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يبدأ إذا دخل عليك؟ قالت: كان إذا دخل يبدأ بالسواك.

ابن ماجة . حديث ٤٧١٧ صحيح الجامع

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشتد عليه أن يوجد منه الريح.

بعض حديث لمسلم . كتاب الطلاق برقم ٢٦٩٥

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ للصلاة.

البخاري . كتاب الغسل برقم ٢٧٩

• عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتوضأ عند كل صلاة قلت كيف كنتم تصنعون قال يجزئ أحدنا الوضوء ما لم يحدث.

البخاري . كتاب الوضوء برقم ٢٠٧

• عن كعب بن مالك -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه.

البخاري . كتاب الصلاة

• عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- من أخف الناس صلاة في تمام.

أحمد . حديث ٤٦٣٧ صحيح الجامع

• عن عبد الله بن شقيق -رضي الله عنه- قال: قلت لعائشة -رضي الله عنها-: هل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي وهو قاعد؟ قالت: نعم بعد ما حطمه الناس.

مسلم . كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١٢٠٩

• عن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيا وراكبا [فيصلي فيه ركعتين]

البخاري كتاب الجمعة برقم ١١١٨

• عن أبي برزة -رضي الله عنه- قال كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها.

(حسن صحيح) الترمذي . كتاب الصلاة برقم ١٥٣

• عن عباس -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة.

البخاري. كتاب الصوم برقم ١٧٦٩

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأتيني، فيقول: أعندك غداء؟ فأقول: لا. فيقول: إني صائم. قالت: فأتاني يوما، فقلت: يا رسول الله: إنه قد أهديت لنا هدية. قال: وما هي؟ قالت: قلت: حيس [طعام من الدقيق واللبن والسمن] قال: أما إني قد أصبحت صائما. قالت: ثم أكل.

(حسن) الترمذي. كتاب الصوم برقم ٦٦٦

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتحرى صوم الاثنين والخميس.

(صحيح) الشمائل بتحقيق الألباني برقم ٢٥٨

• عن أنس -رضي الله عنه- يقول: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحتجم ولم يكن يظلم أحدا أجره.

البخاري. كتاب الإجارة برقم ٢١١٩

• عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعوذ الحسن والحسين، ويقول: إن أباكما [أي إبراهيم عليه السلام] كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق،

أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة [الحيوانات والحشرات السامة القاتلة] ومن كل عين لامة [تصيب وتؤذي أو حاسدة].

البخاري . كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣١٢٠

• عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أشد حياء من العذراء في خدرها (وإذا كره شيئاً عرف في وجهه).

البخاري . كتاب المناقب برقم ٣٢٩٨

• عن جابر -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- تنام عينه ولا ينام قلبه.

البخاري . كتاب المناقب

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحب الخلواء والعتس.

البخاري . كتاب الأشربة برقم ٥١٧٠

• عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا أتى بطيب لم يردّه.

صحيح النسائي . الألباني برقم ٤٨٥٢

• عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعجبه الفأل الحسن ويكره الطيرة [التشاؤم].

ابن ماجة . كتاب الطب . ٤٩٨٥ صحيح الجامع .

• عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا بلغه عن الرجل الشيء، لم يقل: ما بال فلان يقول، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.
أبو داود . كتاب الأدب . ٤٦٩٢ صحيح الجامع

• عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده -رضي الله عنه- قال كان النبي: -صلى الله عليه وسلم- إذا أتى بشيء سأل عنه أهديه أم صدقة فإن قيل صدقة لم يأكل وإن قيل هدية بسط يده.

النسائي . كتاب الزكاة . ٤٦٤٥ صحيح الجامع.

• عن أنس -رضي الله عنه- قال كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) فقلنا يا رسول الله آمنة بك وبما جئت به فهل تخاف علينا فقال نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها.

(صحيح) كتاب السنة بتحقيق الألباني برقم ٢٢٥

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

• عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة. والمقفي: لأنه جاء عقب الأنبياء وفي قفاهم

مسلم . كتاب الفضائل برقم ٤٣٤٤

• عن أبي بردة عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ قد أعطي جوامع الكلم بخواتمه. بعض حديث رواه مسلم كتاب الأشربة برقم ٣٧٣١

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول صبحكم ومساكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي.

مسلم . كتاب الجمعة برقم ١٤٣٥

• عن جابر رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً.

مسلم . كتاب الحج برقم ٢١٢٧

• عن ابن عباس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه [أي يدفعون]، فلما كثر عليه ركب، والسعي والمشى أفضل.

بعض حديث مسلم . كتاب الحج برقم ٢٢١٧

• عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا.

أبو داود . كتاب الأدب (صحيح) ٤٦٩١ صحيح الجامع

• عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة فيقرأ بالسورة الخفيفة أو بالسورة القصيرة.

مسلم . كتاب الصلاة برقم ٧٢٢

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نطن أن لا يصوم منه، ويصوم حتى نطن أن لا يفطر منه شيئا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيت، ولا نائما إلا رأيت.

البخاري . كتاب الجمعة برقم ١٠٧٣

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض أو غض بها صوته.

أبو داود . كتاب الأدب (صحيح) ٤٧٥٥ صحيح الجامع

• عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم السلام عليكم، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور.

أبو داود . كتاب الأدب (صحيح) ٤٦٣٨ صحيح الجامع.

• عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا أعده كاذبا- الرجل يصلح بين الناس يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها.

أبو داود . كتاب الأدب(صحيح) ٧١٧٠ صحيح الجامع

• عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بآخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى. فقال: كفارة لما يكون في المجلس.

صحيح أبو داود / الألباني . كتاب الأدب برقم ٤٠٦٨

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل البطيخ بالرطب، فيقول: نكسر حر هذا ببرد هذا وبرد هذا بحر هذا.

أبو داود . كتاب الأظعمة (صحيح) ٤٨٧٩ صحيح الجامع.

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم.

أبو داود . كتاب الجهاد(صحيح) ٤٩٠١ صحيح الجامع

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه.

الترمذي . كتاب المناقب (صحيح) ٤٩٩٠ صحيح الجامع

• ابن عمر رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يودعنا فيقول: (أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك).

الترمذي . كتاب الدعوات (صحيح) ٩٥٧ صحيح الجامع

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أهله الوعك أمر بالحساء فصنع، ثم أمرهم فحسوا منه، وكان يقول: إنه ليرتق فؤاد الحزين، ويسرو عن فؤاد السقيم، كما تسرو إحدانك الوسخ بالماء عن وجهها.

الترمذي . كتاب الطب (صحيح) ٤٦٤٦ صحيح الجامع

• عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين وأنا معهما.

الترمذي . كتاب الصلاة برقم ١٥٤

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه. قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا).

مسلم . كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٥٠٤٦

• عن معاذة قالت: قلت لعائشة أكان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر؟ قالت: نعم. قلت: من أيه كان يصوم. قالت: كان لا يبالي من أيه صام.

صحيح الترمذي في الشمائل / الألباني برقم ٢٦٢

• عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ينقع له الزبيب فيشربه اليوم والغد وبعد الغد إلى مساء الثالثة ثم يأمر به فيسقى [في رواية الخدم] أو يهراق.
قال أبو داود: ومعنى يسقى الخدم: يبادر به الفساد

مسلم كتاب الأشربة برقم ٣٧٤١

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم [يستعجل ويسرع في الكلام] هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل [فارق مميز] يحفظه من جلس إليه.

(صحيح) الترمذي في الشمائل / الألباني برقم ١٩١

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها.

البخاري . كتاب الهبة برقم ٢٣٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصف النبي

صلى الله عليه وسلم

عن الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنه، قال: سألتُ خاليَ هندَ ابنَ أبي هالةَ، رضي الله عنه، عن حلية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانَ وصافاً، وأنا أَرُجُو أن يَصِفَ لي مِنْهُ شَيْئاً أُنْعَلِقُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

**** فَحْمًا مُفَحَّمًا [فحما: أي عظيماً في نفسه] [مفحما: أي معظماً في الصدور لا**

يستطيع مكابر أن لا يعظمه وإن حرص]

**** يَتَأَلَّأُ وَجْهُهُ تَأَلُّؤُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ [أي ليلة أربعة عشر سمي بداراً لأنه يسبق**

طلوعه مغيب الشمس]

**** أَطُولُ مِنَ الْمَرْبُوعِ: [هو بين الطويل والقصير. يقال رجل ربعة ومربوع]**

**** وَأَقْصَرَ مِنَ الْمَشْدَبِ [المشذب هو البائن الطول مع نحافة أي نقص في اللحم]**

**** عَظِيمُ الْهَامَةِ [كبيرها وعظمها يدل على الرزانة والوقار]**

**** رَجَلُ الشَّعْرِ [كأنه مشط فليس بسبط ولا جعد]**

**** إِنْ انْفَرَقَتْ عَقِيصَتُهُ فُرِّقَ [عقيصته أي شعر رأسه، فُرِّقَ: أي انفرق شعره بسهولة،**

فجعل شعره نصفين نصفاً عن يمينه ونصفاً عن يساره]

**** وَإِلَّا فَلَا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنِهِ إِذَا هُوَ وَفْرَةٌ [لا يجاوز شحمة أذنيه إذا أعفاه من**

الفرق]

**** أَزْهَرَ اللَّوْنِ**

**** وَاسِعَ الْجَبِينِ [وهما ما اكتنفا الجبهة عن يمين وشمال]**

**** أَرْجَ الحَوَاجِبِ [أي مدتهما مع تفوس وغزارة]**

** سَوَابِعٌ فِي غَيْرِ قَرْنٍ [أي كاملات (في غير قرن) أي اجتماع.. يعني طرفي حاجبيه
سبغا أي طالا حتى كادا يلتقيان ولم يلتقيا]

** بَيْنَهُمَا عِرْقٌ يَدْرُهُ الْعَضْبُ [يديره) أي يحركه الغضب نافرأ، فكان إذا غضب امتلأ
ذلك العرق دماً كما يمتلئ الضرع لبناً إذا در]

** أَفْقَى الْعَرَيْنِ [أي طويل الأنف مع دقة أرنبته]

** لَهُ نُورٌ يَغْلُوهُ [يغلبه من حسنه وبهائه]

** يَحْسِبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمَّ [مرتفعاً قصبه الأنف]

** كَثَّ اللَّحْيَةِ [كثير شعرها غير مسبلة]

** أَدْعَجَ الْعَيْنِ [شديد سواء حدقتها وشدة بياضها]

** سَهَلَ الْخَدَّيْنِ [أي ليس فيهما نتوء ولا ارتفاع]

** ضَلِيعَ الْفَمِّ [عظيمة أو واسعه والعرب تتمدح بعظمه وتذم صغره]

** أَشْنَبَ، مُفْلَجَ الْأَسْنَانِ [أشنب أي أبيض الأسنان مع بريق وتحديد فيها، (مفلج

الأسنان) أي مفرج ما بين الثنايا]

** دَقِيقَ الْمَسْرِيَةِ [شعر دقيق من الصدر إلى السرة]

** كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدٌ دُمِيَّةٌ فِي صَفَاءِ الْفِصَّةِ [ظرف الشكل وحسن الهيئة وبالفضة في

اللون والإشراق]

** مُعْتَدِلَ الْخَلْقِ [أي الصورة الظاهرة يعني متناسب الأعضاء خلقاً وحسناً]

** بَادِنًا مَتْمَاسِكًا [ضخم البدن، يمسك بعض أجزائه بعضاً من غير ترجرج]

** سَوَاءَ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ [كناية عن كونه خميص البطن والحشا أي ضامر البطن]

** عَرِيضَ الصَّدْرِ [واسع رحب]

** بَعِيدٍ مَا بَيْنَ الْمُتَكِينِ

** ضَخْمَ الْكَرَادِيْسِ [جمع كردوس، وهي رءوس العظام]

**** أَنْوَرَ التَّجْرُدِ [نيره، والمتجرد ما جرد عنه الثياب وكشف من جسده.. أي كان مشرق جميع البدن]**

وفي رواية (أجرد) هو الذي ليس على بدنه شعر، ولم يكن كذلك وإنما أراد به أن الشعر كان في أماكن من بدنه كالمسربة والساعدين والساقين فإن ضد الأجرد، الأشعر، وهو الذي على جميع بدنه شعر.

**** مَوْصُولٌ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ [موضع الذبح] وَالسُّرَّةِ بِشَعْرٍ يَجْرِي كَالْحَطِّ**

**** عَارِي الثَّدْيَيْنِ وَالْبَطْنِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ**

**** أَشْعَرَ الذَّرَاعَيْنِ وَالْمَنْكَبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ**

**** طَوِيلَ الزَّنْدَيْنِ [وهو ما انحسر عنه اللحم من الذراع]**

**** رَحَبَ الرَّاحَةِ [واسعها حسا وعطاء]**

**** شِئْنُ الكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ [الشئْن: الغليظ، أي في أنامله غلظ بلا قصر وذلك يحمد**

في الرجل ويذم في المرأة، وهو مدح في الرجال لأنه أشد لعصبهم وأصبر لهم على المراس، ولا يعارضه ما جاء في نعومة بدنه وكفه لأن اللين في الجلد والغلظ في العظم]

**** سَائِلٌ أَوْ سَائِرِ الْأَطْرَافِ [غير متعقدة]**

**** سَبَطَ الْقَصَبِ [ليس في ذراعيه وساقيه وفخذه نتوولا تعقد]**

**** خَمْصَانِ الْأَخْمَصَيْنِ [أي شديد تجافي أخمص القدم عن الأرض وهو المحل الذي لا**

يلصق بهما عند المشي]

**** مَسَحَ الْقَدَمَيْنِ يَنْبُؤُ عَنْهُمَا الْمَاءُ [أملسهما مستويهما لينهما بلا تكسر ولا تشقق**

جلد بحيث (ينبو عنهما الماء) أي يسيل ويمر سريعا إذا صب عليهما]

**** إِذَا زَالَ زَالَ قَلْعًا [أو تقلعا، وفي رواية إذا مشى تقلع.. أراد قوة مشيه كأنه يرفع**

رجليه من الأرض رفعا قويا وهي مشية أهل الجلادة والهمة لا كمن يمشي اختيالا ويقارب خطاه فإن ذلك من مشي النساء ويوصفن به]

**** يَخْطُو تَكْفِيًا أَوْ تَكْفُوا [مال صدره إلى الأمام]**

** وَيَمْشِي هَوْنًا [أي مشياً هيناً بلين ورفقا]

** ذَرِيعَ الْمَشِيَةِ [كسريع وزناً ومعنى (المشيّة) سريعاً مع سعة الخطوة فمع كون مشيه

بسكينة كان يمد خطواته]

** إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ [المنحدر من الأرض]

** إِذَا التَفَّتَ التَّفَّتَ جَمِيعًا [أي شيئاً واحداً فلا يسارق النظر ولا يلوى عنقه كالطائش

الخفيف، بل يقبل ويدبر جميعاً]

** خَافِضَ الطَّرْفِ [أي البصر يعني إذا نظر إلى شيء خفض بصره]

** نَظَرُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَطْوَلَ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ [حال السكوت وعدم التحدث، لأنه

كان دائم المراقبة متواصل الفكر ونظره إليها ربما فرق فكره ومزق خشوعه]

** جَلَّ نَظَرُهُ الْمَلَا حَظَةً [مفاعلة من اللحظ أي النظر بشق العين مما يلي الصدغ]

** يَسُوقُ أَصْحَابَهُ [أي يقدمهم أمامه ويمشي خلفهم كأنه يسوقهم]

** وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَ بِالسَّلَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تواضع النبي

صلى الله عليه وسلم

روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا خير البرية [الخلق] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام)

** قال العلماء: إنما قال صلى الله عليه وسلم هذا تواضعًا واحترامًا لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- خلته وأبوتته، وإلا فبيننا صلى الله عليه وسلم أفضل، كما قال صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ولم يقصد به الافتخار ولا التطاؤل على من تقدمه، بل قاله بيانًا لما أمر ببيانه وتبليغه.

** أورد بعضهم إشكال بأنه لو كان -صلى الله عليه وسلم- أفضل من أبو الأنبياء إبراهيم لغير صفة الصلاة عليه في التشهد بعد علمه أنه أفضل، وأجيب بأنه:

// لا تلازم بين علمه بأنه أفضل وبين التغيير، لأن بقاء ذلك لا يستلزم نقصا فيه بل

التغيير قد يوهم نقصا لإبراهيم.

// أو أنه قال ذلك تواضعا وشرعا لأتمته ليكتسبوا به الفضيلة.

// أو التشبيه (في قوله: كما صليت) إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة لا للقدر

بالقدر. كقوله تعالى:

// {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣]

// {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}

[البقرة: ١٨٣]

// {وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: ٧٧]

** الحديث دليل على أن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- أفضل الأنبياء بعد نبينا -صلى الله عليه وسلم-، واختص الله عز وجل نبيه دون إبراهيم بذكره فيما لا يذكر إبراهيم فيه في التأذين في الصلاة والإقامات بما بأن جعله -صلى الله عليه وسلم- مذكورا فيها بعد ذكره عز وجل فيها، فكانت هذه منزلة فضل بها نبينا -صلى الله عليه وسلم- على سائر النبيين صلى الله عليهم أجمعين

وأیضا قال تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢] ولم يغفر لأحد قبله ما تأخر من ذنبه.. وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فأعطاه المقام المحمود الذي لم يعطه غيره.

** ويتضمن هذا الحديث جواز التفاضل بين الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، ويلى إبراهيم موسى عليه السلام؛ لأنه كليم الرحمن، وقد اجتمع في نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ما تفرق في غيره، فهو خليل الرحمن، وكليم الرحمن، وإبراهيم خليل الرحمن، وموسى كليم الرحمن.

** قيل إن سبب هذا الحديث أن الآية لما نزلت {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠] قال بعض الناس: "شك إبراهيم ولم يشك نبينا" فبلغه -صلى الله عليه وسلم- ذلك فقال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)

// وأراد ما جرت به العادة في المخاطبة لمن أراد أن يدفع عن آخر شيئا، قال: مهما أردت أن تقوله لفلان فقله لي. ومقصوده لا تقل ذلك.

// وقيل معناه: هذا الذي ترون أنه شك أنا أولى به لأنه ليس بشك إنما هو طلب لمزيد البيان.

// وقيل هو نحو قوله تعالى: {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [الدخان: ٣٧] أي لا خير في الفريقين، ونحو قول القائل: «الشیطان خیر من

فلان» أي لا خير فيهما، فعلى هذا فمعنى قوله -صلى الله عليه وسلم- (نحن أحق بالشك من إبراهيم) لا شك عندنا جميعا.

وقال ابن عطية: ومحمل قول بن عباس عندي أنها أرجى آية لما فيها من الإدلال على الله.

فقول إبراهيم عليه السلام: {بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي} أي ليزيد سكونا بالمشاهدة المنضمة إلى اعتقاد القلب لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب.

** وهذا الحديث مثل الحديث الذي رواه عبد الله قال رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) [الدارمي]

وعن ابن عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من قال أنا خيرٌ من يونس بن متى فقد كذب) [البخاري]

أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس، أو ليس لأحد أن يفضلني عليه، وهذا من تواضعه -صلى الله عليه وسلم-، أو قاله زجرا عن تَوَهُّمِ حَطِّ رُتْبَةِ يُونُسَ.

قال العلماء: وتخصيصه يونس بتسميته من بين سائر الأنبياء لأن الله تعالى وصفه بأوصاف قد يسبق إلى الأوهام انحطاطه في الدرجة وانخفاضه في المنزلة، وذلك أنه تعالى قال:

{وَدَا النُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧]، وقال: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [الصافات: ١٤٠]، وقال: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}

[الصافات: ١٤٢]، وقال: {لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لُنُبِدَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ} [القلم: ٤٩]

هذا مع أن فضله -صلى الله عليه وسلم- ثابت على جميع الأنبياء السابقين بلا ريب، وهذا الحديث إنما قاله من تواضعه عليه أفضل الصلاة والسلام.

** ومثله حديث: (لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش [أي متعلق به بقوة. والبطش: الأخذ القوي الشديد] فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله؟) [متفق عليه]

وأورد أبو داود حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رجلاً من اليهود قال: والذي اصطفى موسى، وفي بعض الروايات: على العالمين، فغضب المسلم الذي سمعه ولطمه؛ لأنه فضله على محمد؛ حيث قال: على العالمين، ومعناه: أنه فضله تفضيلاً مطلقاً، فلطمه المسلم، وجاء اليهودي واشتكى المسلم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فعند ذلك قال -صلى الله عليه وسلم-: (لا تخيروني على موسى)

** ومثله حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قال: (أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ)، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فِيوَسْفُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ حَلِيلِ اللَّهِ)

أي إذا لم تسألوني عن هذا، فأكرم الناس في زمانه يوسف أو في النسب والحسب كما يدل عليه تعداد آبائه وأجداده كما في صحيح البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنه- عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ بَنُ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ)

بكاء الرسول

صلى الله عليه وسلم

** البكاء نعمة عظيمة امتنَّ الله بها على عباده، قال تعالى: {وأنه هو أضحك وأبكى} [النجم: ٤٣]، فهو المنتنِّس من هموم الحياة ومتاعبها، وبه تحصل المواساة للمحزون، والتسلية للمصاب.

** والبكاء لا يعيب الرجال إذا كان عن رحمة وشفقة ورقة قلب. وغلظة القلب مذمومة، ومن لا يرحم لا يرحم كما جاء في الحديث الشريف، والرحمة صفة محمودة، اتصف بها الرحمن سبحانه، «وَأَمَّا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ» كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. ** وأعلى البكاء وأفضله ما كان خشوعاً وخشية لله تعالى، وهو غالب بكاء الرسل عليهم السلام {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨]

وأثنى الله تعالى به على أهل العلم {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة: ٨٣] وفي آية أخرى {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٧/١٠٩]

** وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرو -رضي الله عنهما-: "ابكوا فإن لم تجدوا بكاءً فتباكوا، لو تعلمون العلم لصلَّى أحدكم حتى ينكسر ظهره، ولبكى حتى ينقطع صوته" [الحاكم وصححه].

** ومن السبعة الذين يظلمهم الله تعالى بظله يوم لا ظل إلا ظله «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهُ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»

** ولقد اجتمعت في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الخلال أحسنها، ومن الصفات أعلاها، ومن الآداب أرفعها، مع رقة في قلبه، وخشية لربه، ورأفة بأمته، وخشوع في صلاته، مما يثير أشجانه، ويهيج مشاعره، فتفيض بالدمع عينه.

**** بكاؤه في الصلاة:**

فها هي العبرات قد سالت على خدّ النبي -صلى الله عليه وسلم- شاهدةً بتعظيمه ربّه وتوقيره لمولاه، وهيبته من جلاله، عندما كان يقف بين يديه يناجيه ويكي // عن عبد الله بن الشخير -رضي الله عنه- قال: "رأيت رسول الله يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء"، وفي رواية: "وفي صدره أزيز كأزيز المرجل" [هو الصوت الذي يصدره الوعاء عند غليانه]

// وعن عطاء بن أبي رباح -رحمه الله- قال: "دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزور، فقال: أقول يا أمّه كما قال الأول: زُرْ غِبًّا تزدّدُ حبًّا، فقالت: دعونا من رطانتكم هذه [الرطانة: الكلام بالأعجمية، وكلُّ كلام لا تفهمُهُ العربُ فهو رطانة]، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيتُه من رسول الله -صلى الله عليه وسلّم-، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: (يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي)، قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرُّك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره، قالت: وكان جالسًا، فلم يزل يبكي حتى بلّ لحيته، ثم بكى حتى بلّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت عليّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ١٩٠])

// وبكى -صلى الله عليه وسلّم- في صلاة الكسوف خوفا على أمته من نزول العذاب؛ كما في حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: «كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلّم-، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلّم-»

فَاطَالَ الْقِيَامَ ثُمَّ رَكَعَ فَاطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ فَاطَالَ فِي السُّجُودِ نَحْوَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ يَبْكِي فِي سُجُودِهِ وَيَنْفُخُ وَيَقُولُ: رَبِّ لَمْ تَعِدْنِي هَذَا وَأَنَا أَسْتَغْفِرُكَ، رَبِّ لَمْ تَعِدْنِي هَذَا وَأَنَا فِيهِمْ»
[أحمد]

**** بكاءه عند سماع القرآن:**

// عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: اقرأ عليّ القرآن، قال: فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمع من غيري، فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]، رفعت رأسي -أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي- فرأيت دموعه تسيل.

وفي رواية البخاري: (حتى أتيت إلى هذه الآية: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرغان.

قال ابن بطال: "وإنما بكى عند هذا؛ لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه والإيمان به، وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن".

**** بكاءه على القبر:**

// عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: زار النبي قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: (استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور؛ فإنها تذكروا الموت)

// وعن البراء بن عازب قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى حتى بل الثرى، ثم قال: (يا إخواني، لمثل هذا فأعدوا)؛ هذا لفظ ابن ماجة.

وفي رواية أحمد: بينما نحن مع رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذ بصر بجماعة، فقال: علام اجتمع عليه هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله، فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر، فجنثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: (أي إخواني، لمثل اليوم فأعدوا)

وإنما كان بكأوه عليه الصلاة والسلام بمثل هذه الشدة لوقوفه على أهوال القبور وشدتها، ولذلك قال في موضع آخر: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً) [متفق عليه].

**** بكأوه رقة ورحمة:**

// عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: دخلنا مع رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ وَكَانَ ظَنُرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [الظئر زوج المرضعة]، فأخذ رسول الله إبراهيم، فقبَّله وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة)، ثم أتبعها بأخرى، فقال: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)

// وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: أخذ النبي بنتاً له تقضي، فاحتضنها، فوضعها بين ثدييه، فماتت وهي بين ثدييه، فصاحت أم أيمن، فقيل: أتبكي عند رسول الله؟! قالت: أَلَسْتُ أراك تبكي يا رسول الله؟ قال: (لستُ أبكي، إنما هي رحمة، إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تخرج من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل)

// وعن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قال: كان ابن لبعض بنات النبي يقضي، فأرسلت إليه أن يأتيها، فأرسل: (إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل إلى أجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب)، فأرسلت إليه فأقسمت عليه، فقام رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقمت معه، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وعبادة بن الصامت، فلما دخلنا ناولوا رسول

الله الصبي، ونفسه تقعقع، فبكى رسول الله، فقال سعد بن عباد: أتبكي؟! فقال: (إنما يرحم الله من عباده الرحماء).

// وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: (اشتكى سعد بن عباد شكوى له، فأتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، فلما دخل عليه وجده في غشية، فقال: أقد قضى؟ قالوا: لا، يا رسول الله، فبكى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما رأى القوم بكاء رسول الله، بكوا، فقال: (ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا -وأشار إلى لسانه- أو يرحم)

**** بكاؤه لأجل أمته:**

// عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن النبي تلا قول الله -عز وجل- في إبراهيم: {رَبِّ إِهْنِ أَضْلَلْنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى -عليه السلام-: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه، وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسأله: ما يبكيك؟ فأثاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله، فأخبره رسول الله بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنُرضيك في أمتك ولا نسوؤك)

**** بكاؤه في الأحداث العامة**

// في غزوة بدر دمعت عينه -صلى الله عليه وسلم- خوفاً من أن يكون ذلك اللقاء مؤذناً بنهاية المؤمنين وهزيمتهم على يد أعدائهم، كما جاء عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قوله: "ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح" [أحمد].

// وبعد غزوة بدر يروي ابن عباس -رضي الله عنهما- عن عمر بن الخطاب: ... فلما أسروا الأسارى -يعني في غزوة بدر- قال رسول الله لأبي بكر وعمر: ما ترون في

هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكِّنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان -نسيباً لعمر- فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله: أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله - وأنزل الله عز وجل: {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى لَهَ أُسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٦٧/٦٨] إلى قوله: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال: ٦٩]، فأحل الله الغنيمة لهم

// وقاتل المسلمون ضد الروم في غزوة مؤتة، وقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل، أما الروم فكان عددهم مائتي ألف.. قال أنس بن مالك -رضي الله عنه-: أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيداً، وجعفرًا، وابن رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ، فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ: حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيْوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ [البخاري]

// وفي استشهاد جعفر -رضي الله عنه- ذهب رسول الله إلى أسماء بنت عميس ليخبرها باستشهاد زوجها، وكانت قد جهزت العجين، ونظفت الأبناء، فدخل عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وطلب منها أن تحضر الأبناء، فأحضرتهم، فأقبل عليهم وشتمهم وعيناه تذرِفانِ الدموع، فسألته أسماء إن كان قد بلغه خبر عن جعفر والذين معه، فأخبرها بما

حدث، فصاحت حتى اجتمعن عندها النساء، فخرج رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -،
وأوصى بتحضير الطعام لأهل بيت جعفر رضي الله عنه

فَاتَّخَذَ خَاتَمًا

روى البخاري ومسلم عن قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ: لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الرُّومِ، قِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ، وَنَقَشَ فِيهِ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»

** فيه بيان المراسلات والكتابات ودورها بين القيادات والرؤساء والشعوب، وهو دلالة عدم العزلة المجتمعية والانفتاح على الآخر من مكانك الذي تعيش فيه، فما بالك إذا كنت تسكن معه أو تجاوره في أرضه، وهو واجب الساعة بين الدول والمؤسسات والجميع لتوضيح وجهات النظر وطرد الشبهات وتغيير القناعات الخاطئة.

** مسaire الواقع المعاصر والأعراف الدولية بما لا يتنافى مع مبادئك وأصولك، وممكن أن نطلق عليه «القانون الدولي والأعراف السياسية والمجتمعية» ففي رواية لهذا الحديث: أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يكتب إلى رهط أو أناس من الأعاجم

وفي رواية لمسلم: «أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي ف قيل له إنهم لا يقبلون كتابا إلا مختوما»

قال شراح الحديث: وفي ذلك أيضا مخالفة الناس بأخلاقهم، واستئلاف العدو بما لا

يضر [عمدة القاري]

** وقد كانوا لا يقرءون كتابا إلا محتوما خوفا من كشف أسرارهم، وإشعارا بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن يكون مما لا يطلع عليها غيرهم [عمدة القاري] وقد ورد أن «كرامة الكتاب ختمه»

وعن ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به.

**** قوله: وَنَقَشَ فِيهِ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»**

في رواية عن أنس -رضي الله عنه- إن رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- اتخذ خاتماً من وَرَقٍ، وله فص حبشي ونقشه: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وفي رواية: ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر

قال ابن حجر: لكن لم تكن كتابته على السياق العادي، فإن ضرورة الاحتياج إلى أن

يختم به تقتضي أن تكون الأحرف المنقوشة مقلوبة ليخرج الختم مستويا

**** في رواية عند البخاري عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: صَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتِماً، قَالَ: (إِنَّا اتَّخَذْنَا خَاتِماً، وَنَقَشْنَا فِيهِ نَقْشاً، فَلَا يَنْقُشَنَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ)**

أي في حياته، لئلا يقع الالتباس عند الختم به.

وقوله (فلا ينقش أحده عليه) يظهر أهمية أخذ الاحتياطات والتدابير الاحترازية التي

من خلالها يمنع التقليد ويضيع الجهود ويقلل من الأهمية، ويقاس على الختم أمور أخرى

كالاسم والإيميل والصفحة الالكترونية، والمنصة الإعلامية ... الخ

**** حكم لبس الخاتم**

لم يكن لبس الخاتم من عادة العرب، فلما أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن

يكتب إلى الملوك اتخذه

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- أَنَّهُ رَأَى فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ- خَاتِماً مِنْ وَرَقٍ يَوْمًا وَاحِدًا ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اضْطَرَبُوا الْخَوَاتِمَ مِنْ وَرَقٍ فَلَبِسُوهَا، فَطَرَحَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتِمَهُ، فَطَرَحَ النَّاسُ خَوَاتِمَهُمْ [مسلم]

وفي رواية: أن رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- اتخذ خاتماً من وَرَقِ عَلِيٍّ لُونِ مِنَ الْأَلْوَانِ، وكره أن يتخذ أحد مثله، فلما اتخذوا مثله رماه ثُمَّ بعد أن رموا خواتيمهم اتخذ خاتماً آخر ونقشه ليختم به.

قال أهل العلم: أنه -صلى الله عليه وسلم- اتخذ الخاتم للزينة فلما تبعه الناس عَلَى ذَلِكَ أَلْقَاهُ وَأَلْقَوْا بَعْدَ ذَلِكَ خَوَاتِيمَهُمْ، فلما احتاج إلى ختم اتخذ خاتماً آخر.

وذهب ابن حجر إلى تأويل آخر: هُوَ أَنَّهُ اتَّخَذَ خَاتَمَ الذَّهَبِ لِلزَّيْنَةِ وَتَتَابَعَ النَّاسُ فِيهِ، فَوَقَعَ تَحْرِيمَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: (لا ألبسه أبداً)، فطرح الناس خواتيمهم تبعاً له، ثُمَّ احتاج إلى الخاتم لأجل الختم، فاتخذ من فضة ونقش فِيهِ اسْمَهُ الْكَرِيمِ، فتبعه الناس أَيْضاً عَلَى تِلْكَ الْخَوَاتِيمِ الْمَنْقُوشَةِ، فَرَمَى بِهِ حَتَّى رَمَى النَّاسُ تِلْكَ الْخَوَاتِيمِ الْمَنْقُوشَةَ حَتَّى لَا تَفُوتَهُ مَصْلِحَةٌ نَقَشَ اسْمَهُ بِوَقُوعِ الْإِشْتِرَاكِ، فلما عدت خواتيمهم جميعاً رجع إلى خاتمه الخاص به فصار يتختم به.

قال بعض أهل العلم: لجواز لبسه للذكور عندنا شروط: اتحاده وعدم تعدده، ولبسه للسنة لا للمباهاة ونحوها، وأن يكون قدر درهمين فأقل.

**** في رواية: وكان فصه منه: وفي مسلم وغيره: (وكان فصه حبشياً).**

قال ابن حجر: ولا معارضة بينهما لأنه إما أن يحمل على التعدد، ومعنى قوله "حبشي" أي كان حجراً من بلاد الحبشة، أو على لون الحبشة، أو كان جزعاً أو عقيقاً، لأن ذلك قد يؤتى به من بلاد الحبشة، ويحتمل أن يكون هو الذي فصه منه، ونسب إلى الحبشة لصفة فيه، إما الصياغة وإما النقش

**** في رواية: كَانَ يَجْعَلُ فَصَهُ مِثْلَ يَلِيِّ كَفِهِ.**

هذا ليعلم أنه لم يلبسه للزينة بل للختم ونحوه

وقال القاضي عياض: ليس في لبسه على هذا الوجه أمر منه -صلى الله عليه وسلم-، لكن الاقتداء به حسن، فيجوز جعل الفص في البطن والظهر، وعمل السلف بالوجهين.

**** الخاتم في الخنصر**

أي دون غيره من السبابة والوسطى، فروى مسلم وأبو داود والترمذي من طريق أبي بردة عن أبي موسى عن علي رضي الله عنه قال نهاني رسول الله أن ألبس خاتماً في هذه وهذه. يعني السبابة الوسطى.

قال النووي: أجمع المسلمون على أن السنة جعل خاتم الرجل في الخنصر، وأما المرأة فإنها تتخذ خواتيم في أصابع، قالوا: والحكمة في كونه في الخنصر أنه أبعد من الامتهان فيما يتعاطى باليد، لكونه صرفاً، ولأنه لا يشغل اليد عما تتناوله من أشغالها بخلاف غيره. أهـ

**التختم في اليمين واليسار

قال في الرسالة: والاختيار مما روي في التختم، التختم في اليسار، لأن تناول الشيء باليمين، فهو يأخذ بيمينه ويجعله في يساره.

وقال في القبس: صح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه تختم في يمينه وفي يساره، واستقر الأمر على تختمه باليسار.

زاد السيوطي عن البغوي والبيهقي: والعمل على اليسار، والأول منسوخ.

وقال القرطبي: جعل الخاتم في خنصر اليسرى هو الأفضل والأحسن عند مالك.

وقال الأبي: اختلف المذهب في المستحب منه، والصحيح أنها الشمال.

قال في الفتح: قال ابن أبي حاتم سألت أبا زرعة عن اختلاف الأحاديث في ذلك فقال لا يثبت هذا ولا هذا، ولكن في يمينه أكثر إلى أن قال ويترجح التختم في اليمين مطلقاً لأن اليسار آلة الاستنجاء فيهان الخاتم إذا كان في اليمين عن أن تصيبه النجاسة.

**رحلة الخاتم النبوي

عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: اتخذ رسول الله خاتماً من ورق وكان في يده ثم كان بعد في يد أبي بكر ثم كان بعد في يد عمر ثم كان بعد في يد عثمان حتى وقع بعد في بئر أريس [حديقة قرب مسجد قباء] نقشه «محمد رسول الله»

وفي رواية: فلما كان عثمان جلس على بئر أريس فأخرج الخاتم فجعل يعبث به فسقط فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان فنزح البئر فلم نجد

** وقد حمل كتابه -صلى الله عليه وسلم- إلى قيصر الصحابي دحية بن خليفة الكلابي -رضي الله عنه- وكان من كبار الصحابة، شهد أحدا وما بعدها من المشاهد، وهو الذي كان ينزل جبريل في صورته، وبعثه رسول الله إلى قيصر في الهدنة مع قريش، وذلك في سنة ست، فأمن به قيصر وأبت بطارقتة فلم تؤمن

قصة المنبر النبوي

روى البخاري عن سهل -رضي الله عنه-: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُرْسِلَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ لَهَا غُلَامٌ نَجَارٌ، قَالَ لَهَا: «مُرِّي عَبْدَكَ فَلْيَعْمَلْ لَنَا أَعْوَادَ الْمُنْبَرِ»، فَأَمَرَتْ عَبْدَهَا، فَذَهَبَ فَقَطَعَ مِنَ الطَّرْفَاءِ [التي بالغابة]، فَصَنَعَ لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا قَضَاهُ، أُرْسِلَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ قَدْ قَضَاهُ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُرْسِلِي بِهِ إِلَيَّ»، فَجَاءُوا بِهِ، فَاحْتَمَلَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَوَضَعَهُ حَيْثُ تَرَوْنَ"

** هذا الحديث رواه البخاري في «باب من استوهب من أصحابه شيئاً» أي سواء كان عيناً أو منفعة والجواب محذوف تقديره: جاز بغير كراهة إذا كان يعلم طيب خاطرهم.
** وراوي الحديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي الأنصاري -رضي الله عنه-

// كان اسمه حزنا فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلا

// قال الزهري: رأى سهل بن سعد النبي -صلى الله عليه وسلم- وسمع منه وذكر أنه كان له يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة سنة.

// عاش سهل وطال عمره حتى أدرك الحجاج بن يوسف وامتحن معه.. أرسل الحجاج سنة أربع وسبعين إلى سهل بن سعد -رضي الله عنه- وقال له: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان قال: قد فعلته قال: كذبت ثم أمر به فختم في عنقه وختم أيضا في عنق أنس بن مالك رضي الله عنه حتى ورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان فيه وختم في يد جابر بن عبد الله يريد إذلالهم بذلك وأن يجتنبهم الناس ولا يسمعوا منهم

// توفي سهل سنة ثمان وثمانين وهو ابن ست وتسعين سنة، ويقال: إنه آخر من بقي من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة.

** في الحديث مواكبة العصر وفقه الواقع لأن الإسلام كان قد انتشر وكثر الناس واحتاجوا لوضح الصوت ورؤية الخطيب،

وفيه وتجدد الوسيلة لأن الوقوف على الجذع عسير خاصة في جلسة الاستراحة،
وفيه والتماس الأجود والأحسن.. منهج متواجد بقوة في سيرة النبي صلى الله عليه
وسلم لا يغفل عن أقل الأمور فيه فضلا عن أعظمها، والتجويد الدائم للوسائل عنوان
المراحل النبوية المستمرة.

** المرأة في المجتمع النبوي تتعدد مشاركتها ولها دورها الواضح البين في خدمة دينها
ونبيها، تسخر الإمكانيات وتفرغ الأفراد من تبعثها لخدمة رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- والإسلام، لتبين بذلك كونها عنصرا هاما في المجتمع النبوي ولا تقل تضحياتها عن
الرجال إن لم تزد أحيانا كثيرة.

// وانظر إلى «مراعاة المنزلة»، فهو لم يأمر الغلام بنفسه ليقر حقا لها، ويعلي احترامها
لمنزلتها، ويعلم المتعلم بين يديه كيف نصل إلى القلوب بإنزال المنازل، وأن الحقوق لها أبواب
لا ينبغي تجاوزها أو كسرها دون استئذان لأهلها

** أهمية وجود المهن في المجتمعات واستحسان التخصصات في فئات المجتمع منهج
ملحوظ من أول بناء الدولة الإسلامية في عزها وتقدمها وفكرها، ليعيش الجميع بعنصر
الكفاية وقلة العوز والاحتياج الدائم.

** قوله «فاحتمله النبي، فوضعه» هنا تقف الكلمات والعبارات متأملة في فعله
وحمله، ونصبه ووضعه، فهو دليل على المشاركة في الفعل، أم دليل على المشاركة في الأجر،
أم حمل التبعة الدائمة معهم وأنه في أولهم، أم هو تعليم للجميع بتواضعه وخفض جناحه
المعهود، أم الشفقة على أصحابه الذين حملوه، أم اختيارا لمكانه فيدل على تخطيطه واتخاذ
مكانه

إن المنبر زينة المسجد وبهجتها وأول ما يشد الانتباه للدخل، وهو يرسل لغة الصمت
إذا صعد عليه الإمام ليعي الجميع المقول ويفهم القوم المنطوق والمسموع، ويرسل للمصلي

صدق الملقى من خلاله، فليس منبرا في المسجد كبقية منابر الدنيا فلغة التفرد واضحة،
وسمات الصدق عالية.

** وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ رُومِيٌّ، فَقَالَ: أَصْنَعُ لَكَ مِنْبَرًا تَخْطُبُ عَلَيْهِ، فَصَنَعَ لَهُ مِنْبَرَهُ هَذَا
الَّذِي تَرَوْنَ قَالَ: فَلَمَّا قَامَ عَلَيْهِ يَخْطُبُ حَنَّ الْجِدْعُ حَنِينَ النَّاقَةِ إِلَى وَلَدِهَا، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَسَكَنَ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُدْفَنَ، وَيُحْفَرَ لَهُ.

وفي رواية: فصنع له منبرا درجتين ويقعد على الثالث فلما قعد النبي صلى الله عليه
وسلم على ذلك خار الجذع

// وفي رواية: فلما كان يوم الجمعة خطب -صلى الله عليه وسلم- على المنبر قال:
فإن الجذع الذي كان يقوم عليه أن كما يئن الصبي. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:
(إن هذا بكى لما فقد من الذكر)

// وفي رواية: فلما صعد حن الجذع فنزل إليه النبي {صلى الله عليه وسلم} فاحتضنه
وساره بشيء

// وفي رواية: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَلَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ).

فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : (أَجَلٌ إِلَيَّ أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ) فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَجَلٌ) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحَطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا)

** قوله (فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي) فيه وضع اليد على المريض تأنيسا له، وتعرفا لشدة مرضه، ليدعو له العائد على حسب ما يبدو له منه، وربما رقاها بيده ومسح على ألمه فانتفع العليل به إذا كان العائد صالحا تبرك بيده ودعائه كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذلك من حسن الأدب واللفظ بالعليل.

// وجاء عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا عاد مريضا يضع يده على المكان الذي يألم ثم يقول: (بسم الله) وأخرجه بن السني ولفظه فيقول: (كيف أصبحت أو كيف أمسيت)

** البلاء قرين الإيمان الحقيقي، ومرافق لأصحاب التكليف، فأهل المعالي معالي في كل شيء، وعلى قدر المنزلة تكن البلية، وقدما قالوا: «من لمح فجر الأجر، هان عليه شدة التكليف»

** لما كان -صلى الله عليه وسلم- قدوة الناس، ومعلم الأمم، وراشد أصحابه ومن ورائهم، كان لازما أن ينبع قوله وتعاليمه من معين التحمل ونهر الصبر معايشة لا تصورا،

وينزل منزل الإحساس بالآخر بأرضهم لا مدعيا له من سمائهم، لسان دعوته وحاله: «أخي وصاحبي قد مر به ما نزل بك، ورأيت فيما لا تتحمله فيك، فتعلم مني واقتدي بي».

// وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "ما رأيت أحدا الوجل عليه أشد من رسول الله صلى الله عليه وسلم".

** في رواية لهذا الحديث عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أنه دخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو موعوك عليه قطيفة، فوضع يده عليه فوجد حرارتها فوق القطيفة، فقال أبو سعيد: ما أشد حر حُمَّاك يا رسول الله؟! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إننا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر)

قال أبو جعفر: فتأملنا هذه الآثار فوجدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما كان لا خطايا له تحط عنه بما كان يصيبه في بدنه من الوعك جعل له مكان ذلك من الأجر المضاعف.

** في رواية عن أبي سعيد: (إننا معشر الأنبياء، يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر، إن كان النبي من الأنبياء لبيتلي بالقمل حتى يقتله، وإن كان النبي من الأنبياء بيتلي بالفقر حتى يأخذ العباءة فيجوبها [يلبسها] وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء)

** في رواية عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- طرده وجع، فجعل يتقلب على فراشه. فقالت له عائشة: يا نبي الله لو أن بعضنا فعل هذا لوجدت عليه؟! فقال: (إن المؤمنين يشدد عليهم البلاء، وأنه لا يصيب مؤمنا نكبة ولا وجع إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه بها خطيئة)

** وفي رواية عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ما من مسلم بيتلي ببلاء في جسده إلا كتب الله له في مرضه كل عمل صالح كان يعمل في صحته)

قال الطحاوي في مشكل الآثار: يكتب له الأجر بحسن نيته مع ما قد نزل به وصبره عليه وتسليمه فيه الأمر إلى من ابتلاه به فيشكر الله ذلك له ويأجره عليه.

** عن سعد -رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أشد الناس بلاء، قال: (الأنبياء، الأمثل، فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا، ابتلي على قدر ذلك، وإن كان في دينه رقة هون عليه، فما زال كذلك حتى يمشي على الأرض ما له ذنب).

** عن أنس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله عز وجل إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط فله السخط).

** عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة).

** قوله (حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا) قال الطيبي: شبه حالة المريض وإصابة المرض جسده ثم محو السيئات عنه سريعا بحالة الشجر وهبوب الرياح الخريفية وتناثر الأوراق منها وتجردها عنها فهو تشبيه تمثيل لانتزاع الأمور المتهمة في المشبه من المشبه به فوجه التشبيه الإزالة الكلية على سبيل السرعة لا الكمال والنقصان، لأن إزالة الذنوب عن الإنسان سبب كماله وإزالة الأوراق عن الشجر سبب نقصانها

** في الحديث دعوة النبي معه في كل أحواله، وتبليغه لا يعرف الراحة ولا الصحة، فترس الشرع دائر لا يتوقف، وتبليغ الهدى دائم لا يتعثر، والتعليم لا هدنة معه، درس للدعاة والعلماء وأصحاب التبليغ.

وفاة النبي

صلى الله عليه وسلم

روى الإمامان أحمد ومسلم عن أنس -رضي الله عنه- قال: "لم يخرج إلينا نبي الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً [أي ثلاثة أيام، وكان ابتداءها من حين خرج عليه الصلاة والسلام فصلّى بهم قاعدًا]، وأقيمت الصلاة، فذهب أبو بكر يتقدّم، فقال [أي أخذ] النبي صلى الله عليه وسلم بالحجاب فرفعه [الذي على الحجرة]، فلما وضح لنا [ظهر] وجه نبي الله صلى الله عليه وسلم، ما نظرنا منظرًا قطُّ كان أعجب إلينا من وجه نبي الله صلى الله عليه وسلم حين وضح لنا، فأومأ بيده صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر: أن يتقدّم، وأرعى نبي الله صلى الله عليه وسلم الحجاب، فلم نقدّر عليه حتى مات"

في الصحيحين عن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على قتلى أحد بعد ثمان سنين صلاته على الميت كالمودع للأحياء والأموات ثم انصرف إلى المنبر فقال: (إني فرطكم، وإني شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني والله لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إني أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع) فلما وقف بين أظهرهم قال: (السلام عليكم يا أهل البقيع، ليهن لكم ما أصبحتم فيه، لو تعلمون ما أنجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها)

** بداية المرض.. في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ، وكان يوم الاثنين، شهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جنازة في البقيع، فلما رجع وهو في الطريق

أخذه صُداًع في رأسه، وانتقدت الحرارة، حتى إنهم يجدون سورتها فوق العصابة التي يعصب بها رأسه.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: رجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من البقيع فوجدني أجد صداعاً في رأسي وأقول: وارأساه، فقال -صلى الله عليه وسلم-: (بل أنا والله يا عائشة وارأساه)

وقد صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بالناس وهو مريض أحد عشر يوماً، وجميع أيام المرض كانت ثلاثة عشر أو أربعة عشر يوماً.

**** الأسبوع الأخير..** ثقل برسول الله -صلى الله عليه وسلم- المرض، فجعل يسأل أزواجه: يقول: (أين أنا غداً، أين أنا غداً؟)؛ يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

**** قبل الوفاة بخمسة أيام..** يوم الأربعاء، انتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به الوجع، وأغمي عليه، فقال -صلى الله عليه وسلم-: (صَبُّوا عَلَيَّ سَبْعَ قَرَبٍ مِنْ سَبْعِ آبَارِ شَتَى، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَى النَّاسِ فَأَعْهَدَ إِلَيْهِمْ)، قالت: فأقعدناه في مَخْضَبِ لِحْفَصَةِ، فصببنا عليه الماء صبباً

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد -وهو معصوب الرأس- حتى جلس على المنبر وخطب الناس -والناس مجتمعون حوله- فقال: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ).. يُحَدِّثُ مَا صَنَعُوا

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعْبَدُ)

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقاتته الأولى في الشحاء وغيرها، ثم أوصى بالأنصار قائلاً: (أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشى وعيبي، وقد قضاوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم)

[كرشي وعيبي: أي جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم وأعتمدتهم في أموري، قال الخطابي: ضرب مثلاً بالكرش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون به بقاؤه، والعيبة وعاء معروف أكبر من المخلاة يحفظ الإنسان به ثيابه]

وفي رواية أنه قال: (إن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالمح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم)

وعن أبي سعيد الخدري قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختر ذلك العبد ما عند الله)، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يُخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن عبد خير، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن من آمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر)

**** قبل الوفاة بأربعة أيام..** يوم الخميس، قال صلى الله عليه وسلم-وقد اشتد به الوجع-: (هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده)، قال عمر: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- غلبه الوجع، وعندكم القرآن، فحسبنا كتاب الله، واختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قريوا يكتب لكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قوموا عني)

وأوصى ذلك اليوم بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، قال الراوي: نسيث الثالثة

ولعله الوصيَّة بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو إنفاذ جيش أسامة، أو هي الصلاة وما ملكت أيمانكم.

وقوله: (وأجيزوا الوفد بنحو ما كنتُ أُجيزهم) قال العلماء هذا أمر منه صلى الله عليه وسلم بإجازة لوعود وضيافتهم وإكرامهم تطيباً لنفوسهم وترغيباً لغيرهم من المؤلفة قلوبهم ونحوهم وإعانة على سفرهم.

وفي رواية ولما نزل برسول الله - صلى الله عليه وسلم - طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا أغتم كشفها عن وجهه وقال: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر مما صنعوا، وفي رواية يحرم ذلك على أمته، قالت عائشة -رضي الله عنها-: ولولا خشية أن يتخذ قبره مسجداً لأبرز، وأوصى بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنتُ أُجيزهم، وسكت عن الثالثة. وقال -صلى الله عليه وسلم-: (مروا أبا بكر فليصل بالنائم وجعل يقول وهو يجود بنفسه: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم)

والنبي -صلى الله عليه وسلم- مع ما كان به من شدة المرض كان يُصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم [يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام]؛ فعن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً، ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله.

**** ثم ثقل المرض،** بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد، وتروي لنا أمنا عائشة ذلك؛ حيث قالت: ثقل النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (أصلى الناس؟)، قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: (ضعوا لي ماء في المخضب)، قالت: ففعلنا، فاغتسل فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال -صلى الله عليه وسلم-: (أصلى الناس؟)، قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: (ضعوا لي ماء في المخضب) قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: (أصلى الناس؟)، قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: (ضعوا

لي ماء في المِخضَب)، فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: (أصلي الناس؟)، فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبيَّ لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أبي بكر بأن يُصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرُك أن تُصلي بالناس، فقال أبو بكر وكان رجلاً رقيقاً: "يا عمر، صل بالناس"، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد من نفسه خِفة فخرج بين رجلين، أحدهما العباس لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخَّر، فأوماً إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بألا يتأخَّر قال: (أجلِساني إلى جنبه، فأجلساه إلى جنبِ أبي بكر، قال فجعل أبو بكر يُصلي وهو يأتُمُّ بصلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- والناس بصلاة أبي بكر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قاعد

وجاء في بعض ألفاظ الرواية أن أُمنا عائشة - رضي الله عنها - راجعته فقالت: إن أبا بكر رجل أسيف، إن يَقمُ مقامك يبكي، فلا يَقدِرُ على القراءة، فقال: (مُروا أبا بكرٍ فليصل)، فقلتُ مثله، فقال في الثالثة أو الرابعة: (إنكن صواحب يوسف، مُروا أبا بكرٍ فليصل) فصلي

**** قبل يوم من الوفاة..** يوم الأحد، أعتق النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - غلمانَه، وتصدَّق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل استعارتُ عائشة الزيت للمصباح من جارتها، توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودرَّعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير.

**** آخر يوم..** يروي لنا ذلك أنس بن مالك -رضي الله عنه- فيقول: إن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يُصلي لهم لم يفجأهم إلا رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- قد كشف سِتْرَ حِجْرَةِ عَائِشَةَ، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسّم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف، وظنَّ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأشار إليهم بيده رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجر، وأرخى السِتْر) ثم لم يأت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- فاطمة ابنته في شكواه الذي قبض فيه، فسارها بشيء فبكت ثم دعاها فسارها فضحكت، قالت: فسألته عن ذلك، فقالت: سارني النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبرني أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني، فأخبرني أني أول أهل بيته أتبعه فضحكت، وبشر النبي -صلى الله عليه وسلم- فاطمة قال: (يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة)

ولما ثقل النبي -صلى الله عليه وسلم- جعل يتغشاه، فقالت فاطمة -رضي الله عنها- : واكرب أبتاه، فقال لها: (ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم)، ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكَّرن.

وظفِق الوجع يشتدُّ ويَزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخير حتى كان يقول: (يا عائشة، إني أجد ألم الطعام الذي أكلته بخير، فهذا أوان انقطاع أجهري من ذلك السم)

** الاحتضار .. وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقه وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن بن أبي بكر ويده السواك، وأنا مُسندة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرأيتَه ينظر إليهِ، وعرفت أنه يحب السواك،

فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتدَّ عليه، وقلت: أليته لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليئته فأمره وبين يديه رِكوة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، يقول: (لا إله إلا الله، إن للموت سكرات)، ثم نَصَبَ يده، فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى حتى قُبِضَ ومالت)

وفي رواية: وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفثاه، فأصغت إليه عائشة -رضي الله عنها- وهو يقول: (مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)

وفي رواية: (اللهم اغفر لي، وارحمي، وألحقني بالرفيق الأعلى)، كرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، ومالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى، فإننا لله وإنا إليه راجعون. وتوفي -صلى الله عليه وسلم- قد تمَّ له ثلاث وستون سنة

وقالت ابنته فاطمة - رضي الله عنها -: يا أبتاه، أجا رباً دعاه، يا أبتاه، من جنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل نعاها، فلما دُفِن، قالت: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التراب

اللهم اجزه عنَّا خير ما جزيت نبياً عن أمته، ورسولاً عن قومه، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته.

لماذا يكرهونه

الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبي الإسلام

«لماذا يكرهونه».. كتاب ماتع للدكتور "باسم خفاجي"، اخترت منه فقرات ناصعة تدل على المقصود من هذا السفر القيم، والذي كشف بجلاء عن الخلفية الحاقدة على الإسلام ونبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من قِبل الغرب على مر التاريخ وصولاً إلى واقعنا المعاصر الذي ترسبت في عقول الجمهرة الغربية الحالية رواسب الحقد والتزيف على المستوى الديني والسياسي والإعلامي والفكري العلماني.

** قال تعالى:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان: ٣١]

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١١٢]

النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الفكر الغربي

** {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٤٦] فلا شك أنهم يعرفون النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهم يهاجمونه.

** إن أدلة الكراهية للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المواقف الغربية كثيرة. فهذا الكاتب الأمريكي "جورج بوش" -جد الرئيس الأمريكي- يقول في كتابه المعنون «حياة محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين» وهو -كما يقول ناشره- كتاب يقرب من أن يكون وثيقة، ويمثل واحداً من أهم مصادر الكراهية الأمريكية للإسلام

التي يغذيها تيار أصولي قديم النشأة، يدعي أن العرب مجرد أعراق منحطة ومتوحشة يستحقون الإبادة كما حدث للهنود الحمر، يقول المؤلف في الكتاب:

"ما لم يتم تدمير إمبراطورية السارزن (المسلمين)، فلن يتمجد الرب بعودة اليهود إلى وطن آبائهم وأجدادهم"

ويرى هذا المؤلف الإسلام مجرد بلاء جاء به «الدعي» محمد، ساعد الرب على انتشاره، عقابا للكنيسة التي مزقتها خلافات الباباوات بمرطقاتهم التي بدأت في القرن الرابع الميلادي.

** إن من الملفت للنظر أن العداة المسيحي للإسلام وللنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خارج أوروبا الغربية لم يتحول إلى كراهية تاريخية يتم الاحتفاء بها وتأكيدا في المناسبات الدينية، وعلى حوائط الكنائس والأديرة كما حدث في أوروبا الغربية.

** بناء على الدراسة التي قامت بها الباحثة "مارلين نصر" عن صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٩٥م، نجد أن المناهج التربوية الفرنسية تقدم العرب والمسلمين باعتبارهم المتمردين والنهابين والمخربين والسفاحين، ولا تأتي على ذكر أية صفة من صفاتهم الإيجابية المعروفة.

** عند استقراء ومتابعة التاريخ يؤكد وجود تراث يقارب ألف عام من العداة بين الغرب -ونعني به هنا الكنيسة الأوروبية الغربية وصناع القرار وكذلك التيارات الفكرية غير الدينية- وبين الإسلام والمسلمين، وضد نبي الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. لم يحدث في تاريخ البشرية، وفي الغرب تحديدا، أن استمر العداة تجاه أي شخص بمثل هذه الحماسة والاستمرار المتجدد، والصور المختلفة الملفتة للنظر.

** وما أن دعوة المصطفى -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- باقية ما بقي الليل والنهار، ومتجددة مع كل إشراقة شمس، فليس من الغريب أن يكون عدو هذا النبي الكريم ممتد أيضا ومستمر.

ومن يتابع تاريخ الإسلام، وعلاقات الأمة الإسلامية الدولية يلحظ أن عدااء الكنيسة الأوروبية للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - استمر منذ بداية الدعوة وحتى أيامنا هذه. الغريب أن هذا العدااء متجدد ويزداد كراهية وعنصرية حتى مع اهتمام المسلمين بالحوار والتعايش مع الآخرين.

** على المستوى الديني لم يبلغ الفكر المتزمت في أي دين من الأديان إطلاقاً درجة التنظيم والاضطهاد التي عرفتتها محاكم التفتيش الأوروبية الكنسية في مواجهة الإسلام. ** كيف يمكن تفسير أن تزين بعض كنائس أوروبا بلوحات ورسومات لنبينا محمد وهو - كما يدعون - يعذب في نار جهنم، وأن تبقى هذه اللوحات في أماكنها في أكثر من كنيسة خاضعة لسلطة الفاتيكان، ولم تمسها يد، ولم يحاول تغيير ذلك أحد من دعاة التسامح والحوار طوال عشرات السنين وحتى الآن.

** كيف يفسر أن يوضع في محراب كنيسة أوروبية في عاصمة الاتحاد الأوروبي تمثال مهين لنبي الأمة وهو مطروح أرضاً تدوسه أقدام ملائكة تعلن انتصار المسيحية على الإسلام!!

الصورة الذهنية عن الإسلام ونبيه

** إن الصورة المشوهة عن الإسلام في الغرب لم تكن بسبب جهل أوروبا به، ولكنها في الواقع نتيجة معرفة حقيقية بالإسلام غلفت بالحق والخوف من تنامي هذا الدين على أوروبا نفسها وعلى العالم أجمع.

** ساهم المفكرون الأوروبيون والدينيون وغيرهم أيضاً في تحويل الإسلام إلى دين كرهه بغيض لدى العامة لكي تحتفظ أوروبا بابتعادها عن الوقوع تحت سيطرة **القيمة الأخلاقية والفكرية الآسرة** للدين الإسلامي. كان لابد لذلك من تكوين صورة نمطية ذهنية بشعة عن الإسلام من ناحية، وعن نبي الإسلام من ناحية أخرى لتحقيق ذلك.

** لقد حاول هؤلاء أن يصدوا عموم الناس عن أي معنى طيب للإسلام أو عن نبي الإسلام. أحيانا كانت تلك المحاولات تبدو بعيدة كل البعد عن الأصول العلمية أو الأخلاقية كذلك.

انظر إلى ما ادعاه المستشرق الأمريكي "ماكدونالد" تحت مادة «الله» في دائرة المعارف الإسلامية منكرًا حتى احتمالية أن يكون من صفات الله في الإسلام صفة «السلام» قائلًا: ومن أسمائه أيضا السلام.. وهذه الصفة لم ترد إلا في الآية ٢٣ من سورة الحشر، ومعناها شديد الغموض!!

ونكاد نقطع بأنها لا تعني «السلم». ويرى المفسرون أن معناها «السلامة» أي البراءة من النقائص والعيوب، وهو تفسير محتمل، وقد تكون هذه الصفة كلمة بقيت في ذاكرة محمد من العبارات التي تتلى في صلوات النصارى.

** ومن أسوأ ما كتب عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من مشاهير الفكر الأوروبي "دانتي" أعظم شعراء إيطاليا قاطبة من وجهة نظر الغرب، ومن مشاهير الأدب العالمي، والذي خلد اسمه بملحمته الشعرية «الكوميديا الإلهية» التي وصف فيها طبقات الجحيم والمطهر والفردوس في رحلة خيالية.

وقد وضع نبي الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومعه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في الخندق التاسع من الحلقة الثامنة من الكوميديا الإلهية كما أسماها. وهذا الجزء من الجحيم -كما يدعي دانتي- قد تم تخصيصه لمثيري الصدمات والانشقاقات الدينية والسياسية ومن يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار.

ويرسم دانتي صورة لـ «موميتو» أي محمد تجسد تركيبا سلاليا متصلبا من الشرور، مع من يسميهم «ناشري الفضيحة والفتنة» وعقاب محمد ومصيره الأبدي عقابا مثيرا للاشمئزاز من نمط فريد، فهو يبدأ بقطعه إلى نصفين من ذقنه إلى دبره، مثل برميل تمزق أضلاعه -كما يقول دانتي- ولا يوفر شعر دانتي على القارئ عند هذه النقطة أيا من تفاصيل يوم الحشر التي تؤدي إليها عقوبة فظيعة كهذه، فأمعاء محمد وبرازه توصفان بدقة لا تنتهي.

يشرح محمد مسببات عقابه لدانتي، مشيراً كذلك إلى "علي" الذي يقدمه في صف الآثمين الذين يشقهم الشيطان الحارس إلى نصفين، كما يطلب محمد من دانتي أن يحذر رجلاً اسمه «دوليشينو» - وهو رجل دين من الشيس مرتد دعا أصحابه إلى المشاركة الجماعية في النساء والممتلكات، واتهم بأنه كانت له خلية - مما ينتظره من عذاب. دانتي رأي تطابقاً بين الشهوانية المقرفة لدى محمد ودوليشينو، وبين ادعائهما مكانة دينية بارزة كذلك.

ترجمت الكوميديا الإلهية إلى كثير من لغات العالم مرات عديدة في كل لغة.

الأصول الفكرية لموقف الغرب من النبي

** تتصادم القناعات الغربية على المستوى الفكري بشدة مع ما جاء به النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -. كما أن تراكم الحقد والخوف الغربي من الإسلام ومن نبي الإسلام قد ساهم في نشأة العداء بين الطرفين، وليس من المتوقع أن يقل أو ينتهي هذا العداء في القريب.

** إن المشكلة الرئيسية في علاقة فكرية بالعالم الإسلامي، وعداء الغرب للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، هو **مركزية توحيد الله تعالى** وعبادته لدى المسلمين، والتي تتجسد في دعوة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وفي دين الإسلام وفي واقع الأمة الإسلامية بصرف النظر عن درجة تدين والتزام أفراد هذه الأمة.

ينطلق الغرب فكرياً - وبكل فئات مجتمعاته ومفكريه - من فكرة **مركزية الإنسان في الكون**، وأن الفرد هو مركز الاهتمام الرئيس، وأن تطلعات الفرد وحقوقه وحياته تقدم على أي أمر آخر، وحتى أمور العبادة وعلاقة الفرد بالإله.

فالغرب يرى أن محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد قدم مفهوماً يمكن أن يهدم الفكر الغربي من أساسه.

** تمحور الفكر الغربي حول شخصية المسيح عليه السلام، وتحولت شخصية المسيح بعد تحريف الدين المسيحي إلى تجسيد للفكر الغربي حول مركزية الفرد في الكون.. فقد

تحول الإله في نظر المتدينين إلى شخص.. إله في صورة فرد.. دفع دمه ثمنا مقدما لجميع خطاياهم القادمة، وعندما سيطر الفكر النفعي على الشخصية الغربية، أصبح التعلق بشخص المسيح يمثل قمة النفعية لمن اختاروا التدين، فهو قد قام بدفع فاتورة خطاياهم حتى قبل أن يقعوا فيها، وأبقى لهم الحياة لكي يمارسوا فيها ما شاءوا من أفعال طالما أن محبة المسيح - كفرد وكإله- تسيطر على مشاعرهم.

أما من تركوا الدين المسيحي بأكمله، وأصبحوا لا دينين أو ملحدين، فقد كان المسيح -بعد تحريف الدين- أيضا مركزيا في مواقفهم الفكرية.. فهو فرد وبالتالي لا يمكن أن يختلف عن غيره من البشر، وبالتالي فليس هناك إله بزعمهم، كما أن المسيح بصورته التي قامت الكنيسة الغربية بتصويرها رحيم منعزل عن حياة الناس.. يقبل بكل معايير الحياة الإنسانية، ولا يدعو إلا إلى الحرية والمساواة.. وهي أهم قيم العلمانية ولا تصادم من تركوا الدين، وبالتالي فلا حاجة إلى مصادمة المسيح.

أما العلاقة مع محمد فهي علاقة تصادمية مع كل من التيار الديني والعلماني في الغرب على المستوى الفكري. فمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حرص على أن يكون فردا.. إنسان بكل معاني الإنسانية، ورفض أن يكون إله في صورة إنسان، وبالتالي فهو يناقض فكر المتدينين من الغرب للإله الذي عرفوه، وبالتالي تكونت الكراهية والضيق من كل ما يمثله محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.. فهو ليس على شاكلة المسيح في نظرهم.. هو يناقض أيضا مشاعر ورغبات غير المتدينين، لأنه يطلب من البشر -كما أمره خالقه- بالكثير من العبادات والأعمال والالتزامات، ويقدم حرية المجتمع على حرية الفرد، ويضحي بالمساواة من أجل العدالة ومن أجل صلاح المجتمع، كل ذلك ساهم في تكوين صورة سلبية وقاسية عن نبي الإسلام.

** كما عقدت المقارنة بين التوسع الإسلامي، ودخول المسلمين في معارك من أجل نشر الدين أو الدفاع عن المسلمين، مع الروح غير القتالية التي تصورها المسيحية الرومانية المحرفة عن حياة المسيح عليه السلام.

** إن المتدينين في الغرب - كما في الشرق أيضا- يعشقون فكرة المعجزة، لأنها خلاص من مواجهة واقع يطحن أحلامهم.. لذلك انتشر في التدين الغربي قصص المعجزات والحوارق وكرامات القديسين، وأصبح ذلك مكونا رئيسيا من مكونات التدين الكاثوليكي الغربي.

أما محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقد جسد إمكانية انتصار الإنسان دون الحاجة إلى المعجزات.. لقد كانت حياة الرسول - في نظرهم- خالية من المعجزات، والحياة الغربية قاسية، والتدين فيها يسمح للفرد أن يحلم بالمعجزة للفرار من الواقع، ونبى الإسلام لا يعد بالمعجزات، وإنما بحياة مليئة بالجهد والمعاناة من أجل آخرة يمكن فيها الاستمتاع بالجنة.

** لقد نجح من حرفوا دين المسيح أن يقنعوا أنصار المسيح في الفكر الغربي، أن لهم أن يجمعوا بين كل متع الدنيا -فقد دفع ثمن ذلك المسيح- وأن يجمعوا معها أيضا النجاة في الآخرة لأتهم أحبوا المسيح. وهكذا يتفرغ المتدين للحياة دون الحاجة الحقيقية للعمل فإن محبة المسيح كافية للجنة.

أما محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإن دينه ودعوته تطلب من الإنسان الكثير، ولا تعد بالمقابل إلا بأمل في رحمة الله تعالى. كيف إذن لمن يعتنق الفكر النفعي أن يحب محمد؟

** **تجذر فكرة النبوة الكاذبة..** قامت الكنيسة الغربية تحديدا منذ بداية الإسلام بالظعن في صدق نبوة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يزال هذا الموقف هو السمت المشترك لمعظم المفكرين المتدينين الغربيين، رغم أن بعضهم قد تنازل ووصف النبي ببعض الصفات الإيجابية كقائد سياسي، أو مصلح إنساني، أو إنسان طموح، ولكن ليس كنبى يوحى إليه.

وفي هجوم "مارتن لوثر" -مؤسس المذهب البروتستانتي- على الكنيسة الكاثوليكية قرنه بالهجوم على الإسلام فيقول المفكر الغربي "إن. دانيال": "إن لوثر ذاته كان واحدا من أوائل الذين صاغوا نموذجا جديدا كليا للموقف من الإسلام، مستخدما إياه -كنموذج سلمي- في جداله العنيف مع الكاثوليكية حيث يقول: البابا والإسلام يشكلان -من حيث

الجوهر- العدوين اللدودين للمسيح وللكنيسة المقدسة، ولكن إذا كان الإسلام يمثل جسد المسيح الدجال فإن البابا هو رأسه".

** وهنا تتدخل رؤية للنفس المسلمة نابعة من شروط تطور فكرة النبوة الكاذبة. هذه الرؤية مفادها أن سلوك نبي الإسلام هو نقيض سلوك القديس القائم على قمع الغرائز، وأن الإسلام شهواني ومادي في روحه وفي مفهومه للجنة، وأن شرائعه ومؤسساته لم تفعل سوى تطوير هذه الجرثومة القاتلة التي تعيبه من أساسه. فإذا كان مفهوم الجنة يبين أننا أمام دين خال من الروحية، محصور في صورة اللذات المستقبلية وتفوح منه رائحة الوثنية، فإن حياة النبي بدورها تبرهن على ضعف قيمتها الأخلاقية.. [أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحدائثة]

** تسبب الموقف الديني والفكري الغربي الذي يدعي كذب نبوة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في تكون فكرة مسيحية استقرت في أذهان الكثير من المفكرين الدينين في الغرب. هذه الفكرة تتصور أن هذه النبوة الكاذبة في ظنهم قد أوقفت تطور الإنسانية باتجاه المسيحية. يقول أحدهم: "لقد أمكن لمحمد أن يكون إمبراطورية سياسية ودينية على حساب موسى والمسيح".

** إن من المشكلات الحقيقية التي تعاني منها الكنيسة الأوروبية منذ ظهور الإسلام هو **عدم قدرة هذه الكنيسة على إيقاف نمو الإسلام**. فالإسلام ينمو في كل الظروف، ومع كل الضغوط، وتحت كل الظروف الاجتماعية المختلفة، وفي كل العصور، وهو بالتأكيد ينمو على حساب أنصار تلك الكنيسة التي تهتم اهتماما كبيرا بالتنصير، ويستهدف نفس المجتمعات التي تحاول الكنيسة السيطرة عليها، وتحويلها إلى دينها.

** **إهدار قيمة كل مقدس..** تطور مشروع العلمانية من فصل الدين عن الدولة إلى إقصاء الدين عن الحياة، إلى الهجوم على الدين للقضاء على ثبات القيم. واستتبع ذلك رغبة القائمين على هذا المشروع العلماني في القضاء على كل القيم الثابتة في المجتمعات، وتحويل فكرة القيم إلى موضوع نسبي متغير تبعا للزمان والمكان وأمزجة الشعوب.

يقتضي تحقيق هذه الفكرة القضاء على ولع الشعوب وتقديرها للمقدس بصرف النظر عن قيمة ذلك المقدس في حياتها أو مدى اعتزازها به. من أجل ذلك ظهرت حملة منظمة في الغرب طوال الأعوام الماضية للنيل من كل الأنبياء والصالحين وليس نبي الإسلام وحده.

**** فشل تحجيم التأثير السياسي والدولي للإسلام..** إن التيارات العلمانية واللاادينية التي تحكم الكثير من دول أوروبا، ولها تأثير قوي على السياسة الأمريكية أيضا لا تكثر كثيرا لمسألة انتشار الإسلام عدديا أو جغرافيا أو عقديا في مواجهة المسيحية أو أي ديانة أخرى.

كثير من هؤلاء القادة السياسيين والإعلاميين والفكرين ممن ينتمون إلى التيار اللاديني أو العلماني لا يهتمون لموضوع الدين من ناحية علاقة الإنسان بخالقه، أو بمعبد أو كنيسته أو مسجده. ما يشغلهم بالتأكيد هو آثار التدين على مسيرة العالم الاقتصادية والليبرالية والحضارية بمفهومهم هم لهذه الحضارة السائدة.

وفي هذا السياق يبرز الإسلام كمصدر إزعاج رئيس، لأنه قوة محركة ومؤثرة، وتدفع بمعتقديه إلى رفض الهيمنة ومقاومة مشروعات الاستعمار الفكري والاقتصادي بنفس حدة وصلابة مقاومة الاستعمار المسلح.

وهنا يمكن تفسير اتحاد التيارات الليبرالية العلمانية الغربية مع التيارات الدينية المتطرفة في بعض الكنائس الأوروبية من أجل تقليص تأثير الإسلام على العالم المعاصر. إنه تحالف لم يحدث في التاريخ من قبل بهذه الدرجة من الشمولية والتعقيد والانتشار الجغرافي أيضا.

**** الإرهاب وتحجيم عواطف المسلمين..** تتهم الأمة العربية والإسلامية من قبل المحبين والخصوم على حد سواء بأنها أمة عاطفية.

المشكلة أن التفسير المنطقي الغربي قاصر ويتجاهل حقائق واقعية كثيرة أهمها أن الغرب «كائن مريض» ويعاني بشدة من فقدان العاطفة.. العقل النفعي في الغرب أصبح يتحكم في أخلاق البشر

وفي المقابل فإن هيب العاطفة لا يزال مشتتلا في الشرق، وتظهر معالم قوة هذه العاطفة الجياشة في مثل هذه المناسبات المرتبطة بالدفاع عن أعلى من نحب -بعد الله تعالى- وهو نبي الأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إننا نشهد اليوم مشروعا تدريبيا مكثفا يتعاون عليه العديد من وسائل الإعلام الأوروبية لتعويد الأمة على تهدئة مشاعر الحب.. إنهم يريدوننا أن نبغض الحب. ليتهم في الغرب يعرفون ماذا يعني هذا الحب.. وكم هو جميل أن تكون محبا.. وأن تحيا بالعاطفة وليس بالمصلحة أو المنفعة.

الغرب يريد أن يطوعنا أن نقبل أن يهان أعلى من نحب، وأن نمتنع عن إظهار العاطفة.. وبالتالي ستمتنع أيضا تلقائيا - في ظنهم- عن بغض أفعالهم.

****مرآة داكنة لواقع الغرب..** يرى البعض في الغرب في شخصية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نموذجا متكاملًا لنوع من الكمال الإنساني الذي لا يمكن بالغرب بأفكاره ونظرياته وممارساته أن يصل لها. وعند هذا الفريق من الغربيين يصبح القضاء على هذا النموذج هما حقيقيا بذاته

قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء: ٨٩]

فكأن حياة النبي محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تمثل ذلك الضمير الذي يوخز الغرب في جنباته، وكأنه مرآة داكنة توضح لهم بالدليل الواقعي مدى التردّي الذي وصل إليه حال الشخصية الغربية نتيجة لابتعادها عن النموذج الحمدي.

****المركزية التاريخية للإسلام..** يرى العديد من المفكرين الغربيين أن أوروبا عرفت نفسها ككيان موحد فقط عندما ظهر الإسلام، وأن الكنيسة الغربية قدمت الإسلام كخطر يجب أن تزول معه كل الخلافات بين الفرق والمذاهب الدينية المتناحرة في أوروبا.. بل إن بعض المفكرين الغربيين يذهب إلى أن الإسلام يمثل مركزية تاريخية تتحدد من حولها ومن خلالها علاقات العالم ومستقبله أيضا. كما أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يمثل مركزا هاما ونموذجا يحتذى لكل من يتبع الإسلام ويتأثر به.

فألبرت حوراني مثلا يرى أن "كل الشعوب المعروفة قد استيقظت أو دخلت في التاريخ عبر اتصال ما مع الإسلام، فالهند قد تزعزعت بفتح قتيبة بن مسلم، وفيما بعد مع محمود الغزنوي، أما بالنسبة للعالم الإفريقي المجهول والمعزول فإن دخوله النسبي المتردد في التاريخ قد تم أيضا بواسطة الإسلام. وماذا نقول عن الروس وبلغار الفولجا والشعوب التركمانية؟ كم من الشعوب البربرية قد تعلمت الحضارة بعبورها الإسلام، دون شك على حساب تماسكه كقوة سياسية، جاعلة أيضا من الإسلام - الحضارة - عملها المشترك؟ إنه الإسلام الذي امتص كسم قاتل سنة ١٢٥٨م الصدمة المغولية، وهو الذي صد في مرحلة ثانية الهجمة التيمورلنكية، وهي هدامة مثل الأولى أو أكثر".

**** مشروع مواز للغرب ..** إن إحدى مشكلات عداء الغرب التاريخي للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هو أنه جاء بنظام سياسي وفكري متكامل ينازع الغرب في المسلمات الأساسية، وكذلك في طرق التنظيم والإدارة وسياسة المجتمعات، وأخيرا في نمط العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع، وبين المجتمعات المختلفة. إنه ببساطة نظام متكامل مواز للنظام الغربي، ولا يلتقي معه، وإنما يقدم بديلا قويا وخطيرا له.

****** يرى المفكرون الغربيون أن رسالة محمد، وأفكار محمد، ودعوة محمد، تقدم الرصيد الفكري والنفسي والعقدي لجهد المسلم في الانتصار على نفسه وعدم التسليم لشهوات الحياة ومتع الدنيا التي يتفنن الغرب في محاولة تقديمها للأمة. كما أن المقاومة تمتد لتمنع الكثير من محاولات الهيمنة الفكرية والثقافية على الحياة الإسلامية والعربية من قبل الغرب.

إجلال الله عز وجل

عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال - صلى الله عليه وسلم - : (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ) [رواه أبو داود]

إجلال الله تعالى

(إن من إجلال الله) أي تجيله وتعظيمه.. فالله تبارك وتعالى الحقيق وحده دون سواه، بآن يُعْبَدَ وَيُوحَدَ وَلَا يُجْحَدَ، وَأَنْ يُطَاعَ وَيُشْكَرَ وَلَا يُكْفَرَ، وَأَنْ يُدْعَى وَيُرْجَى وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُخْلَصَ لَهُ الْعَمَلُ وَتُسَلَّمَ لَهُ النُّفُوسُ، وَأَنْ تُدْعَنَ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَعْنُوَ لَهُ الْوُجُوهُ

قال تعالى: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٧٤]

ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ، مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ خَلْقٍ إِلَّا وَهُوَ شَاهِدٌ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، هُوَ الْحَيُّ الْغَنِيُّ الْقَوِيُّ، الَّذِي تَنْصَاغُرُ أَمَامَ قُوَّتِهِ كُلُّ قُوَّةٍ، وَيَتَضَاعَلُ عِنْدَ ذِكْرِ عَظَمَتِهِ كُلُّ عَظِيمٍ، الْمَلَائِكَةُ يَخَافُونَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالْمَاءَ وَالشَّرَى عَلَى أَصْبُعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أَصْبُعٍ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللَّهُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ تَصَدِيقًا لَهُ. ثُمَّ قَرَأَ:

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ

بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧] متفق عليه

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ) [أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي كِتَابِ الْعَرْشِ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ].

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبِّكُمْ، وَابْدُلُوا الْجَهْدَ فِي مَعْرِفَتِهِ وَحُبِّهِ وَالذَّلَّ لَهُ وَالْخُضُوعَ لِكِبْرِيَانِهِ، اتَّقُوا حَقَّ التَّقْوَى، فَاطِيعُوا بِلَا عِصْيَانٍ، وَادْكُرُوا بِلَا نِسْيَانٍ، وَاشْكُرُوا بِلَا كُفْرَانٍ، إِحْفَظُوا الرِّئَاسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَذَكَّرُوا الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَعَظَّمُوا الشَّرْعَ وَالشَّعَائِرَ وَالْحُرْمَاتِ {ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ} [الحج: ٣٠] {ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]

ومن سئل بالله تعالى أو بوجه الله عز وجل فليعط وليجب، لما رواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من استعاذكم بالله فأعيدوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن منح إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) [صححه الألباني في صحيح الجامع]. وفي رواية (من سألكم بوجه الله).

قال في عون المعبود: ومن سألكم بوجه الله أي شيء من أمور الدنيا والآخرة أو العلوم، فأعطوه إجلالاً لما سألكم به.

وروى الطبراني من حديث أبي موسى -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائلاً ما لم يسأل هجراً) [حسنه العراقي ثم الألباني في صحيح الجامع] أي ما لم يسأل فحشا.

والمراد من قوله -صلى الله عليه وسلم-: "ملعون من سأل بوجه الله" أي من سأل المخلوقين، أو سأل أمراً من أمور الدنيا، كما بينه الحافظ العراقي، ونقله عنه المناوي في "فيض القدير" والحاصل أنه يجب على الإنسان الاحتراز من سؤال المخلوقين بوجه الله، وأن على من سئل بالله أو بوجهه الكريم أن يجيب ويعطي إجلالاً لله تعالى.

إكرام ذي الشيبة المسلم

(إكرام ذي الشيبة المسلم) أي تعظيم الشيخ الكبير صاحب الشيبة البيضاء الذي عمره في الإيمان، وتوقيره في المجالس، والرفق به، والشفقة عليه.. أي من جملة إجلال الله وتوقيره أن يكرم موضع وقاره وهو شيبة المسلم، ولهذا السر قال الخليل: وقد رأى الشيب وكان أول من شاب، ما هذا يا رب؟ قال: وقار يا إبراهيم. قال: يا رب زدني وقاراً. وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: جاء شيخ يريد النبي صلى الله عليه وسلم فأبطأ القومُ عنه أن يوسّعوا له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس منا مَنْ لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا) [صححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح الأدب المفرد].

إكرام حامل القرآن

(وحامل القرآن).. أي قارئه، وقيل حافظه، وسماه حاملاً له لما يحمله لمشاق كثيرة، تزيد على الأحمال الثقيلة. وقال القارى: أي: وإكرام قارئه، وحافظه، ومفسره. (غير الغالي فيه).. الغلو: التشديد ومجاوزة الحد، أي غير المتجاوز الحد في العمل به، أو يبتدع ويحمل القرآن ما لا يحتمله، ويحكم رأيه في القرآن، ويأخذ من القرآن ما يوافق هواه، ويفتي بالهوى فيه، أو يغالي في حدود قراءته ومخارج حروفه. (والجافي عنه) أي التارك له البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه.. والجفاء: أن يتركه بعد ما علمه، لاسيما إذا كان نسيه، فإنه عُذٌّ مِنَ الكبائر. ومنه الحديث (اقرأوا القرآن ولا تجفوا عنه) أي: تعاهدوه ولا تبعدوا عن تلاوته بأن تتركوا قراءته، وتشتغلوا بتفسيره وتأويله.

إكرام ذي السلطان المقسط

(وإكرام ذي السلطان) أي سلطان لأنه ذي قهر وغلبة، من السلاطة وهي التمكن من القهر، قال الله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ} [النساء: ٩٠] ومنه سمي السلطان، وقيل ذي حجة لأنه يقام به الحجج (المقسط) العادل في حكمه بين رعيته.

وإنما كان إجلال ذي السلطان المقسط لأنه يرى السلطة غرما لا غنما، فييسط العدل بين الناس على تفاوت أقدارهم، فتنشأ الرعية على الولاء للأوطان، ويجتهد أفرادها في نهضتها، ولذلك تجد نهضة أي أمة في الماضي والحاضر معقودة على السلطان المقسط ابتداء، فالحضارات تبنى من أعلى.. من الرأس، وإنما يأتي دور الشعوب مكملا لتوجهات القيادة الراشدة.

أما السلطان الجائر فهو يعشق السلطة عشقا مرضيا يجعل كل تصرفاته من أجل ضمان كرسي الحكم لنفسه لا خدمة لأبناء شعبه، لذلك فهو يحايي كل من له شوكة يمكن أن تهدد سلطته، كالجيش والقضاء والإعلام، فتجد ميزانية الدولة مكرسة لمنح الامتيازات لهذه الفئات.

أما الشعوب فحظها ضحالة المعرفة وتغييب متعمد للوعي مع فقر ينسبها حقوقها ويجعل أيامها كد وتعب وراء لقمة العيش بما لا يتيح لها المطالبة بحقوقها في حرية التعبير وتداول السلطة والعدالة الاجتماعية.

والسلطان الجائر يرى أنه فوق النقد، {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٩] ولذلك تراه هو كل شيء في الدولة «دولة الزعيم الفرد».. هو الذي يرضى ويسخط، ويحب ويكره، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع.. تراه ينزعج من كل ألمعي أو نابغ صاحب شعبيه جماهيرية ككبار علماء الدين والمصلحين والمفكرين الذين تحتم مكانتهم أن يبذلوا له النصح ويأخذوا على يديه إن شرد، أما التكتلات الشعبية كمجلس الأمة والنقابات وغيرها فهي شكلية أكثر منها عملية، وتواجدها لزوم رسم العدالة الظاهرية لا الحقيقية.

وبوجه عام فتوقير أهل الفضل من مكارم هذا الدين الحنيف وبه نطقت الكثير من النصوص النبوية المباركة:

فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:
(لِئَلِي مِّنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ [ثلاثا] وإياكم وهيشات الأسواق)

[رواه مسلم] أي المنازعة، والخصومات واللغط، وارتفاع الأصوات التي توجد بالأسواق غالباً.

وعن أبي يحيى سهل بن أبي حثمة الأنصاري -رضي الله عنه- قال انطلق عبد الله ابن سهل ومحبيصة بن مسعود إلى خيبر وهي يومئذ صلح، فتفرقا، فأتى محبيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط في دمه قتيلاً، فدفنه، ثم قدم المدينة فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومحبيصة وحوبيصة ابنا مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب عبد الرحمن يتكلم فقال -صلى الله عليه وسلم-: (كبر كبر) وهو أحدث القوم، فسكت، فتكلمما فقال: (أتخلفون وتستحقون قاتلكم؟) وذكر تمام الحديث [متفق عليه]

وقوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كبر كبر) معناه: يتكلم الأكبر.

وعن جابر -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد يعني في القبر، ثم يقول: (أيهما أكثر أخذاً للقرآن؟) فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد [رواه البخاري]

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أراني في المنام أتسوك بسواك، فجاءني رجلان، أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر، فقيل لي: كبر، فدفعتاه إلى الأكبر منهما) [رواه مسلم]

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-:

ومن ذلك إذا قدمت الطعام مثلاً أو القهوة أو الشاي فلا تبدأ باليمين، بل ابدأ بالأكبر الذي أمامك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يعطيه الأصغر قيل له كبر، ومعلوم أنه لو كان الأصغر هو الأيسر لا يذهب الرسول صلى الله عليه وسلم يعطيه إياه، فالظاهر أنه أعطى الأيمن من أجل التيامن، لكن قيل له كبر: يعني أعطه الأكبر، فهذا إذا كان الناس أمامك تبدأ بالكبير، لا تبدأ باليمين، أما إذا كانوا جالسين عن اليمين وعن الشمال فابدأ باليمين.

وبهذا يجمع بين الأدلة الدالة على اعتبار التكبير أي مراعاة الكبير، وعلى اعتبار الأيمن، أي مراعاة الأيمن، فنقول: إذا كانت القصة كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان معه إناء يشرب منه، وعلى يساره الأشياخ وعلى يمينه غلام وهو ابن عباس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام) أتأذن لي أن أعطي هؤلاء) فقال الغلام: لا والله، لا أوتر بنصبي منك أحداً. فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا كان هكذا فأعطه من على يمينك، أما الذين أمامك فابدأ بالكبير، كما تدل عليه السنة، وهذا هو وجه الجمع بينهما. ثم إن الإنسان إذا أعطاه الكبير فمن يعطي بعده؟ هل يعطي الذي على يمين الكبير ويكون عن يسار الصاب، أم الذي عن يمين الصاب؟

نقول: يبدأ بالذي عن يمين الصاب، وإن كان على يسار الكبير؛ لأننا إذا اعتبرنا التيامن بعد مراعاة الكبير، فالذي على يمينك هو الذي عن يسار مقابلك فتبدأ به، ما لم يسمح بعضهم لبعض، ويقول: أعطه فلاناً.. أعطه فلاناً؛ فالحق لهم، وهم أن يسقطوه، والله أعلم

المصادر

- وما قدروا الله حق قدره عبد الله بن محمد البصري / شبكة الألوكة
- عون المعبود بشرح سنن أبي داود
- شرح رياض الصالحين لابن عثيمين رحمه الله تعالى
- فتاوى الشبكة الإسلامية، فتوى رقم ١٤١٤١

الدرة من حديث لقيط بن صبرة

عَنْ عَاصِمِ بْنِ لَقِيظِ بْنِ صَبْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنْتُ وَافِدَ بَنِي الْمُتَنَفِقِ أَوْ فِي وَفْدِ بَنِي الْمُتَنَفِقِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ نُصَادِفْهُ فِي مَنْزِلِهِ وَصَادَفْنَا عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ فَأَمَرَتْ لَنَا بِخَزِيرَةٍ فَصَنَعَتْ لَنَا قَالَ وَأَتَيْنَا بِقِنَاعٍ وَالْقِنَاعُ الطَّبَقُ فِيهِ تَمْرٌ ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (هَلْ أَصَبْتُمْ شَيْئًا أَوْ أَمَرَ لَكُمْ بِشَيْءٍ؟) قَالَ: قُلْنَا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُلُوسٌ إِذْ دَفَعَ الرَّاعِي غَنَمَهُ إِلَى الْمُرَاحِ وَمَعَهُ سَخْلَةٌ تَتَعَرَّضُ. فَقَالَ: (مَا وَلَدَتْ يَا فُلَانُ؟) قَالَ: بِهِمَّةٌ. قَالَ: (فَادْبَحْ لَنَا مَكَانَهَا شَاءَ) ثُمَّ قَالَ: (لَا تَحْسِبَنَّ وَلَمْ يَقُلْ لَا تَحْسِبَنَّ أَنَا مِنْ أَجْلِكَ ذَبَحْنَاهَا، لَنَا غَنَمٌ مِائَةٌ لَا نُرِيدُ أَنْ تَزِيدَ، فَإِذَا وَلَدَ الرَّاعِي بِهِمَّةً ذَبَحْنَا مَكَانَهَا شَاءَ) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي امْرَأَةً وَإِنَّ فِي لِسَانِهَا شَيْئًا يَغْنِي الْبَدَاءَ قَالَ: (فَطَلِّقْهَا إِذَا) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَهَا صُحْبَةً وَلِي مِنْهَا وَلَدٌ. قَالَ: (فَمُرْهَا يَقُولُ عِظْهَا فَإِنَّ يَكُ فِيهَا خَيْرٌ فَسْتَفْعَلْ وَلَا تَضْرِبْ ظَعِينَتَكَ كَضْرِبِكَ أُمِّيَّتَكَ) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ؟ قَالَ: (أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّ بَيْنَ الْأَصَابِعِ وَبَالَغْ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا). [سنن أبي داود: ١٢٣]

هذا الحديث من المواقف العملية التي تفيض بتعاليم سلوكية ودرر نبوية، وقد روي في صورة حكاية تستسيغها الأسماع وتستطيبها الأفهام، وفيه فوائد شتى وقيم عليا، سواء من

ضوابط الحوار وأصول المعتقد، ومن جهة العلاقات الاجتماعية والأسرية، فضلاً عن النواحي الفقهية التعبدية.

قوله: " كُنْتُ وَافِدَ بَنِي الْمُتَنَفِقِ أَوْ فِي وَفْدِ بَنِي الْمُتَنَفِقِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

الوافد واحد الوفد، والوفد: القوم الذين يأتون الملوك ركباناً، وقيل: هم القوم يجتمعون ويردّون البلاد، والذين يقصدون الأمراء للزيارة أو الاسترفاد [الإعانة والصلة]. وبني المتنفق اسم قبيلة راوي الحديث الصحابي الجليل لقيط بن صبرة رضي الله عنه.

" فَلَمْ نُصَادِفْهُ فِي مَنْزِلِهِ وَصَادَفْنَا عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ "

وهذا دليل واضح أنه يجوز استعمال لفظ «الصدفة، والمصادفة»؛ عكس بعض الناس الذين قد يشكون في جوازه؛ لأنهم يعتقدون أن استعمال مثل هذا اللفظ ينافي الإيمان بالقدر، والواقع أن المؤمن يعرف أن كل شيء بقضاء وقدر، لكن إذا كان الشيء غير مرتب فقد يعبر عنه بالصدفة، وقد تستعمل لفظ الصدفة والمصادفة في اللقاء.

لم نصادفه يعني: لم نلقه أو لم نقابله؛ لأنهم جاءوا -والله أعلم- على غير ميعاد.

إذا المقصود بقولنا «صدفة» أي بالنسبة لي ولك، وأما بالنسبة لله عز وجل فلا يقال هذا، فالله تعالى علم الأشياء وكتبها في اللوح المحفوظ، فمن قال عمداً -بالنسبة لله-: إنه فعل هذا صدفة فقد أخطأ وأجرم؛ لأنه نسب الله للجهل وأنكر القدر، لكن قوله: لقيت فلاناً صدفة يعني بالنسبة لي أنا وهو، فهي صدفة، يعني: من غير ميعاد، ولهذا قال -رضي الله عنه-: فلم نصادفه، وصادفنا عائشة.

" فَأَمَرْتُ لَنَا بِخَزِيرَةٍ فَصُنِعَتْ لَنَا قَالَ وَأُتِينَا بِقِنَاعٍ وَالْقِنَاعُ الطَّبَقُ فِيهِ تَمْرٌ "

الخزيرة ما اتخذ من دقيق ولحم، يقطع اللحم صغاراً، ويصب عليه الماء، فإذا نضج ذر عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة، والحزيرة: حساء من دقيق ودسم.

وفيه أن الضيف إذا حضر ورب الدار ليس موجوداً، فإن من في البيت من زوجة وخادم يقوم بواجب الضيافة؛ ولهذا قدمت عائشة رضي الله عنها لهم واجب الضيافة من خزيرة وتمر، قبل أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا من كرمها ونبل أخلاقها رضي الله عنها.

ثُمَّ جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (هَلْ أَصَبْتُمْ شَيْئًا أَوْ أَمَرَ لَكُمْ بِشَيْءٍ؟) قَالَ: قُلْنَا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُلُوسٌ إِذْ دَفَعَ الرَّاعِي غَنَمَهُ إِلَى الْمُرَاحِ وَمَعَهُ سَخْلَةٌ تَيَعَّرُ. فَقَالَ: (مَا وَلَدْتَ يَا فُلَانُ؟) قَالَ: بِهَمَّةٍ. قَالَ: (فَادْبَحْ لَنَا مَكَانَهَا شَاةً) ثُمَّ قَالَ: (لَا تَحْسِبَنَّ وَلَمْ يَقُلْ لَا تَحْسِبَنَّ أَنَا مِنْ أَجْلِكَ ذَبَحْنَاهَا لَنَا غَنَمٌ مِائَةٌ لَا نُزِيدُ أَنْ تَزِيدَ فَإِذَا وَلَدَ الرَّاعِي بِهَمَّةٍ ذَبَحْنَا مَكَانَهَا شَاةً)

الْمُرَاحِ: الموضع الذي تروح إليه الماشية، أي: تأوي إليه ليلاً، والسَخْلَةُ: ولد الغنم ساعة وضعه من الضأن والمعز جميعاً، ذكراً كان أو أنثى. وقوله: "تَيَعَّرُ" صوت الشاة. والْبَهْمَةُ: صغار الغنم.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تحسبن أنا من أجلك ذبحناها).. فيه ترك الاعتداد به على الضيف، والتبرؤ من الرياء والإعجاب. وبرر -صلى الله عليه وسلم- فعله بقوله: (أن تزيد على المائة) فتكثر لأن هذا القدر كاف لإنجاح حاجتي.

والمقصود فيه عدم الإدلال عليه بأننا ذبحنا هذه الذبيحة من أجلك، خلافاً لما قد يفعله بعض الناس من إظهار الإكرام للضيف بأشياء قد لا تكون حقيقية، وقد تكون حقيقية، ولكن ليس للضيف فائدة منها، فإذا أكرم الإنسان ضيفه بما يجب له وما يستحق وما يطيب خاطره، فلا يلزم أن يشعره بأنه ذبح من أجله.

وفيه: عدم التكلف للضيف؛ حتى لا يكون ذلك سبباً في نفرة الضيف، ولهذا فإنهم قدموا لهم ما تيسر وذبحوا لهم، وقال لهم: لا تحسبن أنا ذبحناها من أجلكم، بل عندما مائة لا نحب أن تزيد، فإذا ولد الراعي واحدة ذبحنا مكانها فلا نتكلف، فإذا لم يتكلف للضيف

صار هذا سبباً في مجيء الضيوف، وأما إذا تكلف صار هذا سبباً في بعد الضيوف وعدم مجيئهم؛ خوفاً من التكلف.

قوله: (لا تحسبن) بكسر السين كأنها لغة، قال النووي في شرحه: مراد الراوي أنه صلى الله عليه وسلم نطق هاهنا مكسورة السين ولم ينطق بها بفتحها، فلا يظن الظان أني رويتها بالمعنى على اللغة الأخرى، أو شككت فيها، أو غلطت أو نحو ذلك، بل أنا متيقن بنطقه صلى الله عليه وسلم بالكسر وعدم نطقه بالفتح.

وهي بالكسر لغة من اللغات، وقد تكلم بها النبي صلى الله عليه وسلم كما تكلم ببعض لغات أهل اليمن فقال: (ليس من أمير الصيام في السفر) أي: ليس من البر الصيام في السفر.

قال الحافظ ابن حجر في «التلخيص»: "هذه لغة لبعض أهل اليمن، يجعلون لام التعريف ميماً، ويحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم خاطب بها هذا الأشعري (يعني: كعب بن عاصم) كذلك لأنها لغته، ويحتمل أن يكون الأشعري هذا نطق بها على ما ألف من لغته، فحملها الراوي عنه، وأداها باللفظ الذي سمعها به. وهذا الثاني أوجه عندي. والله أعلم".

قال بعض أهل العلم: وهذه الظاهرة تسمى في علم اللغة الطمطمانيّة، ومن بقايا هذه اللهجة قولنا: امبارح، بدلاً من البارحة.

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي امْرَأَةً وَإِنَّ فِي لِسَانِهَا شَيْئًا يَعْنِي الْبَدَاءَ قَالَ: (فَطَلَّقْهَا إِذَا) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَهَا صُحْبَةً وَلِي مِنْهَا وَلَدٌ. قَالَ: (فَمُرَّهَا يَقُولُ عِظْهَا فَإِنْ يَكُ فِيهَا خَيْرٌ فَسْتَفْعَلْ وَلَا تَضْرِبْ ظَعِينَتَكَ كَضْرِبِكَ أُمِّيَّتَكَ)

وهنا ينظر في المصلحة، فإن كانت الزوجة بذينة اللسان وليس له منها ولد ورأى المصلحة في تطليقها طلقها، وإن كان له ولد فإنه ينظر ويتأمل ويعظها ولا يعجل.

قوله: (ولا تَضْرِبْ ظَعِينَتَكَ كَضْرِبِكَ أُمِّيَّتَكَ) الظعينة: المرأة، سميت بذلك لأنها تظعن مع الزوج، وتنتقل بانتقاله.. وأصل الظعينة المرأة تكون في الهودج على البعير، وكان يطلق

على الهودج اسم ظعينة، ثم أطلق على المرأة. والأمية: تصغير أمة، صغرها لتحقير قدرها بالنسبة إلى الحرة.

والمراد بالأمة والخدمة في الحديث: التي تباع وتشتري، إذ كان هذا هو المعروف عندهم، فالخدم سابقاً كانوا يؤخذون من أرض الجهاد، كان المسلمون يقاتلون الأعداء ويجاهدون ويسترقون، فيصير هناك رق بسبب الجهاد، وأما الخدمة في زمننا فهي مستأجرة وليست خادمة، ويقال لها: خادم، وخادم أفصح من خادمة، يقال للذكر والأنثى، وكذلك الزوج أفصح من الزوجة.

إذا الأمة قد تضرب وتؤدب، وأما الزوجة فلا، لأن الضرب قد يؤذيها، وقد يسيء العشرة، والواجب أن يعمل مع المرأة كما قال الله عز وجل، فأولاً: يعظها إذا خاف النشوز، ثم يهجرها في المضجع، ثم يضربها ضرباً غير مبرح، فأخر الطب الكي، والضرب آخر شيء. قال تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} [النساء: ٣٤]، ولكن الضرب يكون ضرب تأديب، فلا يكسر عظماً، ولا يجرح جسداً، بل يكون كضرب الصبي الصغير الذي لم يبلغ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر) أي: ضرب تأديب.

عَنْ إِيَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ) فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: ذَرِينِ النِّسَاءَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَرَحَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأَطَافَ بِأَلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءً كَثِيرًا يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَقَدْ طَافَ بِأَلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءً كَثِيرًا يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَيْكَ بِخِيَارِكُمْ). [رواه أبو داود]

وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً) [أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح]

ووجه الاستدلال من هذا الحديث: أن كمال الإيمان يُوجِبُ حُسن الخلق والإحسان إلى الناس، وخاصّة حُسن المعاشرة مع النِّساء؛ لأنَّهنَّ محلُّ الرحمة لضعفهنَّ وحاجتهن إلى العطف وحُسن الرِّعاية.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إني أُحَرِّجُ عليكم حقَّ الضعيفين: اليتيم، والمرأة) [صحيح: أخرجه النسائي].. أي ألحق الحرج وهو الإثم بمن ضيعهما فأحذره من ذلك تحذيراً بليغاً وأزجره زجراً أكيداً.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "شِدَّة الوَطْأَة على النِّساء مذموم؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم، وترك سيرة قومه". [فتح الباري: ٢٠٢/٩]

فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ؟ قَالَ: (أَسْبِغِ الْوُضُوءَ)

(أسبغ الوضوء) أي: أكمله وتممه، وهذا من أصرح الأدلة على وجوب إسباغ الوضوء؛ لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، والمقصود بالإسباغ: تبليغ الماء إلى المحل المطلوب، يعني: أن يغسل الإنسان وجهه كله، وذراعه ويده كلها، ويمسح برأسه كله، ويغسل رجليه كليهما مستوعباً المحل المفروض، فهذا هو الإسباغ، وهو واجب بلا شك، ولعل هذا يصلح أن يكون دليلاً لوجوب استيعاب مسح الرأس كله.

وهل هذا الأمر بالإسباغ يقتضي الوجوب أو يقتضي الاستحباب؟

فنقول: إن الإسباغ لفظ مشترك، فإن كان الإسباغ لأعضاء الوضوء بحيث يعممها، فهذا إسباغ واجب.

فإن كان من النوع الثاني: وهو «تثليث الأعضاء» فيكون الإسباغ مستحباً.

فإن كان وهو النوع الثالث: إذا كان التثليث واقعا وحصل معه ذلك للأعضاء، فإنه يكون فاضلاً.

فتحصل من هذا: أن الإسباغ ثلاثة أنواع، إما أن يكون واجباً، وإما أن يكون مستحباً، وإما أن يكون فاضلاً.. ومن ثم فإن الأمر يكون واجبا في النوع الأول، ويكون مستحبا ومسنوناً في النوعين الآخرين.

ومن الفوائد بيان فضيلة الإِسْبَاغِ، ولاسيما إذا حصل حرج ومشقة على المسلم، ولذلك بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أن مما يرفع الله عز وجل به درجات العبد، إِسْبَاغُ الوضوء على المكاره، ففي الحديث (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (إِسْبَاغُ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط) [مسلم والترمذي]

(وَحَلَّلَ بَيْنَ الْأَصَابِعِ)

التخليل: إدخال الشيء في خلال الشيء، ويتناول تخليل أصابع اليدين والرجلين. وفيه: مشروعية التخليل بين الأصابع؛ لأنه قد ينبو عنه الماء.

والأمر بالتخليل هنا هل يقتضي الوجوب أم يقتضي الاستحباب؟
الجواب عن هذا: أنه يقتضي الاستحباب.

وما الذي صرف هذا الأمر من الوجوب إلى الاستحباب؟

الذي صرفه: أن الماء سيّال بطبعه فيصل إلى هذه المواطن الخفية، فكان التخليل من باب الاستيثاق والاطمئنان.

لو قال قائل: هو أمر بتخليل الأصابع، أي أصابع؟ هي أصابع اليدين وأصابع الرجلين، لما جاء في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- في مسند الإمام أحمد، وحسنه البخاري رحمه الله، قال صلى الله عليه وسلم: (إذا توضأت فخلل أصابع يديك ورجليك).

لو قال قائل: بأي يد يكون هذا التخليل باليسرى أم باليمنى؟

قيل باليسرى قياساً على الاستنجاء، لأن هذا إزالة أذى، وهذا من باب القياس، وإلا فلا دليل ينص على تحديد اليسار.

فإذا قال قائل: خللت الأصابع بيدي اليسرى فبأي أصبع يكون التخليل؟

يكون بالخنصر، والخنصر هو: الأصبع الصغير في أول اليد. لما ورد في حديث

المستورد في سنن أبي داود: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخلل أصابع قدمه بخنصره.

(وَبَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا)

والمبالغة فيه: أن يجذب الماء بنفسه إلى أقصى أنفه، وذلك لزييل ما يعلق في أنفه من الأذى، وقيل: أن يتمخط في كل مرة، وقيل: يدخل إصبعة في أنفه، وإنما استثنى حالة الصوم؛ لأنه يخاف عليه دخول الماء من خيشومه إلى حلقه، فيفسد صومه. وفيه دليل على مشروعية الاستنشاق، وأن الصائم لا يبالغ في الاستنشاق. فهل هذا الأمر بالاستنشاق للوجوب أم للاستحباب؟
ظاهر قوله (وبالغ) أنه للوجوب. ولكن هذا الظاهر معدول عنه، فتكون المبالغة في الاستنشاق مستحبة.

ما الذي صرفها عن هذا الوجوب؟

الذي صرفها: أن النبي صلى الله عليه وسلم استثنى الصائم، ولو كانت المبالغة واجبة لأمر الصائم بها، وقيل له تحرز من أن يدخل جوفك شيء من الماء، فلما نهي الصائم عنها، دل على أن المبالغة في الاستنشاق ليست واجبة.

والمبالغة في الاستنشاق من باب المبالغة في التطهر، فيكون المسلم حال لقائه بربه عز وجل في هذه الصلاة، يكون على أحسن حال.

وهذا يدل على عظم هذه الشريعة وأنها أمرت المسلم بأن يكون على أحسن حال في ظاهره وفي باطنه، كما أنه مأمور من قبل الشرع أن يكون نظيف الباطن، كذلك هو مأمور بأن يكون نظيف الظاهر، والنصوص في الحث على الاعتناء بالمظهر كثيرة، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيحين - يكره أن توجد منه الريح الخبيثة. وكان يعرف بطيب العود إذا أقبل.

لو قال قائل: المبالغة في المضمضة مستحبة أم لا؟

الجواب عن هذا: أن كثيرا من العلماء يرون أنها مستحبة، قياسا على الاستنشاق، وهذا القياس في محله، وفي حديث ذكره ابن حجر رحمه الله في تلخيص الحبير وقال: "صححه ابن القطان" قال: (وبالغ في الاستنشاق والمضمضة) فجاء ذكر المضمضة.

والمبالغة في المضمضة: أن يدير الماء في فمه، فيحرك الماء تحريكاً كثيراً في فمه حتى يزيل ما يعلق بأسنانه.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إذا توضأت فمضمض) فيه دليل لمن قال بوجوب المضمضة في الوضوء، لأن المسألة فيها خلاف، لكن الأمر هنا: (إذا توضأت فمضمض) يدل على أن المضمضة واجبة في الوضوء، بخلاف ما ذهب إليه بعض العلماء من أنها مستحبة، لم؟

لأن الأعرابي لما أتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام وسأله عن الوضوء؟ قال: (توضأ كما أمرك الله). والذي أمر الله عز وجل به في سورة المائدة ما ذكر فيه المضمضة والاستنشاق.

فيقال: إن المضمضة والاستنشاق داخلتان ضمن الوجه، لأن الفم والأنف من الوجه. ومما يدل على أنهما من الوجه الظاهر: أنه لو استنشق أو تمضمض ما فسد صومه، فلا يمكن أن نخرج الفم والأنف، فماذا نقول في الأنف والفم أيهما من الداخل أم من الظاهر؟

إن قلنا من الداخل يرد هذا أن الصائم لا يفسد صومه بالمضمضة ولا بالاستنشاق. إذاً لزمنا أن نقول: هي من الظاهر فيجب في مثل هذا الأمر المضمضة والاستنشاق، ودليل الوجوب هذا الحديث في المضمضة.

ودليل الوجوب في الاستنشاق: قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماءً). ويؤكد هذا: أنه عليه الصلاة والسلام ما ترك المضمضة والاستنشاق مطلقاً.

ومن الفوائد: أنه عليه الصلاة والسلام أمر بالمضمضة، فدل على أن هذا الواجب يصدق بأقل ما يكون من وصف المضمضة.

والواجب في المضمضة: أن يدير الماء في فمه أدنى إدارة، لو حرك الماء في فمه حركة يسيرة اكتفي بذلك، هذا إذا كان الماء قليلاً.

إما إذا كان الماء كثيراً: فإن الإدارة لا معنى لها، لأن الفم إذا امتلأ بالماء كأنه أدار الماء في فمه.

"وفي الحديث دليل على أن الأنف منفذ بخلاف العين والأذن، فإذا قطر الصائم في العين أو الأذن فلا يفطر على الصحيح كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، ولو وجد طعاماً في حلقه؛ لأن العين والأذن ليستا منفذين، لكن إذا قضى من باب الاحتياط وخروجاً من الخلاف فحسن، وأما الأنف فإنه منفذ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً)، فدل على أن الأنف منفذ مثل الفم، فإذا استعط -أي: جعل السعوط في أنفه- ووصل إلى حلقه فإنه يفطر؛ لأن الأنف منفذ".

من المصادر

- شرح كتاب (بلوغ المرام)، (باب الوضوء) فضيلة الشيخ: زيد بن مسفر البحري
- شرح سنن أبي داود للراجحي

أبهذا أمرتم؟

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه، حتى كأنما فقى في وجنتيه الرمان، فقال: (أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه) (١)

الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها،

وكتبها في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، والكل بقضائه وقدره وإرادته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة ووعد عليهما الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية وأوعد عليهما العقاب. والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، ولا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يجب أن يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق فجعلهم فرقتين: فرقة خلقهم للنعيم فضلا، وفرقة للجحيم عدلا، وسأل رجل علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: أخبرني عن القدر؟ قال: طريق مظلم لا تسلكه، وأعاد السؤال فقال: بحر عميق لا تلجه، وأعاد السؤال فقال: سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه (٢)

والقدر لغة بمعنى التقدير، ويُعرّف بأنه: علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل، أما القضاء فهو بمعنى الحكم، ويُعرّف بأنه: إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وقدرته.

وما أجمل جواب الإمام أحمد عندما سئل عن القدر، فقال: القدر قدرة الرحمن.

والإيمان بالقدر يشمل درجتين:

(الدرجة الأولى): الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله تلك المقادير في اللوح المحفوظ، قال تعالى: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢] وقال -صلى الله عليه وسلم-: (كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء) (٣).

(الدرجة الثانية): فهي الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئته سبحانه، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن معصيته، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد والمفسدين، والعباد فاعلون حقيقة والله خلق أفعالهم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم (٤)

هذا وقد أراد المشركون أن يحتجوا بقدر الله ومشيئته على شركهم، وأنه لو لم يشأ الله تعالى لهم الشرك لما وقعوا فيه، فأبطل الله حججهم ودحضها بقوله عز وجل: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ، قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]

وجوابه سبحانه للمحتجين بالقدر واضح كل الوضوح لقيامه على أمرين بديهيين:

(الأول): أنه تعالى أذاق الكافرين الأول بأسه وأنزل بهم عقابه فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبه من الجرائم والآثام والكفر لما عذبهم الله، لأنه عادل لا يظلم أحدا، ولا شك في أن عقاب المكره على الفعل ظلم والاحتجاج بقدر الله على معصيته مع ظهور عقابه سبحانه للعصاة فيه نسبة الظلم إليه وهو أمر يتنافى مع الإيمان بالله تعالى، فالظلم نقص لا يليق بالخالق جل وعلا.

(الثاني): أن المحتج بالقدر على كفره ومعصيته متقول على الله بغير علم، إذ كيف يصح للكافر أو العاصي أن يحتج بأن الله كتب عليه الكفر أو المعصية قبل صدور ذلك منه، وقدر الله قبل وقوعه غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل مع أنه مخاطب قبل إقدامه على طاعة ربه والتزام أمره.. وبعبارة أقرب: كيف يصح لأحد أن يقول: كتب علي ربي أن أسرق فأنا ذاهب لتنفيذ قدره، فهل اطلع على اللوح المحفوظ فقرأ ما فيه حتى يعلم ما كتب الله عليه في وقت كان مخاطبا بالامتناع عن معصية الله (٥)

ذاك ما يحتاج إليه المؤمن في القضاء والقدر، فيكفيه أن يعلم معناه ودرجاته وأن يؤمن به، وأن الله عليم بكل شيء وخالق كل شيء، وما لم يشأ لم يكن، وأنه عادل لا يظلم أحداً، وأنه حكيم منزّه من العبث، ولا يحتاج هذا الموضوع إلى أكثر من ذلك وما علم الله حاجتنا إليه بينه لنا وما طواه عنا لا يجوز أن نتكلف البحث عنه فنختلف ونهلك، فإن عقولنا محدودة خلقها الله للإسهام في عمارة الدنيا وليست وظيفتها اكتشاف الغيب الذي استأثر بعلمه خالقها، وليس أماننا إلا التسليم والإيمان بما يعرفنا الله عليه من أمور الغيب وقضاياه ومن هذه القضايا: الصلة بين خلق الله للأفعال وإرادة الإنسان وفعله لهذه الأفعال، وليست هذه هي القضية الغيبية الوحيدة التي لا يدرك العقل كنهها، فصفت الله عز وجل ندرك آثارها ولا ندرك كيفيتها شأنها شأن الذات الإلهية التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها (٦)، ولهذا نهي النبي في هذا الحديث الجليل عن الخوض في القدر والعمق فيه.

وللإيمان بالقدر فوائد منها:

(أولاً): أنه من تمام الإيمان ولا يتم الإيمان إلا بذلك.

(ثانياً): أنه من تمام الإيمان بالربوبية لأن قدر الله من أفعاله.

(ثالثاً): رد الإنسان أموره إلى ربه لأنه إذا علم أن كل شيء بقضائه وقدره فإنه سيرجع

إلى الله في دفع الضراء ورفعها، ويضيف السراء إلى الله، ويعرف أنها من فضل الله عليه.

(رابعاً): أن الإنسان يعرف قدر نفسه ولا يفخر إذا فعل الخير.

(خامسا): هون المصائب على العبد لأن الإنسان إذا علم أنها من عند الله هانت عليه المصيبة، كما قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١] قال علقمة رحمه الله: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم (٧)

(سادسا): إضافة النعم إلى مسديها، لأنك إذا لم تؤمن بالقدر أضفت النعم إلى من باشر الإنعام، وهذا يوجد كثيرا في الذين يتزلفون إلى الملوك والأمراء والوزراء فإذا أصابوا منهم ما يريدون جعلوا الفضل إليهم ونسوا فضل الخالق، صحيح أنه يجب على الإنسان أن يشكر الناس لكن يعلم أن الأصل كل الأصل هو فضل الله عز وجل جعله على يد هذا الرجل.

(سابعا): أن الإنسان يعرف به حكمة الله عز وجل لأنه إذا نظر في هذا الكون وما يحدث فيه من تغييرات باهرة عرف بهذا حكمة الله عز وجل بخلاف من نسي القضاء والقدر فإنه لا يستفيد هذه الفائدة (٨)

الهوامش

- (١) رواه الترمذي - كتاب القدر رقم ٢١٣٣، والحديث حسنه الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٧٣٢
- (٢) تحفة الأحوذني بشرح جامع الترمذي نقلا عن شرح السنة - ج ٦ ص ٢٧٨ ط دار الفكر (٣)
- رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو (٤) انظر الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص ٣٥٢، ٣٥٣
- بتصرف (٥) الإيمان لمحمد نعيم ياسين - مكتبة التراث - القاهرة ص ١٣٦-١٣٧ (٦) تبسيط
- العقائد الإسلامية (٧) أخرجه الطبري ٨٠/٢٨، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد وابن المنذر، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٢٧/٦، كما عزاه ابن كثير لابن أبي حاتم ١٦٣/٨ (٨) شرح العقيدة الواسطية
- لشيخ الإسلام ابن تيمية / شرحه سماحة الشيخ محمد بن الصالح العثيمين ج ٢ ص ١٩١ / العلمية للنشر والتوزيع

أجزاء من النبوة

عن عبد الله بن سرجس -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم:
(السمت الحسن، والتؤدة، والاقتصاد، جزء من أربعة وعشرين جزءا من
النبوة) (١)

سمة أهل الخير، والتأني في تناول الأمور، والتوسط في السلوك بين الإفراط والتفريط..
كلها قيم ربيبة هذا الدين العظيم، ترعرعت في كنفه وكبرت بين أحضانه لتقول للبشرية كافة
أن الإسلام هو القيم والقيم هي الإسلام.

«السمت الحسن»: هو حسن الهيئة والمنظر، وأصل السمت الطريق ثم استعير للزي
الحسن والهيئة المثلى في الملبس وغيره من السيرة المرضية والطريقة المستحسنة، وفي الفائق:
السمت أخذ المنهج ولزوم المحجة. وفي رواية لهذا الحديث: (إن الهدي الصالح) (٢) بفتح
الهاء: السيرة السرية (٣)

قال تعالى: {يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا، ولباس التقوى
ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون} [الأعراف: ٢٦] قال ابن عباس: ولباس
التقوى: هو السمت الحسن في الوجه (٤)

وقال تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا
سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود} [الفتح: ٢٩]
قال ابن كثير: قال ابن عباس -رضي الله عنه-: يعني السمت الحسن، وقال مجاهد
وغير واحد يعني: الخشوع والتواضع، وقال ابن أبي حاتم عن منصور عن مجاهد: {سيماهم
في وجوههم من أثر السجود} قال: الخشوع، قلت ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه،
فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون، وقال السدي: الصلاة تحسن
وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد أسنده

ابن ماجة في سننه عن جابر -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار) (٥) والصحيح أنه موقوف، وقال بعضهم: إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان -رضي الله عنه- ما أسر أحد سريرة، إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته.

ثم قال ابن كثير: فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديبهم، وقال مالك -رضي الله عنه-: بلغني أن النصراني كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: { ذلك مثلهم في التوراة } ثم قال: { ومثلهم في الإنجيل } (٦)

أما «التؤدة»: فهي التأني والتثبت وترك العجلة في جميع الأمور، فعن ابن عباس -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لأشج عبد القيس: (إن فيك خصلتين يجبهما الله الحلم والأناة) (٧) قال النووي: الحلم هو العقل، والأناة هي التثبت وترك العجلة، وسبب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك له ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا إلى المدينة، بادروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأقام الأشج عند رحالهم، فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقربه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تبايعون على أنفسكم وقومكم) فقال القوم: نعم، فقال الأشج: يا رسول الله، إنك لم تزاود الرجل عن شيء أشد عليه من دينه، نبايعك على أنفسنا، ونرسل إليهم من

يدعوهم، فمن اتبعنا كان منا ومن أبي قاتلناه. قال: (صدقت إن فيك خصلتين...) الحديث، قال القاضي عياض: فالأناة تربصه حتى نظر في مصالحه ولم يعجل، والحلم هذا القول الذي قاله الدال على صحة عقله وجودة نظره للعواقب (٨)

أما قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة) (٩) فقال المناوي:

(التؤدة في كل شيء خير) أي مستحسن محمود (إلا في عمل الآخرة) فإنه غير محمود بل الحزم بذل الجهد فيه لتكثير القربات ورفع الدرجات، فإن في تأخير الخيرات آفات، وقال الطيبي: معناه أن الأمور الدنيوية لا يعلم أنها محمودة العواقب حتى يتعجل فيها أو مذمومة حتى يتأخر عنها بخلاف الأمور الأخروية لقوله سبحانه: {فاستبقوا الخيرات} [البقرة: ١٤٨]، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم} [الحديد: ٢١]، كان البوشنجي في الخلاء فدعا خادمه فقال: انزع قميصي وأعطه فلاناً. فقال: هلا صبرت حتى تخرج. قال: خطر لي بذله ولا آمن على نفسي التغير (١٠)

و «الاقتصاد»: هو سلوك القصد في الأمور والدخول فيها برفق على سبيل تمكن الدوام عليها، وقيل هو: التوسط في الأمور والأحوال والتحرز عن طرفي الإفراط والتفريط. قال التوربشتي: الاقتصاد على ضربين أحدهم ما كان متوسطاً بين محمود ومذموم، كالتوسط بين الجور والعدل والبخل والجود، وهذا الضرب أريد بقوله تعالى: {ومنهم مقتصد} [فاطر: ٣٢]، والثاني محمود على الإطلاق، وذلك فيما له طرفان إفراط وتفريط كالجود فإنه بين الإسراف والبخل والشجاعة فإنها بين التهور والجن، وهذا الذي في الحديث هو الاقتصاد المحمود على الإطلاق (١١)

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة) أي هذه الخصال من شمائل وأخلاق أهل النبوة وجزء من أجزاء فضائلهم، فاقنوا بهم فيها، وتابعوهم عليها، إذ ليس معناه أن النبوة تتجزأ ولا أن من جمع هذه الخصال صار فيه جزء من النبوة لأنها غير مكتسبة وإنما هي كرامة يخص بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث

يجعل رسالته، أو المراد أن هذه الخلال مما جاءت به النبوة ودعا إليها الأنبياء، أو أن من جمعها ألبسه الله لباس التقوى الذي ألبسه الأنبياء فكأنها جزء منها (١٢)

والحديث ورد أيضا بلفظ: (إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة) (١٣)

وفي رواية أخرى: (إن الهدى الصالح والسمت الصالح جزء من سبعين جزءا من النبوة) (١٤)

ورواه المقدسي في الأحاديث المختارة عن أنس بلفظ: (السمت الحسن جزء من خمسة وسبعين جزءا من النبوة) (١٥)

فالمراد بالعدد المذكور الكثير لا التحديد، على أنه يمكن الاختلاف بحسب الكمية والكيفية الحاصلة في المتصف به أفاده المباركفوري (١٦)

الهوامش

- (١) رواه الترمذي - كتاب البر والآداب والصلة - باب ما جاء في التآني والعجلة رقم ٢٠١٠ ورواه أبو بكر الشيباني في الأحاد والمثاني ٣٣٦/٢ رقم ١١٠٥، وعلاء الدين على المنقي في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال رقم ٦٣٧٦، والحديث حسنه الألباني انظر حديث رقم: ٣٦٩٢ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني، وقال أيضا في صحيح الترغيب والترهيب رقم ١٦٩٦ (حسن صحيح)
- (٢) رواه أحمد وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٩٣ (٣) انظر فيض القدير للمناوي ١٥٣/١، وتحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ج ٦ ص ١١٨ ط دار الفكر بيروت (٤)
- ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج ٣ تفسير الآية من سورة الأعراف (٥) ضعيف: ضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم ٥٨١٦ (٦) تفسير ابن كثير - آخر تفسير سورة الفتح بتصريف (٧) رواه مسلم - كتاب الإيمان رقم ٢٤، والترمذي - كتاب البر والآداب والصلة - باب ما جاء في التآني والعجلة ٣٦٦/٤ رقم ٢٠١١ (٨) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ج ٦ ص ١١٩ - كتاب البر والآداب والصلة حديث رقم ٢٠١١ (٩) (صحيح) رواه أبو داود - كتاب الأدب - باب في الرفق، والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما انظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني رقم ٣٣٥٦، وصحيح الجامع له أيضا حديث رقم: ٣٠٠٩ (١٠) انظر فيض القدير

للمناوي ٤٥٢/١ وعون المعبود شرح سنن أبي داود ج١٣ ص ١٣٦ ط دار الفكر (١١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى ج٦ ص ١١٨ ط دار الفكر بىروت (١٢) انظر فىض القدر للمناوي ٤٥٢/١، و تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى ج٦ ص ١١٨ ط دار الفكر بىروت (١٣) وهى رواية حسنة رواها أبو داود ٢٤٧/٤ رقم ٤٧٧٦ وفى كنز العمال رقم ٥٢٩٢ وحسنها الألبانى فى انظر حدىث رقم: ١٩٩٣ فى صحىح الجامع (١٤) رواها الطبرانى فى المعجم الكبىر ١٠٦/١٢ رقم ١٢٦٠٨ (١٥) الأحادىث المختارة للمقدسى رقم ٢٢٠٩ (١٦) المباركفورى فى تحفة الأحوذى ج٦ ص ١١٨

أحرام هو؟!

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- عن خالد بن الوليد بن المغيرة، أنه دخل مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيت ميمونة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- فأتي بضرب مخنوذ [أي مشوي]، فأهوى إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيده، فقال بعض النسوة اللاتي في بيت ميمونة: أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يريد أن يأكل منه؟ فقيل: هو ضب يا رسول الله، فرفع يده، فقالت: أحرام هو يا رسول الله؟ فقال: «لا، ولكنّه لم يكن بأرض قومي، فأجذني أعافه» قال خالد: فأجترته [أي جرته] فأكلته، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر

** «الضب»: حيوان، أو دويبة من جنس الزواحف يشبه الفأر الكبير، قصير الأرجل جداً، حتى كأنه يزحف على بطنه، لا يزيد وزنه عن كيلو جرام واحد، يسكن الجبال غالباً في الجحور.. معروف باليمن ولا يوجد بمكة

يقال أن حفرة الضب متعرجة يحفرها تارة يمينا وتارة يسرا، فلذلك ضرب به المثل (لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشِبْرِ وَدِرَاعًا بِدِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ قَالَ فَمَنْ)

** في رواية: فقالت ميمونة إنه لحم ضب فكف -صلى الله عليه وسلم- يده ثم قال: (هذا لحم لم آكله قط) فأكل الفضل ابن عباس وخالد بن الوليد وامرأة كانت معهم، وقالت ميمونة: لا آكل طعاما لم يأكله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

** قوله «رفع يديه» فيه قمة الأدب النبوي، فلا ذم ولا تعبير، ولا غضب ولا تنفير، ولا زجر ولا تعسير، لا يعرف لغة التعيب لطعام أو شراب، فقط تعامل بسيط في ثوب رقيق فلا يهين بذلك جالسا أو يهون من بذل صانع.

وفي الحديث: ما عاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طعاماً قطَّ إن اشتهاه أكله وإلا تَرَكَه.

والذي ينبغي للإنسان إذا قدم له الطعام أن يعرف قدر نعمة الله سبحانه وتعالى بتيسيره وأن يشكره على ذلك، وألا يعيبه، إن كان يشتهيهِ وطابت به نفسه فليأكله وإلا فلا يأكله، ولا يتكلم فيه بقدرح أو يعيب لأنه جحود للنعمة وتنفير للغير منه، كما أن ذم الطعام يتأذى منه صاحبه.

أما قوله -صلى الله عليه وسلم- لأكل الضب «ألا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ» فبيان لكراهته لا إظهار عيبه.. فالمرء ابن بيئته ولا يطعن عليه كونه سائر على عادتهم

وفي رواية عند مسلم عن ابن عمر قال: سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الضب فقال: (لست بأكله ولا محرمة).

وفي رواية عند مسلم عن ابن عمر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (كلوا فإنه حلال، ولكنه ليس من طعامي).

وهذا نص صريح على عدم الحرمة الشرعية، وإشارة إلى الكراهة الطبيعية.

وعن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- لم يحرم الضب ولكن قدره وأن الله لينفع به غير واحد وأنه لطعام الرعاء ولو كان عندي لأكلته.

وفيه دليل على أن من الحلال ما تعافه بعض النفوس.

وفيه دليل على خطأ من روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الضب (لست بمحله ولا بمحرمة) وأنه لو كان حراما لم يؤكل على مائدته.

**** قال ابن حجر: وقد ورد سبب آخر أخرجه مالك من مرسل سليمان بن يسار، فذكر نص حديث ابن عباس وفي آخره: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلا - يعني خالد بن الوليد، وعباس- فإنني يحضرنى من الله حاضرة).**

قال المازري: "يعني الملائكة، وكان للحم الضب ريحاً فترك أكله لأجل ريحه، وهذا إن صح يمكن ضمه إلى الأول ويكون لتركه الأكل من الضب سببان" .

**** وما ينبنى على هذا الموقف ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: (إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ وَالْأُخْرَى شِفَاءٌ) أخرجه البخاري وأبو داود وزاد (وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء)**

ومنه يستفاد أن الذباب ميتته طاهرة، وكان ما وقع فيه من الشراب طاهراً، فأى شراب يقع فيه ذباب ويموت فهو طاهر ويشرب، فإن كرهه الإنسان فله تركه ولا شيء عليه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قدم إليه الضب وهو حيوان معروف ولم يأكل منه فقليل له أحرام هو يا رسول الله قال (لا ولكنه ليس في أرض قومي فأجدني أعافه) وتركه وهو حلال، فإن كانت نفسك لا تتحمل شراب وقع فيه ذباب فلا عليك أن لا تشربه

فإن قال قائل إذا وقع الذباب في شراب فمات فيه فغمسته ثم أخرجه فهل يلزمي أن أخبر الشارب بأن الذباب وقع فيه ومات؟ الجواب: لا يلزمك، لأن موت الذباب فيه لم يؤثر شيئاً، ولم ينقله من الحل إلى التحريم، ولا من الطهارة إلى النجاسة.

إذا أحب الله عبدا

عن قتادة بن النعمان -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
(إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء) (١)

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتهما، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدا وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعملوا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها (٢)

قال جل شأنه: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} [الحديد: ٢٠]

أي تغر المؤمن وتخدعه فيظن طول البقاء وهي فانية، وقال قتادة: هي متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع، والغرور [بفتح الغين] الشيطان، يغر الناس بالتمنية والمواعيد الكاذبة، قال ابن عرفة: الغرور ما رأيت له ظاهراً تحبه وفيه باطن مكروه أو مجهول، والشيطان غرور لأنه يحمل على محاب النفس ووراء ذلك ما يسوء (٣)

والله جل شأنه إذا فتح الدنيا وزينتها على العصاة فإنما هو استدراج، قال تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٥٥] {وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٨٥]

قال المناوي: (إذا أحب الله عبداً حماه) أي حفظه من متاع (الدنيا) أي حال بينه وبين نعيمها وشهواتها ووقاه أن يتلوث بزهرتها لئلا يمرض قلبه بها ويمحبتها وممارستها ويألفها

ويكره الآخرة (كما يحمي) أي يمنع (أحذكم سقيم الماء) أي شربه إذا كان يضره، وللماء حالة مشهورة في الحماية عند الأطباء، فهو جلّ اسمه يذود من أحبه عن الدنيا حتى لا يتدنس بها وبقدارتها ولا يشرق بغصصها، كيف وهي للكبار مؤذية وللعارفين شاغلة وللمريدين حائلة ولعامّة المؤمنين قاطعة، والله تعالى لأوليائه ناصر، ولهم منها حافظ وإن أرادوها (٤)

وقال ابن الجوزي: تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان: يا سفيان عد منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلا، إنما منعك لطفًا. فرأيتك كلام من قد عرف الحقائق، فإن الإنسان قد يريد المستحسنات الفاتقات فلا يقدر، وعجزه أصلح له، لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه، إما بحفظهن أو بالكسب عليهن، فإن قوى عشقه لهن ضاع عمره وانقلب هم الآخرة إلى اهتمام بهن، فإن لم يردنه فذاك الهلاك الأكبر، وإن طلبن نفقة لم يطبقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه، وإن أردن الوطاء وهو عاجز فرما أهلكته أو فجرن، وإن مات معشوقه هلك هو أسفًا، فالذي يطلب الفائق يطلب سكينًا لذبحه وما يعلم، وكذلك إنفاذ قدر القوت فإنه نعمة، وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) (٥) ومتى كثر تشتت الهمم، فالعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعيم، فقنع بدفع الوقت على كل حال (٦)

ولذلك حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته من التكالب على الدنيا، والسنة النبوية متكاثرة بالأحاديث الصحيحة التي تدور حول هذا المعنى الجليل، فعن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيته وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدم أي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما انصرف تعرضوا له فتبسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين رآهم ثم قال: (أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء؟) قالوا: أجل يا رسول الله. قال: (فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى

عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها
كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم) (٧)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا
حرصا ولا يزدادون من الله إلا بعدا) (٨)، وعن أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- أَنَّ
النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَقَالَ: (إِنِّي مِمَّا
أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا) فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ
أَوْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ [أي أتصير النعمة عقوبة] فَسَكَتَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- فَقِيلَ
لَهُ مَا شَأْنُكَ، تَكَلَّمَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- وَلَا يُكَلِّمُكَ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ، قَالَ:
فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحْضَاءَ [أي العرق] فَقَالَ: (أَيْنَ السَّائِلُ) وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ فَقَالَ: (إِنَّهُ لَا يَأْتِي
الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعَ [أي الجدول] يَفْتُلُ [وفي رواية يقتل حبطا والحبط انتفاخ
البطن من كثرة الأكل] أَوْ يُلْمُ [أي يقرب من الهلاك]، إِلَّا آكَلَةَ الْخَضِرَاءِ أَكَلْتُ حَتَّى إِذَا
امْتَدَّتْ حَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ [أي أخرجت] وَبَالَتْ وَرَرَعَتْ [أي أنها
إذا شبعت فتقل عليها ما أكلت تحيلت في دفعه بأن تجتر فيزداد نعومة ثم تستقبل الشمس
فتحمي بها فيسهل خروجه، فإذا خرج زال الانتفاخ والتخمة فسلمت وهذا بخلاف من لم
تتمكن من ذلك]، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ
الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بَغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ
شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٩)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة)
(١٠) يعني لا تجتمع الرغبة فيها والرغبة في الله والآخرة بها، ولا يسكن هاتان الرغبتان في
محل واحد إلا طردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن، فإن النفس واحدة والقلب
واحد، فإذا اشتغلت بشيء انقطع عن ضده، ولهذا قال روح الله عيسى لا يستقيم حب
الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد (١١) وقال -صلى

الله عليه وسلم:- (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) (١٢)

الهوامش

- (١) رواه الترمذي - كتاب الطب / حديث رقم ٢٠٣٦ ج٤ ص ٣٨١ وقال حسن غريب، والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٦٥٩
- (٢) إحياء علوم الدين - الإمام الغزالي ج ٣ - أول كتاب ذم الدنيا ص ٢٠١ (٣) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ٢ تفسير سورة آل عمران (٤) فيض القدير - المناوي ٤١٥/٢ (٥) رواه البخاري في الرقاق ٦٤٦/١١ فتح، ومسلم أيضا (٦) صيد الخاطر - ابن الجوزي ص ٣٣٤ (٧) رواه البخاري - كتاب المغازي رقم ٣٧١٢ (٨) رواه الحاكم عن ابن مسعود (حسن) ١١٤٦ صحيح الجامع (٩) رواه البخاري - كتاب الزكاة رقم ١٣٧٢ (١٠) رواه أحمد عن أبي مالك الأشعري (صحيح) ٣١٥٥ في صحيح الجامع (١١) فيض القدير المناوي ٥٤٢/١ (١٢) رواه الترمذي عن سهل بن سعد (صحيح) ٥٢٩٢ صحيح الجامع.

إذا سألت فسأل الله

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل أو غنى عاجل) (١)

من أجل مقاصد الشريعة الإسلامية صيانة شخصية المسلم عن التبذل، وحفظ ماء وجهه عن المهانة، وهذا منبثق من عقيدة صافية خالصة تربط المسلم دائما بالله القدير، في السراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره... لأنه تعالى الغني بإطلاق، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، القوي الجامع فالمؤمن في دوحه الإسلام قلبه معلق بالسماء، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، هو تعالى حسبه وعضده ونصيره به يصول وبه يجول وبه يقاتل.

(من أصابته فاقة) أي حاجة شديدة وأكثر استعمالها في الفقر وضيق المعيشة (فأنزلها بالناس) أي عرضها عليهم وأظهرها بطريق الشكاية لهم وطلب إزالة فاقته منهم، وخلاصته أن من اعتمد في سدها على سؤاهاهم (لم تسد فاقته) أي لم تقض حاجته ولم تزل فاقته، وكلما تسد حاجة أصابته أخرى أشد منها، لتركه القادر على حوائج جميع الخلق الذي لا يغلق بابه وقصد من يعجز عن جلب نفع نفسه ودفع ضررها (ومن أنزلها بالله) بأن اعتمد على مولاه (أوشك الله) أي أسرع وعجل (بالغنى) أي اليسار (إما بموت عاجل) قيل بموت قريب له غني فيرثه، ولعل الحديث مقتبس من قوله تعالى: { ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه } [الطلاق: ٢-٣] (أو غنى) أي يسار (عاجل) أي بأن يعطيه مالا ويجعله غنيا (٢)

وسؤال الله تعالى وحسن الالتجاء إليه مع الاستعفاف عن سؤال الناس أصل عظيم من أصول الدين شواهد كثيرة من الكتاب والسنة، قال تعالى { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ { [البقرة: ٢٧٣]

قال المفسرون: {يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ} أي بحالهم {أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ} أي من أجل تعففهم عن السؤال والتلويح به قناعة بما أعطاهم مولاهم ورضا عنه وشرف النفس {تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} بما يظهر لذوي الألباب من صفتهم، قال السدي: هي أثر الفاقة والحاجة في وجوههم وقلة النعمة {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا} الإحاف: الإحاح وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه، وقيل معنى الآية: إن سألوأ سألوا بتلطف ولم يلحوا فيكون النفي متوجها إلى القيد وحده، والصحيح أنه نفي للسؤال والإحاف جميعا فمرجع النفي إلى القيد ومقيدته، كقوله {ولا شفيع يطاع} [غافر: ١٨] وفيه تنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إحفا واستحباب المدح والتعظيم للمتعفف عن ذلك، قال ابن عبد البر: من أحسن ما روي من أجوبة الفقهاء في معاني السؤال وكراهيته ومذهب أهل الورع فيه ما حكاه الأثرم عن أحمد بن حنبل وقد سئل عن المسألة متى تحل؟ قال: إذا لم يكن عنده ما يغديه ويعشيه على حديث سهل بن الحنظلية. قيل لأبي عبد الله: فإن أضر إلى المسألة؟ قال هي مباحة له إذا أضر. قيل له: فإن تعفف؟ قال ذلك خير له، ثم قال: ما أظن أحد يموت من الجوع، الله يأتيه برزقه ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري (ومن يستعفف يعفه الله) وحديث أبي ذر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: (تعفف) (٣)

قال أبو بكر: وسمعتة يُسأل عن الرجل لا يجد شيئا يسأل الناس أم يأكل الميتة؟ فقال: يأكل الميتة وهو يجد من يسأله هذا شنيع، قال: وسمعتة يسأل: هل يسأل الرجل لغيره، قال: لا ولكن يعرض كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين جاءه قوم حفاة عراة مجتايي النمار فقال: (تصدقوا) ولم يقل أعطوهم (٤)، وقال (ألا رجل يتصدق على هذا؟) (٥)

قال أبو بكر: قيل له [يعني أحمد بن حنبل] فالرجل يذكر الرجل فيقول إنه محتاج فقال: هذا تعريض وليس به بأس إنما المسألة أن يقول أعطه، ثم قال: لا يعجبني أن يسأل المرء لنفسه فكيف لغيره والتعريض هنا أحب إلي.

وقال إبراهيم بن أدهم: سؤال الحاجات من الناس هي الحجاب بينك وبين الله تعالى فأنزل حاجتك بمن يملك الضر والنفع وليكن مفرعك إلى الله تعالى يكفيك الله ما سواه وتعيش مسرورا (٦)

وقال -صلى الله عليه وسلم-:

- (ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة ولا اللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف واقربوا إن شئتم يعني قوله {لا يسألون الناس إلحافاً} (٧)

- (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مزعة لحم) (٨)

- (المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك إلا

أن يسأل الرجل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بدا) (٩)

- (من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم قالوا: وما

يغنيه؟ قال: قدر ما يغديه ويعشيه) (١٠)

- (من استغنى أغناه الله ومن استعف أعفه الله ومن استكفى كفاه الله ومن سأل وله

قيمة أوقية فقد ألحف) (١١)

- وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله -

صلى الله عليه وسلم- فأعطاهم ثم سألوهم فأعطاهم حتى إذا نفذ ما عنده قال: (ما يكن

عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر

يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر) (١٢)

يقول ابن الجوزي: لما تلمحت تدبير الصانع في سوق رزقي بتسخير السحاب وإنزال

المطر برفق والبذر دفين تحت الأرض كالموتى قد عفن ينتظر نفخة من صور الحياة فإذا

أصابته اهتز خضراً، وإذا انقطع عنه الماء مد يد الطلب يستعطي وأمال رأسه خاضعاً ولبس

حلل التغير، فهو محتاج إلى ما أنا محتاج إليه من حرارة الشمس وبرودة الماء ولطف النسيم وتربية الأرض، فسبحان من أراني كيف تربيتي في الأصل.

فيا أيتها النفس التي قد اطلعت على بعض حكمه قبيح بك والله الإقبال على غيره، ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك، يناديني لسان حاله «بي مثل ما بك»، فارجعي إلى الأصل الأول واطلبي من المسبب، ويا طوبى لك إن عرفتيه، فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة (١٣)

الهوامش

(١) رواه أبو داود - كتاب الزكاة رقم ١٦٤٢ وأحمد - مسند المكثرين من الصحابة رقم ٣٦٧٥، ورواه الترمذي بنحوه في كتاب الزهد رقم ٢٣٢٦، ورواه الحاكم وقال صحيح وأقره الذهبي، والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع وقال (حسن) حديث ٦٠٤١ في صحيح الجامع (٢) أنظر عون المعبود - كتاب الزكاة - ج ٥ ص ٤٦ ط دار الفكر، وفيض القدير للمناوي ج ٢ ص ١٣٢ (٣) حديث أبي سعيد الخدري: (ومن يستعفف يعفه الله) رواه مسلم - كتاب الزكاة رقم ١٧٤٥ وسيأتي نصه في نهاية المقال، وحديث أبي ذر رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٨١٩ في صحيح الجامع، ونصه: (يا أبا ذر! أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟ تعفف؛ يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبء - يعني القبر - كيف تصنع؟ اصبر؛ يا أبا ذر: أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟ اقعدي في بيتك وأغلق عليك بابك قال: فإن لم أترك؟ قال: فأنت من كنت معه فكن فيهم قال: فأخذ سلاحي؟ قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه ولكن إن خشيت أن يردعك شعاع السيف فألق من طرف رداك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار) (٤) الحديث رواه مسلم - كتاب الزكاة رقم ١٦٩١ (٥) رواه أحمد وأبو داود عن أبي سعيد (صحيح) حديث ٢٦٥٢ في صحيح الجامع. (٦) انظر تفسير القاسمي [محاسن التأويل] ج ٤/٣ ص ٣٥٠ ط دار الفكر، وتفسير القرطبي ج ٢ ص ١٢٦٦ ط دار الغد العربي - مصر (٧) رواه البخاري عن أبي هريرة - كتاب التفسير، ٢ - سورة البقرة، ٤٨ - باب لا يسألون الناس إلحافا (٨) رواه البخاري - كتاب الزكاة رقم ١٣٨١، ومسلم واللفظ له - كتاب الزكاة رقم ١٧٢٤ (٩) رواه أحمد وأبو داود عن سمرة (صحيح) حديث ٦٦٩٥ في صحيح الجامع

(١٠) رواه أحمد وأبو داود عن سهل بن الحنظلية (صحيح) حديث ٦٢٨٠ في صحيح الجامع
(١١) رواه أحمد والنسائي عن أبي سعيد (صحيح) حديث ٦٠٢٧ في صحيح الجامع (١٢) رواه
مسلم - كتاب الزكاة رقم ١٧٤٥ (١٣) صيد الخاطر - ابن الجوزي ص ٨٤ ط دار الحديث القاهرة
بتصرف

ارحم اليتيم

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- رجل يشكو قسوة قلبه فقال -صلى الله عليه وسلم-: (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك) [١]

وجه الله سبحانه وتعالى أنظار المسلمين ومشاعرهم إلى شرائح المجتمع الضعيفة، والتي لا تقوى على القيام بدورها الطبيعي في المجتمع إلا بدعم مساند من جهات أخرى، ولعل على رأس هذه الفئات «شريحة الأيتام»، والتي فيها من الضعف والحاجة إلى العطف والحنان والمساعدة المادية والإنسانية الشيء الكثير، ولقد كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- من أوائل الذين لمسوا آلام اليتيم وأحزانه؛ ولذلك سجّل في حديثه الشريف: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا) [٢]

ومما يلفت النظر أيضا أن الله سبحانه وتعالى ذكر لفظ اليتيم في القرآن الكريم ثلاثاً وعشرين مرة، وفي ذلك إشارة واضحة للمسلمين للانتباه والوقوف وقفة جادة أمام هذه الفئة وأمام احتياجاتها، والمشاكل التي قد تواجهها سواءً أكانت معنوية أم مادية أم اجتماعية أم غير ذلك، وبالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أقسام رئيسة، كلها تدور حول: دفع المضار عنه، وجلب المصالح له في ماله، وفي نفسه، وفي الحالة الزوجية، والحث على الإحسان إليه ومراعاة الجانب النفسي لديه.

قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ} [النساء: ٣٦] فالإحسان إلى اليتيم متعين كما هو للوالدين ولذي القربى، وليس هذا فحسب بل وقرنه رب العزة والجلال بالإيمان به وجعله من أعظم أعمال البر،

فقال جل من قائل: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} [البقرة: ١٧٧]

ولقد تنزلت في حق اليتيم الآيات في أوائل ما تنزل من القرآن المكي كقوله تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ} [الماعون: ١-٣] ومفهوم الآيتين المباركتين، أن الذي يطرد اليتيم، ويحرم اليتيم حقه، هذا هو الذي يكذب بالدين. تعبيراً عن الترابط العميق بين الدين، وبين الاهتمام بشؤون الأيتام، وبين الإيمان وبين الاهتمام بشؤون المتعبين. فلا يمكن أن يبقى الإنسان متديناً ويطرد اليتيم. وقوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [الضحى: ٩].

قال ابن كثير: فلا تقهر اليتيم: أي لا تذله وتنهره وقته، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وكن لليتيم كالأب الرحيم [٣] وقوله تعالى: {فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة} [بلد: ١١-١٥]

وقال تعالى ممتدحا حال الصالحين: {ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً} [الإنسان: ٨] قال القرطبي: أي يطعمون الطعام على قلبه وحبهم إياه وشهوتهم له، وكان الربيع بن خثيم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سكرًا فإن الربيع يحب السكر. وروى منصور عن الحسن أن يتيماً كان يحضر طعام ابن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيم فلم يجده، وجاءه بعد ما فرغ ابن عمر من طعامه فلم يجد الطعام، فدعا له بسويق وعسل فقال: دونك هذا فوالله ما غبنت [٤]

وعلى العكس قال تعالى موجهاً كفار قريش ومن على شاكلتهم: {كلا بل لا تكرمون اليتيم} [الفجر: ١٧] يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: وقد كان الإسلام يواجهه في مكة حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق، تورث القلوب كزازة وقساوة، وكان ضعف اليتامى مغرباً بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث منهم في صور شتى وبخاصة فيما يتعلق بالميراث، كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة في المجتمع المكي قبل الإسلام،

وهي سمة الجاهليات في كل زمان ومكان! حتى الآن، وفي هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم، تنديد بهذا الواقع، وردع عنه، يتمثل في تكرار كلمة (كلا) كما يتمثل في بناء التعبير وإيقاعه، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفة {وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما} [الفجر: ١٩-٢٠] [٥]

كما أمر عز وجل بحفظ أموال الأيتام، وعدم التعرض لها بسوء، وعد ذلك من كبائر الذنوب وعظائم الأمور، ورتب عليه أشد العقاب، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا} [النساء: ١٠]، وقال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٤] وقال تعالى: {وَأَنْ تَقومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ} [النساء: ١٢٧]

وعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- أكل مال اليتيم من السبع الموبقات، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟، قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) [٦]

بل لقد أحاط النظام الإسلامي أوصياء اليتامى بقيود ثقيلة حتى لا تستمرى نفوسهم العدوان على أموالهم دون رابط ولا وازع فقال تعالى مرشدا لهم قوله تعالى: {ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير} [البقرة: ٢٢٠] والأصل أن من تصرف لغيره سواء كان وكيلاً، أو ولياً، أو ناظر وقف أو غير ذلك أن تصرفه تصرف نظر ومصالحة، لا تشبه واختيار لاسيما فيما يتعلق بمال اليتيم، وقال تعالى: {وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} واتفق العلماء على أن الوصي الغني لا يحل له أن يأكل من مال اليتيم شيئاً، وقالوا: معنى قوله: فَلْيَسْتَعْفِفْ أي: بمال نفسه عن مال اليتيم، فإن كان فقيراً أكل منه بالمعروف.

واستمراراً لحرص التشريع الإسلامي على أموال اليتامى، أمر باستثمارها وتنميتها حتى

لا تستنفدها النفقة عليهم والزكاة الواجبة فيها، فقال-صلى الله عليه وسلم-: (ألا من ربي يتيماً له مال فليتجر به، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة) [٧]

كما ورد عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: (اتجروا في مال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة)، ومن هنا يلزم الولي على مال اليتيم استثمارها لمصلحة اليتيم على رأي كثير من أهل العلم بشرط عدم تعريضها للأخطار.

قال المناوي: قوله -صلى الله عليه وسلم-: (وتدرك حاجتك) أي فإنك إن أحسنت إليه وفعلت ما ذكر يحصل لك لين القلب وتظفر بالبغيه، وفيه حث على الإحسان إلى اليتيم ومعاملته بمزيد الرعاية والتعظيم وإكرامه لله تعالى خالصاً، قال الطيبي: وهو عام في كل يتيم سواء كان عنده أو لا فيكرمه وهو كافله، أما إذا كان عنده فيلزمه أن يربيه تربية أبيه ولا يقتصر على الشفقة عليه والتلطف به ويؤدبه أحسن تأديب ويعلمه أحسن تعليم ويراعي غبطته في ماله وتزويجه، وفيه أن مسح رأسه سبب مخلص من قسوة القلب المبعدة عن الرب فإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي كما ورد في عدة أخبار، قال الزين العراقي: لكن قيده في حديث أبي أمامة بأن لا يمسه إلا لله، قال: ولا شك في تقييد إطلاق المسح به لأنه قد يقع مسحه لريبة كأمرد جميل يريد مؤانسته بذلك لريبة كشهوة، وإن لم يكن مسح الشعر مفضياً إلى الشهوة فرما دعا إلى ذلك. وفيه أن من ابتلي بداء من الأخلاق الذميمة يكون تداركه بما يضاده من الدواء، فالتكبر يداوى بالتواضع، والبخل بالسماحة، وقسوة القلب بالتعطف والرقوة [٨]

الهوامش

[١] رواه الطبراني ورواه أيضاً الإمام أحمد بسند قال الهيتمي تبعاً لشيخه الزين العراقي صحيح والحديث صححه الألباني وقال (صحيح) انظر حديث رقم: ٨٠ في صحيح الجامع. [٢] صحيح البخاري مع الفتح / كتاب الأدب / باب فضل من يعول يتيماً: ٤٥٠/١٠ ح (٦٠٠٥) [٣] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤، ص ٥٢٣ [٤] تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن - تفسير سورة الإنسان بتصرف [٥] في ظلال القرآن - سيد قطب ص ٣٩٠٦ [٦] صحيح البخاري، باب الوصايا،

حديث رقم ٢٦١٥ [٧] سنن أبي داود، باب الزكاة، حديث رقم ٦٤١ [٨] فيض القدير للمناوي
٤٥٦/٢

أفئدتهم مثل أفئدة الطير

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يدخل الجنة أقوام، أفئدتهم مثل أفئدة الطير)

** دخولهم الجنة يُشعر أن هؤلاء إنما دخلوها بسبب ما تميزوا به من هذه الصفة، وهي أن أفئدتهم مثل أفئدة الطير.

** الفؤاد هو القلب على الأشهر من كلام أهل العلم، وإنما قيل له الفؤاد لكثرة نفوذه، أي: توقده بالمعاني والخواطر والأفكار، فهو لا يتوقف، ويقال له القلب قيل: لأنه كثير التقلب، فهو أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً
** قوله (أَفئدَتُهُمْ مِثْلُ أَفئدَةِ الطَّيْرِ) فيها ثلاثة وجوه:

١ / الوجه الأول:

قلوبهم مثل أفئدة الطير في «التوكل»؛ فهم في توكلهم على الله مثل الطير التي هي أعظم المخلوقات توكلت على الله، تجده يخرج في الصحراء لا يدري هل يلقي حباً أو لا، فيلقى حباً، ويملاً الله بطنه طعاماً بدون حيلة، كما جاء في الحديث: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايِنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

٢ / الوجه الثاني:

قلوبهم مثل أفئدة الطير في «رقتها وضعفها»، كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوباً وأرق أفئدة، الفقه يمان والحكمة يمانية) [صحيح البخاري].

وأيضاً قلوبهم مثل أفئدة الطير في «الخوف والهيبة»، والطير أكثر الحيوانات خوفاً وحذراً، فهم قوم رقت قلوبهم فأشتد خوفهم من الآخرة وزاد على المقدار، فشبهم بالطير التي تفرع من كل شيء وتخافه، ويؤيد هذا عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]

// وقد جاء عن جماعات من السلف هذا الوصف من غلبة الخوف عليهم، فأفئدة هؤلاء مما حل بها من هيبة الحق وخوف جلال الله وسلطانه لا تطيق حبس شيء يبدو من آثار القدرة؛ ألا ترى أن المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- كان إذا رأى شيئاً من آثارها؛ كغمام فزع، فإذا أمطرت سرى عنه.

// وسمع إبراهيم بن أدهم قائلاً يقول: "كل ذنب مغفور سوى الإعراض عنا"؛ فسقط مغمى عليه.

// وسمى علي بن الفضيل قتيلاً القرآن.

فعن محمد بن بشر المكي قال: كنا يوماً ماضين مع علي بن الفضيل فمررتنا بمجلس بني الحارث المخزومي ومعلم يعلم الصبيان قال: "ويقرأ {ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى} فشهِق ابن فضيل شهقة خرمغشياً عليه فجاء الفضيل فقال: بأبي قتيلاً القرآن ثم حمل فحدثني بعض من حملته أن الفضيل أخبره أن علياً ابنه لم يصل ذلك اليوم الظهر ولا العصر، ولا المغرب ولا العشاء فلما كان في جوف الليل أفاق "

٣/ الوجه الثالث:

قلوبهم مثل أفئدة الطير في «الرقّة واللين والرحمة والصفاء، والحلوة من الحسد والحقد والغل والبغضاء». لكونها خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب.

// قال ابن هبيرة: "هؤلاء القوم كانت قلوبهم على مثل قلوب الطير؛ رقة لخلق الله، ورحمة لعباده، وشفقة على المسلمين".

// وعن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،
قال: (إنما يرحم الله من عباده الرُحَمَاء) [البخاري ومسلم]

// وعن عِيَاض بن حَمَار المَجَاشِعِي -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه
وسلم-، قال: (وأهل الجنة ثلاثة:

- ذو سلطان مُقْسِط، متصدق، مُوَقَّق.

- ورجل رحيم، رقيق القلب، لكل ذي قُرْبِي ومسلم.

- وعفيف، مُتَعَفِّف، ذو عيال) [مسلم]

// وعن قُورَة بن إِيَّاس المُرِّيّ -رضي الله عنه- أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لأذبح
الشاة، وأنا أرحمها أو قال: إني لأرحم الشاة أن أذبحها؟

فقال: (والشاة إن رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ. والشاة إن رحمتها رحمتك الله) [رواه أحمد في

"مسنده"، وإسناده صحيح]

** والمعنى: أنها قلوب ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع
التذكير، سالمة من الشدة والقسوة والغلظة.

** والشاهد من ذلك بيان أن هناك علاقة بين الرقة والإيمان والحكمة والفقه، وهذه
الرقة النابعة من الإيمان سمات كثيرة، وهي تشمل كل المؤمنين -رجالاً ونساءً، وشباباً
وأطفالاً- وهي:

// سرعة التأثر وسرعان ما تذرف العين.

// سرعة الاستجابة للحق.

// سرعة الاتعاظ والتذكير، وكُره الظلم بشدة.

// التفاعل مع مَنْ حوله، والاهتمام بمشاعرهم فرحاً وحرناً.

// التفكير في الآخرين، فإذا عجز عن مدِّ يد العون، فلا أقل من أن يحمل همَّهم في قلبه وعقله.

** وهذه الصفات العامة التي يتَّسم بها أصحاب القلوب الرقيقة - والتي هي كأفئدة الطير - لها ضوابط، ومن أبرزها:

// لين من غير ضَعْف، وقوة من غير عنف؛ أي: هيبة أو حزم من غير شدة، ثقة بالنفس من غير غرور أو تكبُّر.

// أن يحب ويبغض ويعطي ويمنع لله.

// ردود أفعاله ينبغي أن تكون متزنة دون إفراط أو تفريط، وَفَقًا للضوابط الشرعية، كذلك من أعظم المعاني في هذا الحديث أن صفة التوكل من أعظم ما نتعلَّمه من الطير؛ فالطير تحقق التوكل الكامل والصادق، فلا أسباب لها تعتمد عليها إلا السعي، والله أعلم.

ألا أخبركم بخيركم من شركم

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقف على أناس جلوس فقال: (ألا أخبركم بخيركم من شركم؟) قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا، قال: (خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره) (١)

أجمل ما في الدنيا أن تألف وتؤلف، وتحب وتُحب، فإذا أمت بك شدة وجدت القاصي والداني والقريب والغريب حولك.. حبا لا تملقا، ومشاركة لا عطفًا، ومودة لا شفقة، وهذا المنهج هو ما حرص على ترسيخه الإسلام ليجعل من المجتمع نسيجًا فريدا رائعا، فلما كان المعنى الجامع بين المسلمين الإسلام، فقد اكتسبوا به أخوة أصيلة ووجب عليهم بذلك حقوق لبعضهم على بعض، وكلما ازدادت المخالطة وصفا زادت الحقوق، مثل القرابة والمجاورة والضيافة والصحبة والصدقة والأخوة الخاصة في الله عز وجل.

(خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره) أي من يؤمل الناس الخير من جهته، ويأمنون الشر من جهته (وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره) أي وشركم من لا يؤمل الناس حصول الخير لهم من جهته، ولا يأمنون من شره، وإنما يرجى خير من عرف بفعل الخير وشهرته به، ومن غلب خيره أمنت القلوب من شره، ومتى قوي الإيمان في قلب عبد رجي خيره وأمن شره، ومتى ضعف قل خيره وغلب شره.

قال الماوردي: يشير بهذا الحديث إلى أن عدل الإنسان مع أكفائه واجب وذلك يكون بثلاثة أشياء: ترك الاستطالة، ومجانبة الإذلال، وكف الأذى، لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإذلال أعطف، وكف الأذى أنصف.

وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا (٢)،
وقول راوي الحديث: (فقال ذلك ثلاث مرات) لما توهموا معنى التمييز تخوفوا من الفضيحة
فسكتوا حتى قالها ثلاثاً فأبرز البيان في معرض العموم لئلا يفتضحوا.
وهذا الحديث الجليل أصل في المروءة مع الخلق، وذلك بأن يستعمل معهم شروط
الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه، وليتخذ الناس
مرآة لنفسه، فكل ما كرهه ونفر عنه من قول أو فعل أو خلق فليجتنبه، وما أحبه من ذلك
واستحسنه فليفعله.

وروضة السنة الغناء طالما دندنت حول هذا المعنى السامي فقال -صلى الله عليه
وسلم-: (خير الناس أحسنهم خلقاً) (٣) أي مع الخلق بالبشر والتودد والشفقة والحلم
عنهم والصبر عليهم وترك التكبر والاستطالة ومجانبة الغلظة والغضب والحقد والحسد وأصل
ذلك غريزي وكماله مكتسب (٤)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس أنفعهم للناس) (٥) بالإحسان إليهم
بماله وجاهه، فإنهم عباد الله وعباله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله، أي أشرفهم عنده أكثرهم
نفعاً للناس بنعمة يسديها أو نقمة يزويها عنهم ديناً أو دنيا، ومنافع الدين أشرف قدراً
وأبقى نفعاً، قال بعضهم: هذا يفيد أن الإمام العادل خير الناس أي بعد الأنبياء، لأن
الأمور التي يعم نفعها ويعظم وقعها لا يقوم بها غيره، وبه نفع العباد والبلاد، وهو القائم
بمخالفة النبوة في إصلاح الخلق ودعائهم إلى الحق وإقامة دينهم وتقويم أودهم ولولاه لم يكن
علم ولا عمل.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (أحب العباد إلى الله تعالى أنفعهم لعياله) (٦) قال
القاضي: ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل فرائضه، ومحبة الله تعالى للعبد
إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعصية، وفي الحديث رد على من رفض الدنيا
بالكلية من النساك وترك الناس وتخفى للعبادة محتجاً بآية: {وما خلقت الجن والإنس إلا

ليعبدون} [الذاريات: ٥٦] وخفي عليه أن أعظم عبادة الله ما يكون نفعها عائداً لمصالح عباده.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس) (٧) قال الماوردي: بين به أن الإنسان لا يصلح حاله إلا الألفة الجامعة، فإنه مقصود بالأذية، محسود بالنعمة، فإذا لم يكن ألفاً مألوفاً تحتطفه أيدي حاسديه، وتحكم فيه أهواء أعاديته، فلم تسلم له نعمة، ولم تصف له مدة وإذا كان ألفاً مألوفاً انتصر بالألف على أعاديته، وامتنع بهم من حساده، فسلمت نعمته منهم، وصفت مودته بينهم، وإن كان صفو الزمان كدرأً ويسره عسراً وسلمه خطر، والعرب تقول من قل ذل (٨)

وقال أبو حاتم: لا يجب على العاقل أن يكافئ الشر بمثله، وأن يتخذ اللعن والشتيم على عدوه سلاحاً، إذ لا يستعان على العدو بمثل إصلاح العيوب وتحصين العورات حتى لا يجد العدو إليه سبيلاً (٩)

ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم-: (إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء فحشه) (١٠) أي لأجل قبح فعله وقوله، أو لأجل اتقاء فحشه أي مجاوزة الحد الشرعي قولاً أو فعلاً، وهذا أصل في ندب المداراة إذا ترتب عليها دفع ضرر أو جلب نفع، بخلاف المداهنة فحرام مطلقاً إذ هي بذل الدين لصالح الدنيا، والمداراة بذل الدنيا لصالح دين أو دنيا، بنحو: رفق بجاهل في تعليم، وبفاسق في نهي عن منكر، وتركه إغلاظ وتألف ونحوها مطلوبة محبوبة إن ترتب عليها نفع، فإن لم يترتب عليها نفع بأن لم يتق شره بها كما هو معروف في بعض الأنام فلا تشرع، فما كل حال يعذر ولا كل ذنب يغفر، وقال بعضهم: أخذ من هذا الخبر أن ملازمة الرجل الشر والفحش حتى يخشاه الناس اتقاء لشره من الكبائر (١١)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) (١٢) أي دواهيته جمع بائقة الداهية، وجاء في حديث تفسيرها بالشر وهو تفسير بالأعم، زاد في رواية،

قالوا: وما بوائقه، قال: شره، وذلك لأنه إذا كان مضراً لجاره كان كاشفاً لعورته حريصاً على إنزال البوائق به دل حاله على فساد عقيدته ونفاق طويته، أو على امتهانه ما عظم الله حرمة وأكده وصلته، فإصراره على هذه الكبيرة مظنة حلول الكفر به فإن المعاصي بريده، ومن ختم له بالكفر لا يدخلها، أو هو في المستحل أو المراد اللجنة المعدة لمن قام بحق جاره، قال ابن أبي جمرة: حفظ الجار من كمال الإيمان وكان أهل الجاهلية يحافظون عليه، ويحصل امتثال الوصية به بإيصال ضروب الإحسان بقدر الطاقة كهدية وسلام وطلاقة وجه وتفقد حال ومعاونة وغير ذلك، وكف أسباب الأذى الحسية والمعنوية عنه وتتفاوت مراتب ذلك بالنسبة للجار الصالح وغيره (١٣)

الهوامش

- (١) رواه الترمذي - كتاب الفتن رقم ٢١٨٩ وقال حديث حسن صحيح، ورواه أحمد - باقي مسند المكثرين من الصحابة رقم ٨٤٥٦، ورواه القضاعي في مسند الشهاب ٢/٢٢٨ رقم ١٢٤٦، وابن حبان ٢/٢٨٥ رقم ٥٢٧ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع) انظر حديث رقم: ٢٦٠٣ في صحيح الجامع، وقال المناوي في فيض القدير ٢/٥١٤ قال الذهبي في المذهب: سنده جيد وفي الباب أنس وغيره. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٥٤١: رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح والحديث رواه أيضا أبو يعلى في مسنده عن أنس ٧/١٦ رقم ٣٩١٠ وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/٩١ عن سعيد المقبري رقم ٣٤٤٣٠
- (٢) فيض القدير للمناوي ١/٤٥٢ بتصرف (٣) رواه الطبراني عن ابن عمر (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٢٨٧ في صحيح الجامع. (٤) فيض القدير ٢/٤٦٥١ (٥) رواه القضاعي في مسند الشهاب عن جابر (حسن) انظر حديث رقم: ٣٢٨٩ في صحيح الجامع. (٦) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد عن الحسن مرسلا (حسن) انظر حديث رقم: ١٧٢ في صحيح الجامع. (٧) رواه الضياء في الأحاديث المختارة عن جابر (حسن) انظر حديث رقم: ٦٦٦٢ في صحيح الجامع. (٨) فيض القدير ٢/٨٩٧ (٩) روضة العقلاء - أبي حاتم بن حبان / مكتبة السنة المحمدية ص ١٠٠ (١٠) رواه أبو داود والترمذي عن عائشة (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٠٩٥ في صحيح الجامع. (١١) فيض القدير ١/٣٥٦ (١٢) رواه مسلم عن أبي هريرة - كتاب الإيمان رقم ٦٦ (١٣) فيض القدير ٢/٤٥٧

الاستغفار المضاعف

عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم- (من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة) [١]

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [٢] (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) [٣] (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [٤] ... بهذه المبادئ السامية كان يعيش النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أصحابه هادياً ومعلماً ومرشداً ومؤسساً لأعظم وأطهر حضارة في التاريخ.

إنه الإسلام الذي ربط الموحدتين في شتى البقاع والعصور بسياج من التكافل والتآزر والمحبة حتى صاروا على اختلاف لغاتهم وألوانهم وطبقاتهم كيان واحد يجمع الحب كل ذرة من ذراته، وحتى صار لا صلاح للمؤمن إلا بصلاح إخوانه ولا نجاة له إلا بنجاتهم، فصاروا من هذا المنطلق كنفس واحدة يحنو بعضهم على بعض ويستغفر بعضهم لبعض.

قال تعالى: {واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} [محمد: ١٩].

وقال تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم: ٤١].

وقال تعالى: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا

تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح: ٢٨]

ودعاء نوح -صلى الله عليه وسلم- لوالديه هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين - كما نفهم من هذا الدعاء - ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين، ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً هو بر المؤمن بالمؤمن، وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصص المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة، ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين

والمؤمنات هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان. وشعوره بأصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن. وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق، على تباعد الزمان والمكان. السر الذي أودعه الله في هذه العقيدة وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة [٥]

قال المناوي: (من استغفر) الله (للمؤمنين والمؤمنات) بأي صفة كانت، وورد في ذلك صيغ بألفاظ متقاربة (كتب الله له) أي أمر الله الحفظة أن تكتب له في صحيفته (بكل مؤمن ومؤمنة حسنة)، قال علي -كرم الله وجهه-: العجب ممن يهلك ومعه النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار.

وقال بعضهم: العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الاستغفار.

وقال بعض العارفين لآخر: أوصني. قال: ما أدري ما أقول، غير أنك لا تفتقر عن الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا الذنب إلا بالتوبة والاستغفار [٦]

ولا تعجب من بساطة العمل وعظم الأجر وتظن أن هذا من المبالغات! فأنت تتعامل مع ملك الملوك -سبحانه وتعالى- الكريم الجواد الوهاب الذي يعطي من يشاء بغير حساب، ولكن أعجب من غفلة الناس عن مثل هذه الأجور العظيمة. وهذا الحديث يعطينا دروسا كثيرة وعظيمة أهمها:

(أولا): عمق رابطة الأخوة الإيمانية بين المسلمين. فالإسلام يحث كل المسلمين أن يدعوا بعضهم لبعض في ظهر الغيب، الأمر الذي قد لا نجده في دين آخر، ومتى استشعر المسلم ذلك، زالت الأحقاد التي يثيرها الشيطان في النفوس بين آونة وأخرى.

(ثانيا): إن الذي يحتجز الدعاء لنفسه ولا يذكر إلا ذاته ويتناسى إخوانه المسلمين إنسانا أنانيا قد حرم نفسه من كثير من الخير والحسنات.

(ثالثا): من دعا لأخيه بظهر الغيب، ضمن الإجابة من الله تعال بإذن الله لما رواه صفوان -رضي الله عنه- قال: قدمت الشام فأتيت أبا الدرداء في منزله فلم أجده ووجدت

أم الدرداء فقالت: أتريد الحج العام؟ فقلت: نعم. قالت فادع الله لنا بخير فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل» [رواه مسلم]

وعن أم الدرداء -رضي الله عنها- قالت: كان لأبي الدرداء ستون وثلاثمائة خليل في الله يدعو لهم في الصلاة فقلت له في ذلك، فقال: إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب إلا وكل الله به ملكين يقولان: ولك بمثل.

وروت أيضا أنها قالت: بات أبو الدرداء ليلة يصلي فجعل يبكي ويقول: اللهم أحسن خُلقي فأحسن خُلقي حتى أصبح. فقلت يا أبا الدرداء ما كان دعاؤك منذ الليلة إلا في حسن الخلق؟ قال: يا أم الدرداء إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة، ويسوء خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار، وإن العبد المسلم ليغفر له وهو نائم، قلت: وكيف ذاك يا أبا الدرداء؟ قال: يقوم أخوه من الليل فيتهجد فيدعو الله فيستجيب له ويدعو لأخيه فيستجيب له.

وكان لحمدون الدلال صحيفة مكتوب فيها ثلاثمائة من أصدقائهن وكان يدعو لهم كل ليلة. فتركهم ليلة فنام، فقيل له في نومه: يا أبا حمدون لم تسرح مصابيحك الليلة؟ فقعد وأسرج وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتى فرغ.

والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات سنة ملائكية، والتشبه بأهل الفضل فلاح، قال تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن، والملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم} [الشورى: ٥].

أي: والملائكة ينزهون خالقهم عن كل ما لا يليق بجلاله وبكماله، ويطلبون للمؤمنين من أهل الأرض، عفوه ورحمته بهم، لأنه وحده هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده.

وقال تعالى: {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما، فاغفر للذين تابوا واتبعوا

سبيلك وقهم عذاب الجحيم, ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم, ومن صلح من آبائهم
وأزواجهم وذرياتهم, إنك أنت العزيز الحكيم, وقهم السيئات, ومن تق السيئات يومئذ فقد
رحمته, وذلك هو الفوز العظيم} [غافر ٧-٩]

الهوامش

[١] رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢١٠ بإسناده جيد، ورواه الطبراني (حسن) انظر حديث رقم:
٦٠٢٦ في صحيح الجامع. للسيوطي بتحقيق الألباني [٢] رواه أحمد والترمذي عن
أنس (صحيح) حديث رقم: ٧٥٨٣ في صحيح الجامع [٣] رواه الترمذي عن أبي موسى (صحيح)
حديث رقم: ٦٦٥٤ في صحيح الجامع. [٤] رواه مسلم عن النعمان بن بشير [٥] في ظلال القرآن
لسيد قطب ج ٦ ص ٣٧١٨ بتصرف [٦] فيض القدير للمناوي ٥٢/٢

الاستئذان صون للحرمات

عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: (من ذا؟) فقلت: أنا، فقال (أنا، أنا) كأنه كرهها (١)

ضمن الإسلام حق الفرد في ملك رقبته، وأن يعيش فيه آمنة مطمئنا، محفوظا من تطفل المتطفلين، وفضول الفضوليين، وعدوان الصائلين، حيث يلقي أعباء الحذر، ويتحرر من قيود التكلف، وحجر على الآخرين أن يطلعوا على ما فيه من خارج أو يلجوه من غير إذن صاحبه.. إن البيت كالحرم الآمن لأهله لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنه في الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يجبون أن يلقوا عليها الناس، ولا يحل لأحد أن يتطفل على الحياة الخاصة للأفراد بالاستتاء أو التجسس أو اقتحام الدور، ولو بالنظر من قريب أو بعيد بمنظار أو بدونه (٢)

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون} [النور: ٢٧] ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس وهو تعبير يوحي بلطف الاستئذان، ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق، فتحدث في نفوس أهل البيت أنسا به واستعدادا لاستقباله، وهي لفظة دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم وما يلبسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ويخرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار (٣)

والاستئذان واجب وجوب الفرائض، ولا يجوز لأحد أن يدخل بيتا لغيره حتى يستأذن أهله سواء كان المستأذن قريبا للمستأذن عليه أو أجنبيا عنه، وهو مجمع على وجوبه فمن ترك الاستئذان فهو عاص لله تعالى ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- ومن جحدته فإنه يكفر لأنه ورد الأمر به في الكتاب الكريم (٤)

والأصل في الاستئذان أن يكون باللفظ وصيغته المثلى أن يقول المستأذن «السلام عليكم، أَدْخِلْ؟» فيجمع بين السلام والاستئذان.

فعن ربيعي بن حراش قال: حدثنا رجل من بني عامر قال: إنه استأذن على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في بيت فقال أَلْجُ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لخادمه: (اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم أَدْخِلْ؟) فسمع الرجل ذلك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: السلام عليكم أَدْخِلْ؟ فأذن له فدخل (٥)

وروى مطرف عن مالك أن زيد بن أسلم استأذن على ابن عمر فقال: (أَلْجُ؟) فأذن له ابن عمر، قال زيد: فلما قضيت حاجتي أقبل علي ابن عمر فقال: مالك واستئذان العرب؟ إذا استأذنت فقل: (السلام عليكم) فإذا رد عليك السلام فقل: (أَدْخِلْ) فإن أذن لك فادخل (٦)

وينبغي أن يكون الاستئذان ثلاث مرات يقول المستأذن في كل مرة «السلام عليكم أَدْخِلْ؟» فإن لم يؤذن له في الثالثة فليرجع ولا يزد على الثلاث، وهذا لا ينبغي أن يختلف فيه لثبوتها عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ثبوتاً لا مطعن فيه.

فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كنت جالسا بالمدينة في مجلس الأنصار. فأتانا أبو موسى فزعا أو مذعورا. قلنا: ما شأنك؟ قال: إن عمر أرسل إلى أن آتية. فأتيت بابه فسلمت ثلاثا فلم يرد علي. فرجعت فقال: ما منعك أن تأتينا؟ فقلت: إني أتيت. فسلمت علي بابك ثلاثا. فلم يردوا علي. فرجعت. وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له، فليرجع) فقال عمر: أقم عليه البينة. وإلا أوجعتك. فقال أبي بن كعب: لا يقوم معه إلا أصغر القوم. قال أبو سعيد: قلت: أنا أصغر القوم. قال: فاذهب به (٧)

والمستأذن إذا قال له رب المنزل: (من أنت؟) فلا يجوز له أن يقول: (أنا) بل يفصح باسمه وكنيته إن كان مشهورا بها، كما في حديثنا الجليل، فالرسول - صلى الله عليه وسلم -

كره رد جابر -رضي الله عنه- ب (أنا) لأنه أجاب بغير ما يفيد علم ما سأل عنه، وليس فيه بيان شاف ولا فائدة تذكر، قال النووي: ولا بأس بقوله أنا أبو فلان أو القاضي فلان أو الشيخ فلان إذا لم يحصل التعريف بالاسم لخفائه (٨)

وعلى هذا ينبغي لكل مؤمن منقاد لحكم الله عز وجل ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يعرف أن الشريعة السمحة قد أعطت بهذا التشريع رب البيت الحق في أن يتعرف على شخصية المستأذن بصورة واضحة لا لبس فيها ولا تعريض ولا التواء، حتى يبيني على ذلك: هل يأذن له بدخول بيته أم لا؟ لأنه ربما تسمح ظروفه باستقبال شخص دون آخر، تبعا لاعتبارات عدة، فتحقيقا لهذه المصلحة ينبغي أن يجيب من قيل له (من؟) بجواب مطابق للسؤال بأن يقول (فلان) لا كما يفعله من غابت عنهم الآداب الشرعية، بل الحقائق اللغوية، فيقول في جواب (من؟) (هل فلان موجود؟) فإن السؤال لا يجاب بسؤال (٩)

ومن المواقف الطريفة في توييح من يجيب ب (أنا) ما حدث مع الإمام المحدث أبو نعيم الفضل بن دكين وكان رحمه الله ذا دعابة حيث دق رجل عليه الباب، فقال أبو نعيم: (من ذا؟)، قال: (أنا)، قال: (من أنا؟)، قال: (رجل من ولد آدم)، فخرج إليه أبو نعيم وقبله وقال: (مرحبا وأهلا، ما ظننت أنه بقي من هذا النسل أحد) (١٠)

ومن آداب الاستئذان ألا يقف المستأذن قبالة الباب مستقبلا إياه، ولكن يقف بجانب وينحرف جاعلا الباب عن يمينه أو يساره، والمقصود أن يقف على صفة لا يطلع معها على داخل البيت في إقباله وإدباره، فعن عبد الله بن بسر قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: (السلام عليكم السلام عليكم) وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور (١١)

وأخيرا قد يأتي اعتذار صاحب البيت عن الإذن بدخوله ضمنيا أو صريحا، وقد دل قوله تعالى: { فإن لم تجدوا فيها أحد } [النور: ٢٨] على حالة الاعتذار الضمني، فرمما كان في البيت صاحبه لكنه لم يشأ أن يرد على المستأذن، فيصدق على المستأذن أنه لم يجد فيها

أحد، لأنه تعالى نفى الوجدان ولم ينف الوجود ولو قال: (فإن لم يكن فيها أحد) لما كان هذا المنزع اللطيف والسر الدقيق، ودل على الاعتذار الصريح قوله تعالى: { وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم } [النور: ٢٨]، فإذا استأذن شخص وأجيب بقول صاحب الدار (ارجعوا) فالواجب الانصراف فوراً وهو على يقين أن هذا أفضل له، لأن ما قال الله إنه أزكى لنا لا شك أن لنا فيه خيراً وأجراً.

الهوامش

(١) رواه البخاري - كتاب الاستئذان - باب إذا قال من ذا فقال أنا رقم ٥٧٨١، ومسلم - كتاب الآداب - باب كراهة قول المستأذن أنا إذا قيل من ذا رقم ٤٠١١ (٢) الأدب الضائع - محمد بن إسماعيل / الدار السلفية بالإسكندرية (٣) في ظلال القرآن ٢٥٠٨ (٤) انظر كفاية الطالب الرباني وحاشية العدوي ٤٣٩/٢ - ٤٤٠

(٥) صحيح الأدب المفرد ص ٤١٨ - ٤١٩ وأيضاً صححه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم: ٤٣٩٧ في صحيح الجامع والحديث أبو داود ٥١٦٨ أبواب النوم - باب كيفية الاستئذان، ورواه أحمد ٣٦٩/٥ وقال الحافظ في الفتح ٣/١١ سنده جيد وقال صححه الدارقطني (٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٨٣/١٠) وابن أبي شيبة في مصنفه ٦٠٨/٨ (٧) رواه مسلم - كتاب الآداب رقم ٥٤٣٥ (٨) شرح النووي لمسلم ١٣٥/١٤ - ١٣٦ (٩) الأدب الضائع - محمد بن إسماعيل / الدار السلفية بالإسكندرية ص ٦٢ (١٠) سير أعلام النبلاء - الذهبي ١٥٤/١٠ (١١) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم ١٠٨٢ وأبو داود ٥١٨٦ وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص ٤١٧ رقم ٨٢٢

هلاک أمتي

روى الإمام أحمد عن عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِنِّي أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اثْنَتَيْنِ: الْقُرْآنَ وَاللَّبْنَ، أَمَّا اللَّبْنُ فَيَتَّبِعُونَ الرَّيْفَ [البادية] وَيَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَيَتْرُكُونَ الصَّلَوَاتِ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَيَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُونَ فَيُجَادِلُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ) [حسن]

** فليس اللبن في ذاته ولا القرآن هو محل الخوف والضرر، وإنما عبّر بهما عن الشيء المتعلق بهما مجازاً.

وفيه التحذير من اتباع الشهوات والملذات وترك صلاة الجمعة والجماعات، وأن المنافق يتعلم القرآن ليجادل به المؤمنين، وقد قال عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "يهدم الإسلام زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين".

** وفي رواية لأحمد: قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (هَلَاكُ أُمَّتِي فِي الْكِتَابِ وَاللَّبَنِ!) قَالُوا: مَا الْكِتَابُ وَاللَّبْنُ؟ قَالَ: (يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ، فَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُحِبُّونَ اللَّبْنَ فَيَتْرُكُونَ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعَ وَيُبْدُونَ) أي يخرجون إلى البوادي، فاللبن رمزية لأصحاب الشهوات والمنغمسين في الدنيا، وانعقاد القلب عليها، وتقديم اللذات على الواجبات.

** وفي رواية لأحمد فيها ضعف: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْكِتَابِ؟ قَالَ: (يَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُونَ ثُمَّ يُجَادِلُونَ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا) فَقِيلَ: وَمَا بَالُ اللَّبَنِ؟ قَالَ: (أُنَاسٌ يُحِبُّونَ اللَّبْنَ فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْجَمَاعَاتِ وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ) فالأول ضيع دينه رأياً، والثاني ضيع دينه سلوكاً.

** وفي حديث به ضعف رواه الإمام أحمد عن حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَتَّخِذُ أَحَدُكُمْ السَّائِمَةَ [حيوان الرعي] فَيَشْهَدُ

الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، فَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ سَائِمَتُهُ فَيَقُولُ: لَوْ طَلَبْتُ لِسَائِمَتِي مَكَانًا هُوَ أَكْلًا مِنْ هَذَا، فَيَتَحَوَّلُ وَلَا يَشْهَدُ إِلَّا الْجُمُعَةَ، فَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ سَائِمَتُهُ، فَيَقُولُ: لَوْ طَلَبْتُ لِسَائِمَتِي مَكَانًا هُوَ أَكْلًا مِنْ هَذَا، فَيَتَحَوَّلُ فَلَا يَشْهَدُ الْجُمُعَةَ وَلَا الْجَمَاعَةَ، فَيُطَبِّعُ عَلَى قَلْبِهِ

قال في الجمع: رواه أحمد والطبراني في الكبير بمعناه وقال: (حتى لا يشهد جمعة، ولا

يدري ما يوم الجمعة)

** وروى مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَأَبَا هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ عَلَى أَعْوَادٍ مِنْبَرِهِ: (لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ)

** وروى أحمد عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَارٍ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ).

** وروى أبو يعلى بسند حسن عن أسامة بن زيد قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (من

ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين)

** وروى أبو داود في حديث ضعفه أهل العلم عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ فَلْيَتَصَدَّقْ بِدِينَارٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِنَصْفِ دِينَارٍ) قال البخاري: لا يصح.

الجدال بالقرآن

** ترجم ابن عبد البر لهذا الحديث بقوله: «باب فيمن تأول القرآن أو تدبره وهو

جاهل بالسنة».

ثم قال تحتها: "أهل البدع أجمع أضربوا عن السنن، وتأولوا الكتاب على غير ما بينت

السنة، فضلوا وأضلوا. نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله التوفيق والعصمة".

ومن ضلالهم تغافلهم عن قوله تعالى موجهًا إلى نبيه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { وَأَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل: ٤٤]

إذا بيان معاني القرآن يجب أن تستمد في مجملها من النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -،
ومن استقى هذا العلم من أصحاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فسيبيل السلامة وسبيل
النجاة للأمة بأن يعتصموا بالقرآن والسنة على ما كان عليه أصحاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

** روى الترمذي وأبو داود حديث فيه ضعف عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -
قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ
النَّارِ). ومع ذلك فقد حسنه الترمذي وصححه ابن القطان.

** وروى الترمذي حديث فيه ضعف عن جُنْدَبٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ رَسُولُ اللهِ -
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ)

قال الترمذي: وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وغيرهم، أَنَّهُمْ شَدَّدُوا فِي هَذَا فِي أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَأَمَّا الَّذِي رُوِيَ عَنْ
مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ، فَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي
الْقُرْآنِ أَوْ فَسَّرُوهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَوْ مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَا، أَنَّهُمْ
لَمْ يَقُولُوا مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»

وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ سَمِعْتُ فِيهَا شَيْئًا»

وقال مجاهد: «لَوْ كُنْتُ قَرَأْتُ قِرَاءَةَ ابْنِ مَسْعُودٍ لَمْ أَحْتَجْ أَنْ أَسْأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ كَثِيرٍ
مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا سَأَلْتُ»

** فلا بد للمفسر أن يستجمع آلات التفسير من العلم بالسنة وأقوال الصحابة
والتابعين ومن تبعهم من العلماء الربانيين، والعلم بقواعد اللغة وبلاغة البيان وغيرها من
الشروط والأدوات التي وضعها جمهور المفسرين لمن يتعرض لهذا الشأن، ولا يلزم بالطبع أن
يهمل فكره ويعمل عقله فيما فتح الله عليه.

ففي البخاري عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-:
هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: "لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ [خلق]
النَّسَمَةَ [كل ذي روح] مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَمًّا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ".

يعني ما يفهم من فحوى لفظ القرآن ويستدل به من باطن معانيه التي هي غير الظاهر
من نصه والمتلقي من لفظه، ويدخل في ذلك جميع وجوه القياس والاستنباط التي يتوصل
إليها من طريق الفهم والتفهم، ولذلك قال ابن عباس: "جميع العلم في القرآن لكن تقاصر
عنه أفهام الرجال".

ولأننا لو قيدنا القول في القرآن بوجود نص سلف له لانتهى الأمر إلى رسول الله -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو لم يترك تفسير مفصل له آية في كتاب الله تعالى.
ولذلك قال القسطلاني في إرشاد الساري: فيه جواز استخراج العالم من القرآن بفهمه
ما لم يكن منقولاً عن المفسرين إذا وافق أصول الشريعة، وهذا فيه تأييد لقول إمام دار
الهجرة مالك -رحمه الله-: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور وفهم يضعه الله في قلب
من يشاء.

** قال أهل العلم: آيتان ما أشدهما على من يجادل في القرآن قوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ
فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [غافر: ٤] وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} {البقرة: ١٧٦}
وعن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (جدال
في القرآن كفر) [رواه أحمد وأبو داود وإسناده جيد]، وفي صحيح مسلم عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو
-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمًا قَالَ فَسَمِعَ
أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُعْرِفُ فِي
وَجْهِهِ الْغَضَبُ فَقَالَ: (إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ)

أمثلة ونماذج للجدال في القرآن

** قاتل عليّ - رضي الله عنه وأرضاه - الخوارج على تفسير آيات الله - جلّ وعلا - من القرآن، فتأول الخوارج هذه الآيات على معاني شيطانية، فأجازوا قتل الصحابة، من خلال تفسيرهم الباطل، فكان قتال الصحابة لهم.

ومن هذه التفسيرات الباطلة خلود أهل الكبائر من الموحدين في النار، كما قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - في وصف الخوارج بأنهم: "انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين".

// كقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [السجدة: ٢٠]

رغم أن سياق الآيات تدل على أنها نزلت في الكافرين المقابلين للمؤمنين، فقال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ} * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [السجدة: ١٨-٢٠]

والكفار فساق بنص القرآن الكريم، وليس المقصود بالفسق في هذه الآية وأمثالها المعصية التي تحدث من المسلم الموحد. فقد قال تعالى في وصف المنافقين النفاق الاعتقادي بأنهم فساق بعد أن وصفهم بالكفر: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٨٠]

وقال: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة: ٨٤].

// وقوله تعالى في سورة الفرقان: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)}

وهذا لا يفيد تأييد الخلود والمقام والاستقرار لكل من دخلها، بل نصوص الشرع دلت على أن الخلود فيها للكافرين، وأن الموحدين -ممن استحقها لذنب- يخرجون منها. وقد وعدهم أكرم الأكرمين بأنهم تحت مشيئته إن شاء غفر لهم من أول وهلة، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم ثم يدخلهم الجنة وهو مقتضى النصوص والإجماع، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٨]

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١١٦]

وفي البخاري عن أبي ذرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ) قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟! قَالَ: (وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى)

وفي صحيح أبي داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي)

// قوله تعالى في سورة الانفطار: {وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)}

والفجار يعني بهم الكفار المخلدين في النار، فما هم عن عذاب جهنم بغائبين لا بخروج منها ولا بموت. كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ} [فاطر: ٣٦]

والكفار فجار، وقد جاء وصفهم في الآيتين قبل تلك الآيات مصرحة بحكمهم في مقابلة حكم الله بالجنة للأبرار، قال تعالى عن المؤمنين الأتقياء الأبرار: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣].

// وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف: ٤٠]

فهذا جزاء هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآيات ربهم واستكبروا عن اتباعها، فقد حرم الله عليهم الجنة. كما قال تعالى: { ... إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [المائدة: ٧٢]

// وقوله تعالى: { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: ٨١] فلفظ { سيئة } في الآية الكريمة فسروها بالمعصية، دون الشرك، وساقوا بعض النصوص العامة عن السلف، فعن الضحاك { وأحاطت به خطيئته } قال: مات بذنبه. وعن الربيع بن خثيم: { وأحاطت به خطيئته } قال: مات عليها.

رغم أن سياق الآيات في شأن اليهود الكفار، بدلالة الآية قبلها: { وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٨٠]

قال شيخ المفسرين ابن جرير - رحمه الله -: وقوله: { بلى من كسب سيئة } تكذيب من الله القائلين من اليهود { لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة } وإخبار منه لهم أنه يعذب من أشرك وكفر به وبرسله، وأحاطت به ذنوبه فخلد في النار، فإن الجنة لا يسكنها إلا أهل الإيمان به وبرسوله وأهل الطاعة له، والقائمون بحدوده.

ثم ساقه بإسناده إلى ابن عباس: { بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته } أي من عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط كفره بما له من حسنة { فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }.

** ومن هلاك القوم بالقرآن «إلغاء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [المائدة: ١٠٥] رغم أن جمهور أهل العلم على أن قوله { لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } أي بعد أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر بدلالة النصوص الأخرى.

ففي سنن الترمذي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (إن الناس إذا رأوا ظالمًا، فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)

** ومن الهلاك تحليل الربا القليل وتحريم الفاحش منه، لقوله تعالى: {يا أيها الذين

آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٣٠]

قال جمهور المفسرين: خرج مخرج الواقع والغالب، إذ الدرهم الواحد حرام كالألف، وإنما كانوا في الجاهلية يؤخرون الدين ويزيدون مقابل التأخير حتى يتضاعف الدين فيصبح أضعافاً كثيرة.

وقال في البحر المحيط: والربا محرم جميع أنواعه، فهذه الحال لا مفهوم لها، وليست قيداً في النهي، إذ ما لا يقع أضعافاً مضاعفة مساوٍ في التحريم لما كان أضعافاً مضاعفة.

وقال ابن عاشور: فلا يقتصر التحريم بهذه الآية على الربا البالغ أضعافاً كثيرة، حتى يقول قائل: إذا كان الربا أقل من ضعف رأس المال فليس بمحرم. فليس هذا الحال هو مصب النهي عن أكل الربا حتى يتوهم متوهم أنه إنه كان دون الضعف لم يكن حراماً.

** ومن الهلاك تغليب آيات الرجاء أو آيات الخوف، فالأول يفضي للتساهل بأمور الشريعة، والثاني يفضي إلى القنوط واليأس.

** ومن الهلاك تعلم المقامات الموسيقية مجاوزة الحد في قراءة آياته بالتطويل والتطريح والتشدد بفهم خاطئ للحديث النبوي (زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ) [أبو داود، والنسائي، وابن ماجه]

وختاماً

** عن الأوزاعي قال كتب عمر بن عبد العزيز: إنه لا رأي لأحد في كتاب الله، وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض به سنة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا رأي لأحد في سنة سنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

** قال الشافعي: "لو علم الناس ما في الكلام والأهواء، لفروا منه كما يفرون من

الأسد"

** قال الإمام مالك - رحمه الله تعالى - "ينبغي أن تتبع آثار الرسول - صلى الله

عليه وسلم- والصحابة ولا يتبع الرأي"

** قال ابن بطة: لا تُشاور أحدًا من أهل البدع في دينك.

وَنِعْمَ فَتَى الْعَشِيرَةِ

روى الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير، قال: استعمل عمر بن الخطاب، أبا عبيدة بن الجراح، على الشام، وعزل خالد بن الوليد، قال: فقال خالد بن الوليد: بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح) قال أبو عبيدة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خالد سيف من سيوف الله عز وجل، ونعم فتى العشيرة) [صحيح]

** في فتح الشام كان عمرو بن العاص أحد الأمراء وأبو عبيدة بن الجراح أيضاً، وقدم أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عليهم خالد بن الوليد لشجاعته ومنفعته في الجهاد. فلما توفي أبو بكر ولى عمر بن الخطاب أبا عبيدة أميراً على الجميع؛ وما فعله كل منهما كان أصلح في وقته، لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان شديداً في الله فولى أبا عبيدة لأنه كان ليئلاً. وكان أبو بكر رضي الله عنه ليئلاً وخالد شديداً على الكفار، فولى اللين الشديد وولى الشديد اللين؛ ليعتدل الأمر وكلاهما فعل ما هو أحب إلى الله تعالى في حقه. ** أول من سمي خالد بن الوليد -رضي الله عنه-: «سيف الله» رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

// وكان بدء تسمية الرسول -صلى الله عليه وسلم- له بذلك في غزوة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة، كانت بين المسلمين وقوامهم ثلاثة آلاف وعدوهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب، فقد روى البخاري وغيره بأسانيدهم عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- نعى زيدا، وجعفرأ، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب،

ثم أخذ بن رواحة فأصيب).. وعيناه -صلى الله عليه وسلم- تذر فان. (حتى أخذها سيف من سيوف الله عليهم) وفي رواية: (حتى أخذها سيف من سيوف الله؛ خالد بن الوليد) بعد استشهاد القواد الثلاثة اختار المجاهدون خالد بن الوليد قائداً فأعاد تنظيم الجيش وبدل الميسرة باليمينه وجعل قسماً من الجيش يتقدمون من الخلف وكأنهم أمداد جديدة، وتم الانسحاب المنظم وظهرت عبقرية خالد العسكرية، وكانت الخسائر في الانسحاب ثلاثة عشر شهيداً، مع إيلاام الأعداء قتلاً وتجريراً حتى انكسرت تسعة أسياف في يد خالد -رضي الله عنه-.

ولقد كرر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إطلاق هذه التسمية على خالد -رضي الله عنه- في غير ما موضع.

// فمن ذلك: قوله -عليه السلام-: (نعم عبد الله، وأخو العشيرة خالد بن الوليد، وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين).

// ولما بلغه -صلوات ربي وسلامه عليه- أن أحد الصحابة تكلم في خالد، قال -صلى الله عليه وسلم-: (لا تؤذوا خالداً، فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار). [حديث فيه ضعف]

** عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه: قال خالد بن الوليد: "اعتمرنا مع النبي -صلى عليه وسلم- في عمرة اعتمرها فحلق شعره فاستبق الناس إلى شعره فسبقت إلى الناصية فجعلتها في مقدم هذه القلنسوة فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رزقت النصر"، [أخرجه أبو يعلى والحاكم وقال الهيثمي في المجمع رواه الطبراني وأبو يعلى ورجلها رجال الصحيح].

** وكانت «العُزَّى» صنماً لأهل مكة في موضع قريب من عرفات، وهي عبارة عن شجرات ثلاث من السَّمَر، وعندها بَنِيَّةٌ عليها أَسْتار، وكانوا يعبدونها من دون الله عزَّ وجلَّ، يذبحون عندها ويدعون. ولهذا قال أبو سفيان في يوم أحد بعد أن انتهت المعركة: "لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم". فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أجيبوه، قولوا: "الله مولانا، ولا مولى لكم)، وهذا هو الرد الشافي، وفيما بعد من الله على أبي سفيان بالإسلام فأسلم، والإسلام

يَجِبُ ما قبله، فلما فتح النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مكة أرسل إليها خالد بن الوليد فهدمها وقطع الأشجار، ثم رجع إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فأخبره، قال: (لم تفعل شيئاً)، فرجع خالد رضي الله عنه، إليها مرّة ثانية فوجد عندها السدنة، فلما رأوه هربوا إلى الجبال، فجاء فإذا بامرأة عريانة ناشرة شعرها [وهي الكاهنة التي كانت تخدم ذلك الموضع الشركي، وتحضر الجن لإضلال الناس بذلك]، فعلاها بالسيف وقتلها، ثم رجع إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره، قال: (تلك العزى). [يعني: أن حقيقة العزى هي تلك المرأة التي تغري الناس بذلك الشرك، وإلا فهي بالأصل شجرة]

** ومن فقهاء -رضي الله عنه- ما ذكره الواقدي أن خالد بن الوليد، لما قدم العارض، قدم مائتي فارس، فأخذوا مُجَاعَةً بن مرارة في ثلاثة عشر رجلاً من قومه بني حنيفة، فقال لهم خالد بن الوليد: ما تقولون في صاحبكم؟ [أي مسيلمة الكذاب] فشهدوا أنه رسول الله، فضرب أعناقهم، حتى إذا بقي سارية بن عامر قال: "يا خالد إن كنت تريد بأهل الإمامة خيراً أو شراً فاستبق مُجَاعَةً"، وكان شريقاً فلم يقتله، وترك سارية أيضاً، فأمر بهما فأوثقا في مجامع من حديد، فكان يدعو مُجَاعَةً وهو كذلك فيتحدث معه وهو يظن أن خالدًا يقتله، فقال: يا ابن المغيرة إن لي إسلامًا والله ما كفرت.

فقال خالد: "إن بين القتل والترك منزلة وهي الحبس، حتى يقضي الله في أمرنا ما هو قاض"، ودفعه إلى أم متمم زوجته، وأمرها أن تحسن أساره، فظن مُجَاعَةً أن خالدًا يريد حبسه ليخبره عن عدوه، وقال: "يا خالد قد علمت أني قدمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فبايعته على الإسلام، وأنا اليوم على ما كنت عليه بالأمس، فإن يك كذاب قد خرج فينا الله يقول: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤].

فقال "يا مُجَاعَةُ، تركت اليوم ما كنت عليه أمس، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه - وأنت من أعز أهل الإمامة - إقراراً له ورضاً بما جاء به، فهل أبديت عذراً فتكلّمت فيمن تكلم؟ فقد تكلم: ثمامة فرد وأنكر، وتكلم اليشكري، فإن قلت أخاف قومي فهلا عمدت إليّ أو بعثت إليّ رسولاً؟"

فتأمل كيف جعل خالد سكوت مُجَاعَةً رضا بما جاء به مسيلمة وإقراراً، فأين هذا ممن أظهر الرضا وظاهر وأعان وجدَّ وثمرَّ مع أولئك الذين أشركوا مع الله في عبادته وأفسدوا في أرضه؟

وخالد أنكر على مُجَاعَةً لكونه؛ كان من أعز أهل اليمامة، ولم يبد عذراً، ولم يرسل له رسولاً يخبره إن كان خائفاً من قومه ومن مسيلمة أم لا، مما دل أن خالد بن الوليد -رضي الله عنه- كان يقبل عثرة من كان هذا وصفه، ومع ذلك فخالد -رضي الله عنه- لم يحكم بردة مُجَاعَةً وعفا عنه، وقال له: (قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي حرج من تركك)، لما رأى من صدق لهجته!

** ومن فقهه أيضا -رضي الله عنه- ما رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه" عن خالد بن الوليد -رضي الله عنه-: أنه قال: "الفتنة: أن تكون في أرض يعمل فيها بالمعاصي وتريد أن تخرج منها إلى أرض لم يعمل فيها بالمعاصي فلا تجدها".

// وعن خالد بن الوليد -رضي الله عنه-؛ قال: "كتب إلي أمير المؤمنين - يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه- حين ألقى الشام بوانيه [أي: خيره وما فيه من السعة والنعمة] بَثْنِيَّةً وَعَسَلًا [بَثْنِيَّةٌ: حنطة منسوبة إلى بلدة معروفة بالشام، أو هي الزبدة.. أراد أن الشام لما سكن وذهبت شوكته وصار لنا لا مكروه فيه خصبا كالحنطة والعسل] عزلني فأمرني أن أسير إلى الهند -والهند في أنفسنا يومئذ البصرة- قال: وأنا لذلك كاره. قال: فقام رجل، فقال: اتق الله يا أبا سليمان! فإن الفتن قد ظهرت.

فقال: وابن الخطاب حي؟! إنما تكون بعده، والناس بذوي بليان وذوي بليان [البليان إذا بعد عنك حتى لا تعرف موضعه، وهذا مثل للبعد والتفرق]، فينظر الرجل فيفكر هل يجد مكانا لم ينزل فيه مثل ما نزل بمكانه الذي هو به من الفتنة والشر فلا يجد، وتلك الأيام التي ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين يدي الساعة، أيام المهرج، فنعود بالله أن تدركنا وإياكم تلك الأيام". [أراد ضياع أمور الناس بعده، وتفرقهم، وأن يكونوا طوائف وفرقا من غير إمام يجمعهم]

[رواه: الإمام أحمد، والطبراني في "الكبير" و "الأوسط". قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف"] .

// عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: أنه قال: "كان عمر بن الخطاب حائطا حصينا على الإسلام، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه، فانثلم الحائط، والناس يخرجون منه ولا يدخلون فيه".

** ومن كرامات خالد بن الوليد -رضي الله عنه- أنه لما نزل الحيرة، ف قيل له: احذر السم لا تسقك الأعاجم، فقال: "اتوني به، فأتي به، فالتهمه، واستفه، وقال: بسم الله، فما ضره". قال الذهبي رحمه الله: "هذه والله الكرامة وهذه الشجاعة" [سير أعلام النبلاء/١/٣٧٦].

** هاجر خالد بن الوليد مسلما بعد الحديبية وقبل فتح مكة.. عن أبي سعيد قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: (لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مئداً أحدهم ولا نصيفه). [مسلم]

فخصَّ -صلى الله عليه وسلم- المتقدِّم باسم الصُّحْبَةِ فكأنَّ الذي أسلم من بعد الفتح وقاتل لِقَصْرِ إِسْلَامِهِ وَقَصَرَ صَحْبَتَهُ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وَقِلَّةِ نُصْرَتِهِ بالنسبة إلى من قبله، كأنه صارَ تَحْقِيقُ اسْمِ الصُّحْبَةِ عَلَيْهِ لَيْسَ كَتَحْقِيقِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، بل هذا هو الواقع، ولهذا خصَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- السابقين باسم الأَصْحَابِ دون غيرهم مع اشتراك من أسلم بعد ذلك باسم الأَصْحَابِ؛ ولكن لأجل طول الصُّحْبَةِ صار عبد الرحمن بن عوف وسلب الاسم عن خالد بن الوليد لأجل هذه الحثيثة، وإلا فالكل صاحب للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا فيه تخصيص بالاسم لأجل مزيد الفضل وتَحْقُقِ الصِّفَةِ اللَّازِمَةِ فِي مَقْتَضَى الصُّحْبَةِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْيَأْسُ مِنْ بُلُوغِ مَنْ بَعْدَهُمْ مَرْتَبَةَ أَحَدِهِمْ فِي الْفَضْلِ فَإِنَّ هَذَا الْمَفْرُوضَ مِنْ مَلِكِ الْإِنْسَانِ ذَهَبًا بِقَدْرِ أَحَدٍ مُحَالٌ فِي الْعَادَةِ لَمْ يَتَّفِقْ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ وَبِتَقْدِيرِ

وُقُوعِهِ، وَإِنْفَاقِهِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ لَمْ يَبْلُغِ الثَّوَابُ الْمُرْتَبُّ عَلَى ذَلِكَ ثَوَابَ الْوَاحِدِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِنِصْفِ مَدٍّ وَلَوْ مِنْ شَعِيرٍ، وَذَلِكَ إِذَا طُحِنَ وَعُجِنَ لَا يَبْلُغُ رَغِيْفًا عَلَى الْمُعْتَادِ، وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا الْحَدِيثَ لَمْ يَجِدْ فِي مَنَاقِبِ الصَّحَابَةِ شَيْئًا أَبْلَغَ مِنْهُ.

** روى مالك في "الموطأ" عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن خالد بن الوليد قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إني أروّع في منامي، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون). [قال الألباني: حسن لغيره]

** في فتح الشام، لما جمع خالد -رضي الله عنه- الجيوش يوم اليرموك لقتال الروم قام فيهم خطيباً فقال: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يوم له ما بعده".

** ومن مواقفه -عفا الله عنه- ما رواه البخاري من حديث سالم عن أبيه قال: بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام؛ فلم يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَانًا، وَجَعَلَ خَالِدٌ قِتْلًا وَأَسْرًا، فَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ يَوْمْنَا، أَمَرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مَنَا أَسِيرَهُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلَا يَقْتُلُ أَحَدٌ.. فَقَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَذَكَرَ لَهُ صُنْعَ خَالِدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- وَرَفَعَ يَدَيْهِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ) مَرَّتَيْنِ، وَأَمَرَ بِدَفْعِ دِيَةِ الْقَتْلَى.

قال الخطابي: «أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم

صباناً»

** وتزعم الشيعة أن خالد بن الوليد قتل مالك بن نويرة صبراً ونزاً على زوجته، ويتجاهل الشيعة أن خالداً استدعى مالك بن نويرة فأنبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم يزعم

ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرار اضرب عنقه، فضربت عنقه [تاريخ الطبري ٢٧٣/٢ تاريخ ابن الأثير ٢١٧/٢ البداية والنهاية ٣٢٦/٦].

وهناك رواية وهي: أن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما كلم قوم مالك بن نويرة، وزجرهم عن هذا الأمر وأسَرَ منهم من أسر، قال لأحد حراسه: أدفنوا أسراكم؟ وكانت ليلة شاتية، وكان من لغة ثقيف (أدفنوا الرجل) تعني: اقتلوه، فظن الحارس أن خالداً -رضي الله عنه- يريد القتل، فقتلهم وفق فهمه بدون أمر خالد بن الوليد رضي الله عنه.

أما القول بأن خالدا رضي الله عنه قتل مالك بن نويرة، ثم تزوج امرأته في تلك الليلة، فهو قول تافه وباطل لا يستند على رواية صحيحة، ولا يستحق أن يضيع عليه شيء من مداد الحق، ويكفي في بيان تفاهة القول أننا نسأل كل إنسان يريد الإنصاف والعدل، فنقول له:

من أين عرفت أن خالد بن الوليد دخل على امرأة مالك بن نويرة في نفس الليلة التي

قتل فيها زوجها؟ هل تستطيع أن تأتي بإسناد واحد صحيح يدل على زعمك؟

وفي كتاب وفيات الأعيان يقول: "وقبض خالد امرأته، فقبل إنه اشتراها من الفيء وتزوج بها، وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض ثم خطبها إلى نفسه فأجابته!"

بل المقرر في الروايات المعتمدة عند ابن جرير وفي البداية والنهاية لابن كثير أن خالداً لم يدخل بهذه السبية إلا بعد انقضاء عدتها. وللاستاذ الشيخ أحمد شاکر تحقيق نفيس في أمر مالك بجزء شعبان سنة ١٣٦٤ من مجلة الهدى النبوي لسننتها التاسعة

وعلى كل حال فخالد أتقى لله من أن يظن به مثل هذه الرذالة التي لا تصدر من أدنى المؤمنين فكيف بسيف الله المسلول على أعدائه.

لقد جاهدوا في الله حتى وصل إلى المدينة من سبايا الأمم ما عجز الناس عنها، حتى أصبحت أجمل بنات الفرس والروم من بنات الملوك تباع بدينار وبدينارين، فهل هؤلاء ناس يريدون الشهوات؟!!

يتركون هذا البيع المعروض ويذهبون إلى تلك البلاد، ويموتون على أسوار القسطنطينية
وعلى حدود الصين وفي الأندلس وهدفهم النساء - سبحان الله!

الجدال مبدأ الشر

عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) ثم تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: ٥٨] (١)

الجدال كثيراً ما يميل إلى الخصومة في الكلام، كما ينطوي على حرص كل واحد من المتجادلين على غلبة خصمه وإفحامه وإلزامه الحجة وبيان خطئه. ونتيجة لهذا فإن من المألوف أن يقع خلال الجدل بعض الظلم والادعاء والكذب والتطاول واستخفاف أحد المتجادلين بالآخر. ومن هنا وجهنا -سبحانه- إلى أن نجادل المجادلة المقيدة بالأدب الإسلامي الرفيع، المجادلة بالحق الساعية إليه؛ حيث قال تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]

أما الحوار فمع دلالته على تردد الحديث بين اثنين، إلا أنه لا يحمل صفة الخصومة وإنما يحمل صفة الحرص على العلم والفهم والاطلاع. فالدافع الأساسي للمحاور الجيد ليس إقناع من يحاوره بوجهة نظره وجعله يقف إلى جانبه، وإنما دافعه الأساسي أن يُرى محاوره ما لا يراه، وأن يظفر من محاوره أيضاً بأن يكشف له غموض أمور لا يراها ولا يعرفها، فكلاً من المتحاورين يطلب الوضوح ومعرفة الحق والحقيقة.

قال -صلى الله عليه وسلم-: (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) (٢)

قال المناوي: (الألد) أي الشديد الخصومة بالباطل الآخذ في كل لد أي في كل شيء من المرء والجدال لفرط لجأه (الخصم) أي المولع بما الماهر فيها الحريص عليها المتماذي في

الخصام بالباطل، لا ينقطع جداله وهو يظهر أنه على الحسن الجميل ويوجه لكل شيء من خصامه وجهاً ليصرفه عن إرادته من القباحة إلى الملاحاة، ويزين بشقشقته الباطل بصورة الحق وعكسه، بحيث صار ذلك عادته وديدنه، فالأول ينبئ عن الشدة والثاني عن الكثرة، وسمي ألد لاستعماله لدديه أي جانبي فمه وعنقه. قال الغزالي: إذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك وعجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلى من وراءك. (٣)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) (٤)

قال النووي: اعلم أن الجدل قد يكون بحق وقد يكون بباطل، قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت: ٤٦]، وقال: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥] وقال: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر: ٤] قال: فإن كان الجدل للوقوف على الحق وتقديره كان محمودا، وإن كان في مدافعة الحق أو كان جدالا بغير علم كان مذموما، وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في إباحته وذمه، والمجادلة والجدال بمعنى واحد، قال بعضهم: ما رأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أشغل للقلب من الخصومة.

قال الإمام الغزالي: المراء طعنك في كلام لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه، وأما الجدل عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقديرها، وأما الخصومة فلجاج في الكلام ليستوفي به مقصودا من مال أو غيره وتارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا، والمراء لا يكون إلا اعتراضا.

فإن قلت لا بد للإنسان من الخصومة لاستيفاء حقوقه (فالجواب) ما أجاب به الإمام الغزالي رحمه الله: اعلم أن الذم المتأكد إنما هو لمن خصم بالباطل وبغير علم، كوكيل القاضي فإنه يتوكل في الخصومة قبل أن يعرف الحق في أي جانب، فهو يخاصم بغير علم. ويدخل في

الدم أيضا من يطلب حقه لأنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد والكذب والإيذاء والتسليط على خصمه، كذلك من خلط بالخصومة كلمات تؤذى وليس له إليها حاجة في تحصيل حقه، كذلك من يحملة على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره فهذا هو المذموم.

وأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على الحاجة من غير قصد عناد ولا إيذاء، ففعل هذا ليس حراما، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا، لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدور وتيج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة الآخر ويحزن لمسيرته ويطلق لسانه في عرضه، فمن خاصم فقد تعرض لهذه الآفات، وأقل ما فيها اشتغال القلب حتى أنه يكون في صلاته وخاطره متعلقا بالمحاجة والخصومة فلا تبقى حاله على الاستقامة، والخصومة مبدأ الشر وكذا الجدال والمرء، فينبغي للإنسان ألا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرورة لا بد منها.

ولما كان هذا هو شأن الجدال والمرء والخصومة تجنب السلف الصالح ذلك، وحذروا منه:

- قال ابن عباس -رضي الله عنه-: كفى بك ظلماً ألا تزال محاصماً، وكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً.

- وقال ابن أبي الزناد: ما أقام الجدل شيئاً إلا كسره جدلٌ مثله.

- وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل.

- وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: من لاحى الرجال وماراهم قلت كرامته، ومن أكثر من شيء عُرف به.

- وأخرج الآجري عن مسلم بن يسار قال: إياكم والمرء، فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته.

- وأخرج أن عمر بن عبد العزيز قال: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل.

- وقال عبد الله بن حسين بن علي -رضي الله عنه-: المرء رائد الغضب، فأخزى الله عقلاً يأتيك بالغضب.
- وقال محمد بن علي بن حسين -رضي الله عنه-: الخصومة تمحق الدين، وتنبت الشحاء في صدور الرجال.
- وقيل لعبد الله بن حسن بن حسين: ما تقول في المرء؟ قال: يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة. وأقل ما فيه أن يكون ذريعة للمغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة.
- وقال جعفر بن محمد: إياكم وهذه الخصومات، فإنها تحبط الأعمال.
- وقيل للحكم بن عتيبة الكوفي: ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء؟ قال: الخصومات.

الهوامش والمصادر

- (١) رواه الترمذي - كتاب التفسير - وحسنه الألباني في صحيح الترمذي رقم ٣٢٥٣ (٢) رواه البخاري عن عائشة رقم ٧١٨٨ (٣) فيض القدير للمناوي بتصريف (٤) ذكره النووي في رياض الصالحين عن أبي أمامة الباهلي رقم ٢٦٤ وصححه الألباني
- أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد
- التربية من خلال الحوار د. عبد الكريم بكار

البركة وأنواعها

البركة نوعان: بركة ذات، وبركة عمل، وإيمان، وصلاح.

** بركة ذات: بمعنى أن أجزاء الذات تكون مباركة، فإذا لمست هذا المبارك الذات انتقلت لك بركة، وحصل لك بركة وانتفاع من ذاته - من شعره من عرقه من بدنه-، وهذه البركة ليست إلا للأنبياء والمرسلين، فهم الذين يتبرك بذواتهم بعرقهم ببقية سؤرهم بدمهم إلى آخره، فهذا لا بأس به، كما جاء ذلك في السنة الصحيحة عن النبي - صلى الله عليه وسلم -.

** روى مسلم عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عِنْدَنَا، فَعَرِقَ، وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ، فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ الْعَرِقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقِظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟) قَالَتْ: هَذَا عَرِقُكَ نَجَعَلُهُ فِي طِبِينَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ

** وروى البخاري عن أنس -رضي الله عنه-: «أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ كَانَتْ تَبْسُطُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِطْعًا، فَيَقِيلُ عِنْدَهَا عَلَى ذَلِكَ النَّطْعِ» قَالَ: «فَإِذَا نَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَتْ مِنْ عَرِقِهِ وَشَعْرِهِ، فَجَمَعَتْهُ فِي قَارُورَةٍ، ثُمَّ جَمَعَتْهُ فِي سَكِّ» قَالَ: فَلَمَّا حَضَرَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ الْوَفَاةَ، أَوْصَى إِلَيَّ أَنْ يُجْعَلَ فِي حَنُوطِهِ مِنْ ذَلِكَ السُّكِّ، قَالَ: فَجُعِلَ فِي حَنُوطِهِ.

** وفي البخاري في قصة صلح الحديبية: ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنَيْهِ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُحُومًا إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحْدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ عُرْوَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيُّ قَوْمٍ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ

وَكَسْرَى وَالنَّجَاشِيَّ وَاللَّهِ إِنَّ رَأَيْتُ مَلَكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا

** وفي البخاري عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَوْهَبٍ قَالَ أُرْسِلَنِي أَهْلِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَدْحٍ مِنْ مَاءٍ وَقَبْضِ إِسْرَائِيلَ ثَلَاثَ أَصَابِعٍ مِنْ قُصَّةٍ فِيهِ شَعْرٌ مِنْ شَعْرِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ إِذَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ عَيْنٌ أَوْ شَيْءٌ بَعَثَ إِلَيْهَا مَخْضَبَهُ فَاطَّلَعْتُ فِي
الْجُلُجْلِ فَرَأَيْتُ شَعْرَاتٍ حُمْرًا

قال ابن حجر في الفتح: والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل
فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل به استشفاء بها
فتحصل له بركتها

** عن عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ -رضي الله عنه- يُحَدِّثُ: أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ أَتَى
النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَخْتَجِمُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: (يَا عَبْدَ اللَّهِ، اذْهَبْ بِهَذَا الدَّمِ
فَأَهْرِفُهُ حَيْثُ لَا يِرَاكَ أَحَدٌ) فَلَمَّا بَرَزَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَمَدَ إِلَى الدَّمِ
فَشَرِبَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ: (يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا صَنَعْتَ؟) قَالَ: جَعَلْتَهُ فِي أَحْفَى مَكَانٍ عَلِمْتُ أَنَّهُ
يَخْفَى عَنِ النَّاسِ، قَالَ: (لَعَلَّكَ شَرِبْتَهُ)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: (وَلَمْ شَرِبْتَ الدَّمِ وَيُلِّ لِلنَّاسِ مِنْكَ،
وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ).

** ولا تتعدى بركة الذات إلى من عدى الأنبياء إلا إذا كان مقتديا بهم ملتزما بما دعوا
إليه وجاهدوا في سبيله، ولهذا لم تتعد بركة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأصحابه يوم أحد
لما وقع من الرماة يومئذ من مخالفة عن أمره -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

** بركة عمل: وهذه لكل مؤمن بركة راجعة إلى عمله الصالح وذلك من جهة إيمانه
وتقواه وصلاحه وعمله الصالح، فلكل مؤمن بركة بقدر ما عنده من الإيمان والعمل الصالح.
** روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ:

خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ
بِدَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ التِّمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ

مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ فَآتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضْعُ رَأْسُهُ عَلَى فِخْذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فِخْذِي فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمِيمِ فَتَيَمَّمُوا فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْخَضِيرِ مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ

** وثبت أيضا في البخاري وفي غيره أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن من

الشجر لما بركته كبركة المسلم) فدل على أن كل مسلم فيه وله بركة

** ولما تزوج النبي - صلى الله عليه وسلم - صفة وأعتق قومها وجعل عتقهم صداقها

قال: فلم تكن امرأة لها بركة على قومها أعظم من بركة صفة. فدل هذا على أن كل مؤمن له بركة؛ بركة عمل.

** فكل مسلم فيه بركة، وهذه البركة ليست بركة ذات، وإنما هي بركة عمل، وبركة ما معه من الإسلام والإيمان، وما في قلبه من الإيقان والتعظيم لله - جل وعلا - والإجلال له، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم، فهذه البركة التي في العلم، أو العمل، أو الصلاح: لا تنتقل من شخص إلى آخر وعليه فيكون معنى التبرك بأهل الصلاح هو الاقتداء بهم في صلاحهم، والتبرك بأهل العلم هو الأخذ من علمهم والاستفادة منه وهكذا، ولا يجوز أن يُتبرك بهم بمعنى أن يُتمسح بهم، أو يُتبرك بريقهم؛ لأن أفضل الخلق من هذه الأمة وهم الصحابة لم يفعلوا ذلك مع خير هذه الأمة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وهذا أمر مقطوع به.

** فإذا أتى رجل صالح أو زارك أحد من إخوان المؤمنين وقال قائل: حلت البركة أو

جاءت البركة يعني أن هذا الزيارة عمل صالح والعمل الصالح مبارك، وهذا العبد الصالح إذا

جاء، وقال القائل: حلت البركة؛ يعني لأنه إذا جاء العبد الصالح فإنه سيشغل أهل البيت في زيارته لهم بما ينفعهم في آخرتهم فهذه من بركة إيمانه وعمله الصالح فلا بأس.

الخيانة شؤم

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
(لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم
غدرًا من أمير عامة) (١)

أقصى شيء أن تطعن الأمة من رجالها وأبناء جلدتها، فما أشدها من طعنة، وما
أبشعها من نكسة، وما أقساها من محنة... إنها الخيانة القبيحة بكل صورها التي لعنتها كل
الشرائع السماوية والقوانين الأرضية، وكفى بالخائن إثماً أنه ابتاع دنياه بسوء السيرة وآخرته
بغضب الرحمن.

ولقد ورد لفظ الخيانة في سورة الأنفال في ثلاث آيات، قال تعالى:

{يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون}
[الأنفال: ٢٧]

وقال: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين}
[الأنفال: ٥٨]

وقال: {وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم}
[الأنفال: ٧١]

وفي كل آية يرد اللفظ مرتين، وهو ما لم يحدث في أي سورة من سور القرآن، ودلالة
هذا التكرار تفيد الانتباه لأهمية الأمر خاصة أن سورة الأنفال هي سورة الجهاد والقتال،
ولقد بدأت السورة بأول معركة للمسلمين ألا وهي غزوة بدر وهو ما يلفت النظر للحذر
من الخيانة التي تكونه خاصة في المعارك.

يقول سيد قطب: إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود،
ومن ثم لا يجب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة.. إن

النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ومتى استحلّت لنفسها وسيلة خسيصة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة.. وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية، لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات.. إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل، فإن الشط الممرع لا بد أن تلوّثه الأقدام الملوّثة في النهاية.. من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة (٢)

وقال تعالى: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور} [الحج: ٣٨] صرح جل وعلا في هذه الآية الكريمة بأنه لا يحب كل خوان كفور، والخوان والكفور كلاهما صيغة مبالغة، والمقرر في علم العربية أن نفي المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي أصل الفعل، وعلى هذه القاعدة العربية المعروفة فإن الآية قد صرحت بأن الله لا يحب المبالغين في الكفر والمبالغين في الخيانة، ولم تتعرض لمن يتصف بمطلق الخيانة ومطلق الكفر من غير مبالغة فيهما، ولا شك أن الله يبغض الخائن مطلقا والكافر مطلقا.

وقد أوضح جل وعلا ذلك في بعض المواضع، فقال في الخائن: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين} [الأنفال: ٥٨] وقال في الكافر: {قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين} [آل عمران: ٣٢] (٣)

قال القاسمي: وصيغة المبالغة فيهما لأنه في حق المشركين وهم كذلك، ولأن خيانة الله وكفران نعمته لا يكون حقيرا، بل هو أمر عظيم (٤)
وقال -صلى الله عليه وسلم-:

- (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان) (٥)
- (أرْبَعٌ خِلالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا) (٦)

- (اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة) (٧)

- (... وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ...) (٨)

- (حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم. وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم، إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟) (٩) أي ما تظنون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار منها في ذلك المقام، أي لا يبقى منها شيئاً إن أمكنه.

- (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) (١٠)

- (لواء الغادر يوم القيامة عند استه) (١١)

فأوجز وأجمع رسالة لكل خائن «الجزاء من جنس العمل، وفي التاريخ عبرة لمن يعتبر» قال -صلى الله عليه وسلم- (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب، وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا) (١٢)

قال الذهبي في ترجمة «المنتصر بالله» الخليفة العباسي: ورد عنه أنه قال في مرضه: ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلته، وكان يتهم بأنه واطأ على قتل أبيه، فما أمهل، وجلس مرة للهو، فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس عليه تاج، وحوله كتابة فارسية، فطلب من يقرأ، فأحضر رجل فنظر فإذا فيها ... فقطب وسكت وقال: لا معنى له، فألح المنتصر عليه، قال: فيها أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبي فلم أمتع بالملك سوى ستة أشهر، قال: فتغير وجه المنتصر وقام.

قال جعفر بن عبد الواحد: قال لي المنتصر: يا جعفر، لقد عوجلت فما أذني بأذني، ولا أبصر بعيني.

وقال عنه الذهبي أيضا: تحيلوا - أي الأتراك - إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه فأشار بفصده، ثم فصده بريشة مسمومة فمات منها، ويقال إن ابن طيفور نسي ومرض وافتصد بتلك الريشة فهلك (١٣)

الهوامش

(١) البخاري - الفتح ٣١٨٨/٦، ومسلم - كتاب الجهاد والسير رقم ٤٣٦٢ واللفظ له (٢) الظلال ص ١٥٤٢ (٣) أضواء البيان للشنقيطي ج ٥ ص ٢٦٤ بتصريف (٤) محاسن التأويل للقاسمي ج ١١-١٢ ص ٢٨ (٥) متفق عليه البخاري - الفتح ٣٣/١ ومسلم ٥٩/١ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - (٦) البخاري رقم ٢٤٧١ عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - (٧) رواه أبو داود رقم ١٥٤٧ عن أبي هريرة وقال الألباني في صحيح أبي داود رقم ١٣٦٨: حديث حسن (٨/٢٦٣-٣٣٥٤) وقال محقق جامع الأصول ٣٥٧/٤: حسن (٨) رواه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي رقم ٢٨٦٥ (٩) رواه مسلم عن بريدة - رضي الله عنه - رقم ٤٧٢٧ (١٠) رواه مسلم عن معقل بن يسار رقم ١٤٢ (١١) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق عن معاذ وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٠٨ (١٢) رواه الطبراني عن أبي بكرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٧٠٥ في صحيح الجامع (١٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٣/١٢-٤٥ والجزء من جنس العمل

الحجر الأسود

ما على الأرض شيء من الجنة غيره

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال -صلى الله عليه وسلم-: (ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق) (١)

الحجر الأسود أشرف حجر على وجه الأرض، وهو أشرف أجزاء البيت الحرام، ولذا شرع تقبيله واستلامه، ووضع الخد والجهة عليه، وموضعه جهة الشرق من الركن اليماني الثاني الذي هو في الجنوب الشرقي وارتفاعه من أرض المطاف متر واحد ونصف المتر، ولا يمكن وصفه الآن لأن الذي يظهر منه في زماننا ونستلمه ونقبله إنما هو ثماني قطع صغيرة مختلفة الحجم أكبرها بقدر التمرة الواحدة، وأما بقية فداخل في بناء الكعبة المشرفة، ويروى أن القطع تبلغ خمس عشرة قطعة إلا أن القطع السبع الأخرى مغطاة بالمعجون الذي يراه كل مستلم للحجر وهو خليط من الشمع والمسك والعنبر موضوع على رأس الحجر. أما طوله فقد رآه (محمد بن نافع الخزاعي) يوم اقتلعه القرامطة في القرن الرابع الهجري ورأى السواد في رأسه فقط وسائره أبيض وطوله قدر ذراع، وأول من طوق الحجر الأسود بالفضة (عبد الله بن الزبير) صوتاً له وتتابع من بعده الخلفاء والأغنياء، وكان آخر من أهدها إطاراً قبل قيام الدولة السعودية السلطان (محمد رشاد خان) سنة ١٣٣١هـ وكان من الفضة الخالصة، وقد أصلح الملك (عبد العزيز آل سعود) من هذا الطوق، ثم في عام ١٣٧٥هـ بدل الملك سعود الإطار السابق بآخر من الفضة الخالصة.

وقد وقع حادث على الحجر الأسود في آخر شهر محرم عام ١٣٥١ هـ عندما اقتلعت قطعة منه، فعمل الأخصائيون مركبا كيماويا وأضيف إليه المسك والعنبر وبعد أن تم تركيب المركب الكيماوي أخذ الملك عبد العزيز رحمه الله قطعة الحجر بيده ووضعها في محلها تيمناً.
قال -صلى الله عليه وسلم-:

- (الحجر الأسود من حجارة الجنة) (٢)

- (نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم)
(٣)

- (إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب) (٤) يعني بالركن ههنا: الحجر الأسود، وسمي ركنا لأنه مبني في الركن.

- (إن مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحطان الخطايا حطا) (٥)

- (لولا ما مس الحجر من أنجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا شفي، وما على الأرض شيء من الجنة غيره) (٦)

وعن عابس بن ربيعة رحمه الله، قال: رأيت عمر يقبل الحجر، ويقول: إني لأعلم أنك حجر ما تنفع ولا تضر، ولولا أي رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقبلك ما قبلتك". أخرج الجماعة (٧).

وفي رواية لمسلم والنسائي " ولكن رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بك حفيا " أي شديد السرور في غاية اللطف والاعتناء وبارا به. ويستحب أن يخفف القبلة بحيث لا يظهر لها صوت ويقول عند الاستلام: (بسم الله والله أكبر)

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قبله وسجد عليه وقال: رأيت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قبله وسجد عليه ثم قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعل هكذا ففعلت. (٨)

قال الحافظ ابن حجر: قال الطبري: إنما قال ذلك عمر، لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه إتباع لفعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لا لأن الحجر يضر وينفع بذاته، كما كانت تعتقده في الأوثان.

ثم قال... وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في إتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يفعله، ولو لم يعلم الحكمة فيه، وفيه دفع ما وقع لبعض الجهال من أن في الحجر الأسود خاصة ترجع إلى ذاته، وفيه بيان السنن بالقول والفعل، وأن الإمام إذا خشي على أحد من فعله فساد اعتقاد، أن يبادر إلى بيان الأمور ويوضح ذلك (٩).

من هنا يظهر أن تقبيل الحجر الأسود ليس على سبيل التعظيم والتعبد، وإنما هو على سبيل الحب، كما يُقبَلُ أحدنا أولاده وزوجته. فلو كان التقبيل دليلاً على التعظيم والتعبد، لاستلزم أن الجميع يعبد أولاده وزوجته. ومن الواضح أن ذلك غير معقول؛ فَعَلِمَ أن التقبيل لا يستلزم العبادة والتعظيم؛ فقد يكون مصدره الحب.

وقد أبان هذه الحقيقة سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على رؤوس الأشهاد؛ ولو كان الحجر معبوداً، لما قال له عمر -رضي الله عنه-: "إنك لا تضر ولا تنفع"؛ فَعَلِمَ أن الدافع إلى تقبيله هو الحب

أما قوله -صلى الله عليه وسلم- (ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق) قال البيضاوي: شبه خلق الحياة والنطق فيه بعد أن كان جماداً لا نطق فيه بنشر الموتى وبعثها، ولا امتناع فيه فإن الأجسام متساوية في الجسمية وقبول الأعراض التي منها الحياة والنطق، والله قادر على جميع الممكنات، لكن الأغلب على الظن أن المراد منه تحقيق ثواب المسلم وأن سعيه لا يضيع وأجره لا يفوت، والمراد بالمستلم بحق من استلم اقتفاء لأثره وامثالاً لأمره. وقال الطيبي: ويشهد للوجه الأول شهادة لا ترد، تصدير الكلام بالقسم وتأکید الجواب بالنون لتلا يظن خلاف

الظاهر، و" على" في قوله -صلى الله عليه وسلم- (يشهد على من استلمه بحق) مثلها في قوله تعالى: {ويكون الرسول عليكم شهيداً} [البقرة ١٤٣] أي رقيباً حفيظاً عليكم، فالمعنى يحفظ على من استلمه أحواله شاهداً ومزكياً له، ويجوز أن يتعلق (بحق) بقوله (يشهد) أي يشهد بحق على من استلمه بغير حق كالكافر والمستهزئ ويكون خصمه يوم القيامة، ويشهد بحق لمن استلمه بحق كالمؤمن المعظم حرمة.

الهوامش والمصادر

- (١) رواه الترمذي وابن ماجه (صحيح) حديث رقم: ٥٣٤٦ في صحيح الجامع (٢) (سمويه)
- عن أنس (صحيح) حديث رقم: ٣١٧٥ في صحيح الجامع (٣) رواه الترمذي عن ابن عباس.
- (صحيح) حديث رقم: ٦٧٥٦ في صحيح الجامع (٤) رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو (صحيح)
- حديث رقم: ١٦٣٣ في صحيح الجامع (٥) رواه أحمد عن ابن عمر (صحيح) حديث رقم: ٢١٩٤
- في صحيح الجامع (٦) سنن البيهقي عن ابن عمرو (صحيح) حديث رقم: ٥٣٣٤ في صحيح
- الجامع (٧) البخاري ٣/٣٦٩ في الحج: باب ما نكر في الحجر الأسود، وباب الرمل في الحج
- والعمرة، وباب تقبيل الحجر، وأخرجه مسلم رقم (١٢٧٠) في الحج: باب استحباب تقبيل الحجر
- الأسود (٨) قال الألباني في إرواء الغليل ٤/٣١٠ صحيح (٩) فتح الباري ٣/٣٧٠

الدين شأنه عند الله تعالى عظيم

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم-
قال: (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضي عنه) [١]

ليس هناك أحد لم يتعرض في يوم من الأيام لظروف مادية طارئة أُلجأته للاقتراض كي يتجاوز محتته دون أن يعرض نفسه لذل السؤال أو إهانة الكرامة أو الشعور بالمهانة، لذلك حفظ الإسلام للناس حياءهم، وماء وجههم، وأعلى كرامتهم، عندما فتح باب الاستدانة بينهم بالمعروف، ليربط الصلة بين الغني والفقير، ويؤكد أواصر المحبة بين القوي والضعيف، ويساعد على وجود الرفق في حالات العسرة والضيق، ويوفر الرحمة بين العباد في تفريج كربهم وتيسير أمورهم.

وقد يتصور البعض أن الإقراض ليس فيه ثوابا لأن المال يعود كما ذهب، ولكن الأمر على عكس ذلك، فإن فضل الإقراض كبير وثوابه عظيم، فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (ما من مسلم يقرض مسلما قرضا مرتين إلا كان كصدقتها مرة) [٢]

وعنه أيضا قال -صلى الله عليه وسلم-: (إن السلف يجري مجرى شطر الصدقة) [٣] وبعض العلماء يفضل القرض على الصدقة؛ لأن الصدقة يأخذها المحتاج وغيره، أما القرض فلا يطلبه إلا من أحتاج إليه.

والاستدانة (الخالية من الربا والمحظورات الشرعية) مشروعة من حيث الأصل، لكنها شرعت بضابطين وقيدتين:

- (أولهما) وجود الحاجة الفعلية المشروعة للاستدانة وليس مجرد التوسع والترفيه.
- (ثانيهما) غلبة الظن بالقدرة على الوفاء.

ومخالفة هذين الشرطين تجعل الاستدانة تدخل في حيز المحذور الشرعي الذي يصل إلى التحريم.

ولقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- من الدين في أحاديث كثيرة، بل شدد -صلى الله عليه وسلم- فيه لدرجة أنه كان -صلى الله عليه وسلم- لا يصلي على من توفي وعليه دين.

فعن جابر بن الله -رضي الله عنه- قال: مات رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ووضعناه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث توضع الجنائز، عند مقام جبريل، ثم آذنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالصلاة عليه، فجاء معنا فتخطى خطى ثم قال: لعل على صاحبكم ديناً؟ قالوا: نعم ديناران، فتخلف وقال: صلوا على صاحبكم، فقال له رجل منا يقال له أبو قتادة: يا رسول الله هما علي، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: هما عليك وفي مالك، والميت منها برئ؟ فقال: نعم، فصلى عليه، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا لقي أبا قتادة يقول: ما صنعت الديناران؟ حتى كان آخر ذلك أن قال: قد قضيتهما يا رسول الله، قال: الآن حين بردت عليه جلده [٤]

وإذا كان الدين لا يغفره الله للشهيد الذي قتل في سبيله فكيف بمن هو دون ذلك، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال -صلى الله عليه وسلم-: ((يغفر الله للشهيد كل ذنب إلا الدين)) [٥]

وعن أبي قتادة -رضي الله عنه- أن رجلاً قال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر إلا الدين)) [٦]

وعن ثوبان -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من جاء يوم القيامة بريئاً من ثلاث، دخل الجنة: الكبر، والغلول، والدين)) [٧]

أما عون الله عز وجل للمدين فمقيد فيما إذا كان الدين من أجل غرض مأذون به شرعاً مما أباحه الله عز وجل، لحديث ابن ماجه عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال

-صلى الله عليه وسلم-: (كان الله مع الدائن حتى يقضي دينه، ما لم يكن فيما يكرهه الله)
[٨]

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: ((من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله)) [٩]
وقال -صلى الله عليه وسلم-: (ما من أحد يدان ديناً يعلم الله منه أنه يريد قضاءه إلا أداه الله عنه في الدنيا) [١٠]، وفي رواية (من أخذ ديناً وهو يريد أن يؤديه أعانه الله)
[١١]

وعن صهيب الخير -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أيما رجل تداين ديناً وهو مجمع أن لا يوفيه إياه لقي الله سارقاً) [١٢]
ويجب على المسلم أن يعلم أن أموال الناس ليست مرتعاً مباحاً يرتع فيه كيفما يشاء وحيثما أراد، ولكنها مصونة ومحفوظة ولا يجوز أكلها بالباطل، ومن العجيب من البعض أنه إن استدان ديناً جحده، وإن استقرض قرضاً تظاهر أنه نسيه، فسبحان ربي! كيف يهناً بالطعام والشراب والمنام، من ذمته مشغولة، وكيف تسمح للإنسان نفسه أن يجحد سلف أخيه، أو يماطله في ذلك، والمقرض فعل ذلك إحساناً وقربه، والله تعالى يقول: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن: ٦٠].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: ((مطل الغني ظلم))
[١٣]

وعن عن الشريد بن سويد -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لي الواجد يجل عرضه وعقوبته)) [١٤]

وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((خيار الناس أحسنهم قضاء)) [١٥]
وعن عبد الله بن أبي ربيعة قال -صلى الله عليه وسلم-: (إنما جزاء السلف الحمد والوفاء) [١٦]

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقضي الدائن بأكثر مما استدان منه، ويضاعف له الوفاء، ويدعو له، كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان لي على النبي -صلى الله عليه وسلم- دين، فقضاني وزادني [١٧]

وقال عبد الله بن أبي ربيعة: استقرض مني النبي -صلى الله عليه وسلم- أربعين ألفاً، فجاءه مال، فدفعه إلي، وقال: ((بارك الله تعالى في أهلك ومالك)) [١٨]

ومن الآداب العامة في الديون وجوب إنظار المعسر لقوله تعالى: {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون} [البقرة: ٢٨٠]. أي إمهاله حتى يوسر، ولا يجوز مطالبته بالدين مادام معسراً.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: ((من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة)) [١٩]

وعن كعب بن عمر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول ((من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله)) [٢٠]

الهوامش

- [١] رواه أحمد: ٤٤٠/٢، والترمذي: ١٠٧٩، والبخاري: ٢١٤٨، وقال: حديث حسن، والحاكم: ٢٧/٢، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي [٢] صحيح ابن ماجة للألباني ١٩٨٧ [٣] صحيح الجامع ١٦٤٠ [٤] رواه أحمد ٣٣٠/٣ بإسناد حسن [٥] رواه مسلم ١٨٨٦ [٦] رواه مسلم ١٨٨٥ [٧] رواه الحاكم: ٦٢/٢ وصححه ووافقه الذهبي [٨] صحيح ابن ماجة / الألباني برقم ١٩٦٨ [٩] رواه البخاري ٢٣٨٧ [١٠] صحيح النسائي للألباني ٤٧٠٠ عن ميمونة -رضي الله عنها- [١١] صحيح الجامع ٥٩٨١ [١٢] صحيح ابن ماجة ١٩٥٤ [١٣] صحيح الجامع ٥٨٧٥ [١٤] صحيح الجامع ٥٤٨٧ [١٥] متفق عليه [١٦] صحيح النسائي للألباني ٤٦٩٧ [١٧] رواه أبو داود: ٣٣٤٧ [١٨] رواه النسائي ٤٦٨٣ [١٩] صحيح ابن ماجة للألباني ١٩٧٦ [٢٠] رواه مسلم ٣٠٠٦

الرفق خلق الإسلام

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-
قال: (من أعطي حظه من الرفق، فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم
حظه من الرفق، فقد حرم حظه من الخير) (١)

لا تكاد ساحة من ساحات الإسلام إلا وللرفق فيها النصيب الأكبر والحظ الأوفر،
سواء على مستوى التشريع الفقهي أو في جانب العلاقات الاجتماعية أو في المعاملة حتى
مع الخصوم والأعداء أو في غيرها من المواطن، هذا فضلا عن أنه تعالى عرف نفسه لعباده
بأنه الرفيق الذي يحب الرفق، وكان رسوله -صلى الله عليه وسلم- نبراسا في هذا الشأن ما
لم تنتهك حرمة من حرمت الله.

كل هذا الارتباط الوثيق بين الإسلام والرفق جعل منه بحق دين الرحمة والسماحة مهما
تعسف المغرضون في وصمه بالعرف والإرهاب.

إن الرفق ضد العنف وهو المداراة مع الرفقاء ولين الجانب واللطف في أخذ الأمر
بأحسن الوجوه وأيسرها، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا
الْقَلْبِ لَإِنْفَضُوهَا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩]

فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم
وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.. في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم
إلى عطاء ويحمل همومهم ولا يعينهم بهممه ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف
والسماحة والود والرضاء... وهكذا كان قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهكذا
كانت حياته مع الناس (٢)

وقال عز وجل: {وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥] فهو الدين والتواضع والرفق في صورة حسية مجسمة، صورة خفض الجناح كما يخفض الطائر جناحيه حين يهبط وكذلك كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع المؤمنين طوال حياته (٣)

وقال أيضا: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: ٦٣] الهون: مصدر الهين وهو من السكينة والوقار، أي: يمشون حلما متواضعين، وقيل لا يتكبرون على الناس (٤)

وقوله -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث (من أعطي حظه من الرفق) أي نصيبه منه (فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير) كله إذ به تنال المطالب الأخروية والدينية وبفوته يفوتان.

وقال في اللمعات: يعني أن نصيب الرجل من الخير على قدر نصيبه من الرفق، وحرمانه منه على قدر حرمانه منه، ولهذا قال نسطور لما بعث صاحبيه ليدعوان الملك إلى دين عيسى وأمرهما بالرفق فخالفا وأغلظا عليه فحبسهما وآذاهما فقال لهما نسطور: مثلكما كالمراة التي لم تلد قط فولدت بعد ما كبرت فأحبت أن تعجل شبابه لتنتفع به فحملت على معدته ما لا يطيق فقتلته (٥)

والنصوص النبوية عديدة ومتنوعة في تأكيد هذا المعنى، فقال -صلى الله عليه وسلم- : (من يكرم الرفق يحرم الخير كله) (٦) وفيه فضل الرفق وشرفه، ومن ثم قيل الرفق في الأمور كالمسك في العطور.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله) (٧) أي لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل والدفع بالأخف وقوله (في الأمر كله) في أمر الدين وأمر الدنيا، حتى في معاملة المرء نفسه، ويتأكد ذلك في معاشرته من لا بد للإنسان من معاشرته كزوجته وخادمه وولده، فالرفق محبوب مطلوب مرغوب، وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف مثله من الشر.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف) (٨)

وقال: (إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف) (٩) فقوله (إن تعالى الله رفيق) أي لطيف بعباده يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، فيكلفهم فوق طاقتهم، بل يسامحهم ويلطف بهم (يحب الرفق) لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل، أي يجب أن يرفق بضعكم ببعض (ويعطي عليه) في الدنيا من الثناء الجميل ونيل المطالب وتسهيل المقاصد وفي العقبي من الثواب الجزيل (مالا يعطي على العنف) وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف من الشر مثله. نبه به على وطاعة الأخلاق وحسن المعاملة وكمال المجاملة ووصف الله سبحانه وتعالى بالرفق إرشاداً وحثاً لنا على تحري الرفق في كل أمر (١٠)

وقال -صلى الله عليه وسلم- لعائشة -رضي الله عنها-: (عليك بالرفق إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه) (١١) لأن به تسهل الأمور، وبه يتصل بعضها ببعض، وبه يجتمع ما تشتت ويأتلف ما تنافر وتبدد ويرجع إلى المأوى ما شذ وهو مؤلف للجماعات جامع للطاعات، ومنه أخذ أنه ينبغي للعالم إذا رأى من يخل بواجب أو يفعل محرماً أن يترفق في إرشاده ويتلطف به (١٢)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (ما أعطي أهل بيت الرفق إلا نفعهم) (١٣)
وقال: (إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق) (١٤) وذلك بأن يرفق بعضهم ببعض، والرفق لين الجانب واللطف والأخذ بالأسهل وحسن الصنيع.

قال الغزالي: الرفق محمود وضده العنف والحدة والعنف ينتجه الغضب والفظاظة، والرفق واللين ينتجهما حسن الخلق والسلامة، والرفق ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولذلك أثنى المصطفى -صلى الله عليه وسلم- على الرفق وبالغ فيه (١٥)

وقال ابن عمر: العلم زين والتقوى كرم والصبر خير مركب، وزين الإيمان العلم وزين العلم الرفق وخير القول ما صدقه الفعل (١٦)

وعن حبيب بن حجر القيسي قال: كان يقال ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم (١٧)

وعن جابر -رضي الله عنه- قال: الرفق رأس الحكمة (١٨)
وعن ابن عباس قال: لو كان الرفق رجلاً كان اسمه ميموناً، ولو كان الخرق رجلاً كان اسمه مشؤوماً (١٩)

وقال جرير: الرفق في المعيشة خير من كثير التجارة (٢٠)
وعن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: وقف رجل بين يدي المأمون قد جنى جنابة، فقال له والله لأقتلنك فقال الرجل يا أمير المؤمنين تأن على فإن الرفق نصف العفو، قال: فكيف وقد حلفت لأقتلنك؟ قال: يا أمير المؤمنين لان تلقى الله حائثاً، خير لك من أن تلقاه قاتلاً، فخلى سبيله (٢١)

وعن نصر بن علي قال: دخلت على المتوكل فإذا هو يمدح الرفق فأكثر، فقلت: يا أمير المؤمنين أنشدني الأصمعي:

ولم أر مثل الرفق في لينه أخرج العذراء من خدرها
من يستعن بالرفق في أمره يستخرج الحية من جحرها

فقال يا غلام الدواة والقرطاس فكتبهما (٢٢)

الهوامش

(١) رواه الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الرفق رقم ٢٠١٣، ورواه أحمد في المسند ١٩٣/١ رقم ٣٩٣ ورواه البخاري في الأدب المفرد ١٦٤/١ رقم ٤٦٤ وفي مسند الشهاب للقضاعي ٢٤٧/١ رقم ٤٤٤ والحديث (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٠٥٥ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب ص ٥٠١ (٣) الظلال ٢٦٢٠ (٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - تفسير الآية من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٩١٩ بتصريف (٥) انظر فيض القدير للمناوي ٤٥٨/٢ وتحفة الأحوذى بشرح الترمذى للمباركفوري - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الرفق ج ٦ ص ١٢١ ط دار الفكر (٦) رواه مسلم وأحمد وأبو داود عن جرير انظر حديث رقم: ٦٦٠٦ في صحيح الجامع. (٧) رواه البخاري عن عائشة انظر حديث رقم: ١٨٨١ في صحيح الجامع (٨) رواه الطبراني عن معدان (صحيح) انظر حديث رقم: ١٧٧٠ في صحيح الجامع (٩) رواه أبو داود عن عبد الله بن المغفل (صحيح) انظر حديث رقم: ١٧٧١ في صحيح الجامع (١٠) فيض القدير للمناوي ٤٦٥/٢ (١١) رواه مسلم عن عائشة انظر حديث رقم: ٤٠٤١ في صحيح الجامع. (١٢) فيض القدير ٧٨٥/٢ (١٣) رواه الطبراني عن ابن عمر (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٥٤١ في صحيح الجامع (١٤) رواه أحمد عن عائشة، والبخاري عن جابر (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٠٣ في صحيح الجامع. (١٥) فيض القدير ٦٢٥/٢ (١٦) الفردوس بمأثور الخطاب ج: ٣ ص: ٧٠ رقم ٤١٩٦ (١٧) الزهد لابن المبارك ج: ١ ص: ٤٧٠ رقم ١٣٣٦ (١٨) الفردوس بمأثور الخطاب ج: ٢ ص: ٢٨٠ رقم ٣٢٩٨ (١٩) الفردوس بمأثور الخطاب ج: ٣ ص: ٣٤١ رقم ٥٠٢٧ (٢٠) الفردوس بمأثور الخطاب ج: ٢ ص: ٢٨٠ رقم ٣٣٠٠ (٢١) تاريخ بغداد ج: ١٠ ص: ١٩١ (٢٢) تاريخ بغداد ج: ١٣ ص: ٢٨٧

حسن الجوار

عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال -صلى الله عليه وسلم: (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره) [١]

يتيقن صاحب الفكر المستنير والنظرة الواعية لآداب الأخوة والجوار في الإسلام أنها تتمتع بمسحة اجتماعية تقوي أواصر النسيج الاجتماعي الذي يقرب بين الأخلاء والجيران في المكان والزمان، وكذلك في المصالح العامة والمنافع المشتركة التي يقتضيها القرب المكاني والمضايقة، وإذا كان التضامن أو التكافل هو التعاون المثمر الذي يقيمه الناس فيما بينهم، فإن الجار أحق الناس في إقامة هذا التعاون والتبادل البناء والمثمر لتقدم الجار على غيره، ومن هنا كانت حكمة الإسلام في دعوة المسلمين إلى تعميم الإحسان ونشر البر على الجار بغض النظر عن القرابة في الدين أو النسب.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [النساء: ٣٦]

ولقد أفاضت السنة النبوية في بيان رعاية حقوق الجار، والوصية به، وصيانة عرضه، والحفاظ على شرفه، وستر عورته، وسد خلته. ومن أجل تلك النصوص قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) (٢) فلم تكن الوصية الخالدة التي أوصى بها جبريل عليه السلام نبينا -صلى الله عليه وسلم- بالجار وصية كباقي الوصايا، بل زادت أهميتها بتلك الصيغة التي بالغ فيها المصطفى -صلى الله عليه وسلم- بقوله (حتى ظننت أنه سيورثه).

قال الإمام الغزالي: آداب الجار أن يبدأ بالسلام ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عليه وعن حاله السؤال، ويعوده في مرضه، ويعزيه عند مصيبتة، ويقوم معه في عزائه، ويهنئه في فرحه، ويشاركة في سروره، ويتلطف في معاملة أولاده، ويصفح عن زلاته، وبعاتبه برفق عند هفواته، ويغض بصره عن حرمه، ويعينه في نوائبه، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ولا يضايقه بصوته، ولا يؤذيه بوضع الجذع على جداره، ولا يصيب الماء في ميزابه، ولا يطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طريقه إلى داره، ولا يتبعه بالنظر فيما يحمله إلى بيته، ويستر ما ينكشف من عوراته، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً من عدوه، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

قال -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ...)

(٣)

وأوصى -صلى الله عليه وسلم- أبا ذر -رضي الله عنه- بقوله: (يا أبا ذر! إذا

طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك) (٤)

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله إن لي جارين، فألى أيهما

أهدى؟ قال: (إلى أقربهما منك باباً) (٥)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر

الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً)

(٦)

ومن حق الجار التعرف عليه وتفقد أحواله، فمن الناس من لا يعرف جاره الملاصق،

وربما دامت الجيرة سنوات عديدة وهم على هذا الحال، إما تجاهلاً، أو تهاوناً أو اشتغالاً

بالدنيا. وهذا يكثر في المدن الكبرى؛ التي تزرح تحت وطأة المدنية الحديثة، ولا ريب أن هذا

الصنيع تفريط وتقصير؛ فمن حق الجار أن تتعرف عليه وتجعل لفرحه وحزنه ومشكلاته حيزاً

من تفكيرك ومشاعرك، ولا يحصل هذا إلا بتفقد أحواله، والسؤال عن حاجاته، فقد يكون

مريضاً وقد يكون مديوناً، وقد وقد.

كم من إنسان ينام قرين العين وجاره قد أطارت الهموم والأحزان النوم عنه.. فهل يليق هذا؟! وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم) (٧)

ويروى أنه كان محمد بن الجهم جاراً لسعيد بن العاص عاش سنوات ينعم بجواره فلما عرض محمد بن الجهم داره للبيع بخمسين ألف درهم، وحضر الشهود ليشهدوا، قال: بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص؟ قالوا: إن الجوار لا يباع، وما جئنا إلا لنشتري الدار. فقال: وكيف لا يباع جوار من إذا سألته أعطاك، وإن سكت عنه بادرِك بالسؤال، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن هجته عطف عليك؟ فبلغ ذلك الكلام جاره سعيد بن العاص فبعث إليه بمائة ألف درهم وقال له: أمسك عليك دارك.

وإذا كان الأذى بغير حق محرم، فأذية الجار أشد تحريماً وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره...) (٨)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن). قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه) (٩) [أي غوائله وشؤونه]

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) (١٠)

وقيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله! إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل، وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا خير فيها، هي من أهل النار). قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصدق بأثوار من الأقط، ولا تؤذي أحداً؟ فقال رسول الله: (هي من أهل الجنة) (١١)

فلو حقق الناس آداب الشرع في نفوسهم لسعدت البشرية جمعاء وعاش الناس في أمن وطمأنينة ولم نجد هذا التصدع في صرح البناء الاجتماعي للأسرة والمجتمع، بل تخطى ذلك إلى تصدع بين الدول العربية والإسلامية، ولو أقام المسلمون آداب الجوار التي بينتها لنا السنة النبوية المطهرة وأخذوا بها في واقعهم لذاب هذا التشرذم وتوطدت أواصر المحبة بين الأفراد والمجتمعات والشعوب والدول.

الهوامش

- [١] رواه ابن حجر العسقلاني في الأملالي المطلقة رقم ٢٠٨، والحديث رواه أيضا الترمذي وأحمد في مسنده ٧٤/١٠ وقال أحمد شاكر صحيح (٢) البخاري عن عبد الله بن عمر رقم ٦٠١٥ ومسلم رقم ٢٦٢٥ (٣) رواه البخاري عن أبي شريح العدوي رقم ٦٠١٩ (٤) رواه مسلم رقم ٢٦٢٥ (٥) رواه البخاري رقم ٢٠٠٥ (٦) أورده الألباني في السلسلة الصحيحة عن أبي هريرة ٦٠١/٢ (٧) صحيح الترغيب والترهيب للمنذري بتحقيق الألباني رقم ٢٥٦١ (٨) رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- رقم ٦١٣٦ (٩) رواه البخاري عن أبي شريح رقم ٦٠١٦ (١٠) رواه مسلم عن أبي هريرة رقم ٤٦ (١١) صحيح الأدب المفرد البخاري / الألباني عن أبي هريرة رقم ٨٨

سلوا الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله، قال: (سل الله العافية) فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله، فقال لي: (يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة) (١)

«لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر».. بهذه الكلمات الندية الجليلة كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعلن بين صحابة النبي صلى الله عليه وسلم رؤية الإسلام الواضحة تجاه قضية السراء والضراء.. قضية البلاء والابتلاء، ليكشف للدنيا كلها وسطية هذا الدين ومنهجه المتوازن المتناسق في كل أبعاده مع كيان الإنسان.

هذا الإنسان الضعيف الذي قد تخدعه بعض لحظات الصفاء فيتمنى لو طهره الله من الذنوب في الدنيا فيعجل له البلاء والعقوبة، وهيئات أن يكون تمنى البلاء مما يرضاه الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم.

بل باب التوبة والعافية خير وأبقى، هذا فضلاً على أن المرء لا يعلم مآل أمره إذا تمنى البلاء هل يصبر أو يضعف.. بل إن تمنى البلاء فيه من صورة الإعجاب بالنفس والافتكاح على القوة والثوق بها وترك الاستعانة بالله تعالى، فنسأل الله العافية والسلامة التي لا يعدلها شيء.

يقول ابن الجوزي: «السعيد من ذل لله وسأل العافية، فإنه لا يوهب العافية على الإطلاق، إذ لا بد من بلاء، ولا يزال العاقل يسأل العافية ليتغلب على جمهور أحواله، فيقرب الصبر على سير البلاء، وفي الجملة ينبغي للإنسان أن يعلم أنه لا سبيل لمحوباته خالصة، ففي كل جرعة غصص، وفي كل لقمة شجأ، وعلى الحقيقة ما الصبر إلا على

الأقدار، وقل أن تجري الأقدار إلا على خلاف مراد النفس، فالعاقل من دارى نفسه في الصبر بوعده الأجر، وتسهيل الأمر، ليذهب زمان البلاء سالماً من شكوى، ثم يستغيث بالله تعالى سائلاً العافية، فأما المتجلد فما عرف الله قط، نعوذ بالله من الجهل به، ونسأله عرفانه إنه كريم مجيب» (٢)

قال المباركفوري في شرح الترمذي: في أمره صلى الله عليه وسلم للعباس بالدعاء بالعافية بعد تكرير العباس سؤاله بأن يعلمه شيئاً يسأل الله به، دليل جلي بأن الدعاء بالعافية لا يساويه شيء من الأدعية ولا يقوم مقامه شيء من الكلام الذي يدعى به ذو الجلال والإكرام، والعافية هي دفاع الله عن العبد، فالداعي بها قد سأل ربه دفاعه عن كل ما ينويه، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عمه العباس منزلة أبيه، ويرى له من الحق ما يرى الولد لوالده، ففي تخصيصه بهذا الدعاء وقصره على مجرد الدعاء بالعافية تحريك لهمم الراغبين على ملازمته، وأن يجعلوه من أعظم ما يتوسلون به إلى ربهم سبحانه وتعالى، ويستدفعون به في كل ما يهمهم، ثم كلمه صلى الله عليه وسلم بقوله: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة» فكان هذا الدعاء من هذه الحثية قد صار عدة لدفع كل ضرر وجلب كل خير، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً. (٣)

وقال الجزري في عدة الحصن الحصين: «لقد تواتر عنه صلى الله عليه وسلم دعاءه بالعافية، وورد عنه صلى الله عليه وسلم لفظاً ومعنى من نحو من خمسين طريقاً» ومن أشهر هذه الأحاديث الصحاح قوله صلى الله عليه وسلم: (ما سئل الله شيئاً أحب إليه من أن يُسأل العافية) (٤) وقال صلى الله عليه وسلم: (سلوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية) (٥)

قال المناوي: (سلوا الله العفو والعافية) أي واحذروا سؤال البلاء (فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية) أفرد العافية بعد جمعها لأن معنى العفو محو الذنب، ومعنى العافية السلامة من الأسقام والبلاء فاستغنى عن ذكر العفو بها لشمولها، ثم إنه جمع بين

عافيتي الدنيا والدين لأن صلاح العبد لا يتم في الدارين إلا بالعتو واليقين، فاليقين يدفع عنه عقوبة الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه (٦)

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاهها، لك مآتها ومحياها، إن أحيتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها، اللهم إني أسألك العافية) (٧)

بل لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي وآمن روعاتي؛ اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي) (٨)

وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه يوم الطائف: (إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي) فلاذ بعافيته كما استعاذ بها في قوله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك) (٩)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد رجلا قد جهد حتى صار مثل فرخ [أي ضعف] فقال له: (أما كنت تدعو، أما كنت تسأل ربك العافية) قال: كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (سبحان الله إنك لا تطيقه، أو لا تستطيعه، أفلا كنت تقول: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار) (١٠)

وكان عبد الأعلى التيمي يقول: «أكثرنا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافي الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رُب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يؤمن من أطل المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة».

ولما كانت الصحة والعافية من أجل نعم الله على عبده وأجزل عطاياه وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمایتها عما يضادها، فعن عبد الله بن مَحْصَنِ الأنصاري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا» (١١)

الحواشي

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات رقم ٣٥١٤، والشوكاني في الفتح الرباني ٥٥١٦/١١ وقال روي بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح - غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث، والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي والسلسلة الصحيحة ٢٩/٤ (٢) صيد الخاطر ص ٢٣٣ (٣) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ٣٩٥/٩ بتصرف (٤) رواه الترمذي رقم ٣٥١٥ عن عبد الله بن عمر (٥) رواه أحمد والترمذي رقم ٣٥٥٨ عن أبي بكر. [صحيح الجامع ٣٦٣٢] (٦) فيض القدير للمناوي ٥٢/٢ (٧) رواه مسلم عن ابن عمر (٨) رواه أبو داود رقم ٥٠٧٤ عن عبد الله بن عمر (٩) رواه أبو داود رقم ٨٧٩ عن عائشة (١٠) رواه الترمذي رقم ٣٤٨٧ (١١) رواه الترمذي رقم ٢٣٤٧

علم بلا عمل هلاك محقق

عن خباب بن الأرت -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
[إن بني إسرائيل لما هلكوا قصوا] [١]

العلم النافع والعمل الصالح هما مفتاح السعادة، وأساس النجاة للعبد في معاشه ومعاده، ومن رزقه الله علماً نافعاً ووفقه لعمل الصالح؛ فقد حاز الخير، وحظي بسعادة الدارين، قال تعالى: {مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧].

إن الكلمة لتنبعث ميتة وتصل هامة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيمياً واقعياً لما ينطق، عندئذ يؤمن الناس ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طين ولا بريق، إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها، إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة. (٢)

قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤].

وقال تعالى عن شعيب عليه الصلاة والسلام: {... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمُ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢-٣]

قال المناوي: (إن بني إسرائيل) أولاد يعقوب العبد المطيع ومعناه «عبد الله» فإسرا هو العبد أو الصفوة وإيل هو الله (لما هلكوا قصوا) أي لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى

القصص وعولوا عليها واكتفوا بها، وفي رواية: لما قصوا هلكوا أي لما اتكلوا على القول وتركوا العمل كان ذلك سبب إهلاكهم، وكيفما كان ففيه تحذير شديد من علم بلا عمل (٣)

وعن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قال: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: (يَجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطْرَحُ فِي النَّارِ فَيَطْحَنُ فِيهَا كَطْحَنِ الْحِمَارِ بِرَحَاهُ فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ أَيُّ فُلَانٍ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ إِنِّي كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَفْعَلُهُ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَفْعَلُهُ) (٤)

وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ) (٥)

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ -رضي الله عنه- قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ كَانَ يَقُولُ: (... إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا) (٦)

وعن جندب بن عبد الله -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ) (٧).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) (٨)

وعن علي -رضي الله عنه- أنه ذكر فتناً في آخر الزمان، فقال له عمر: متى ذلك يا علي؟ قال: " إذا تفقه لغير الدين وتعلم العلم لغير العمل والتمست الدنيا بعمل الآخرة ". وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: " تعلموا فإذا علمتم فاعملوا ".

وعن لقمان بن عامر قال: كان أبو الدرداء -رضي الله عنه- يقول: "إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر. فأقول: لبيك ربّ. فيقول: ما عملت فيما علمت " وقال الحسن: " لقد أدركت أقواماً كانوا أمر الناس بالمعروف وآخذهم به، وأنهى الناس عن المنكر وأتركهم له، ولقد بقينا في أقوام أمر الناس بالمعروف وأبعدهم عنه، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه. فكيف الحياة مع هؤلاء؟ " يقول ابن جماعة رحمه الله: "واعلم أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذي قصدوا به وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم، لا من طلبه لسوء نية، أو خبث طوية، أو لأغراض دنيوية: من جاه أو مال أو مكاترة في الأتباع والطلاب " (٩)

" إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، والإسلام عقيدة متحركة لا تطبق السلبية، فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور، تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج، ولتترجم نفسها إلى حركة في عالم الواقع. ومنهج الإسلام الواضح يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل " (١٠)

ولهذا ينبغي على العاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يقدم على العمل، وينظر في همه وقصده، فالمرء إذا نفى الخطرات قبل أن تتمكن من القلب سهل عليه دفعها، ذلك أن بداية الأفعال من الخطرات، فالخطرة النفسية والهـم القلبي قد يقويان حتى يصبحا وسواس، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة الجازمة لا بد أن تكون فعلا.

ومما يقوى في الإنسان إرادة الخير الإكثار من العمل الصالح على علم وبصيرة ومعرفة بالحلال والحرام، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: الطريق إلى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزكية الكاملة، حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرار مع تقارب الزمان، حدث منها للنفس هيئة راسخة، تقتضي تلك الأفعال وتقاضاها بحيث يصير له بالعبادة كالطبع فيخف ما يستثقله من الخير.

الهوامش

- [١] رواه الطبراني والضياء المقدسي في المختارة وحسنه (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٠٤٥ في صحيح الجامع. (٢) في ظلال القرآن [٨٥/١]. (٣) فيض القدير للمناوي ٥٢٤/١ (٤) رواه البخاري ومسلم (٥) رواه الترمذي والدارمي، وانظر الصحيحة للألباني رقم ٩٤٦. (٦) رواه مسلم (٧) رواه الطبراني في الكبير [١٦٥/٢، ١٦٧]. قال المنذري: وإسناده حسن إن شاء الله. انظر صحيح الترغيب [١٢٨/١] (٨) رواه أحمد، وسنده حسن انظر صحيح الترغيب [١٢٥/١] (٩) [تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣] (١٠) [في ظلال القرآن [١١٤/٦].

مَنْ الْمُتَكَلِّمُ أَنْفَاءً؟

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى الصَّلَاةِ وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُصَلِّي، فَقَالَ حِينَ انْتَهَى إِلَى الصَّفِّ: «اللَّهُمَّ آتِنِي أَفْضَلَ مَا تُؤْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»، قَالَ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ-، فَقَالَ: مَنْ الْمُتَكَلِّمُ أَنْفَاءً؟ قَالَ الرَّجُلُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِذَا يُعْقَرُ جَوَادُكَ وَتُسْتَشْهَدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وفي رواية أبي يعلى: إِذَا يُعْقَرُ جَوَادُكَ وتقتل في سبيل الله.

وفي رواية: فقال: إِذَا يُعْقَرُ جَوَادُكَ وتهراق مهجتك في سبيل الله.

[قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وتعليق الذهبي قى

التلخيص: على شرط مسلم، وقال الألباني: ضعيف - «التعليق الرغيب» (٢ / ١٩٩).

وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن مسلم بن عائذ]

** وَعَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (أَنْ يُعْقَرَ جَوَادُكَ، وَيُهْرَاقَ دَمُكَ) [رواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١٣٦٥]

** قَالَ أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ وَالْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْحَارِثِ يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِي كَثِيرِ الرَّبِيعِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ [القبیح من القول]، وَلَا التَّفَحُّشَ [أي تكلف إيجاد الفحش]، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحَّ، أَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ، فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمُ بِالْبُخْلِ، فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمُ بِالْفُجُورِ، فَفَجَرُوا، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ

الله، أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، فَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْهَجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : الْهَجْرَةُ هَجْرَتَانِ: هَجْرَةُ الْحَاضِرِ وَهَجْرَةُ الْبَادِي، فَأَمَّا الْبَادِي فَيُجِيبُ إِذَا دُعِيَ وَيُطِيعُ إِذَا أُمِرَ، وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَهُوَ أَعْظَمُهُمَا بَلِيَّةً [الشدة والمصيبة والفتنة] وَأَفْضَلُهُمَا أَجْرًا، وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ: فَنَادَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ أَنْ يُعْقَرَ جَوَادُكَ وَيُهْرَاقَ دَمُكَ.

[رواه أبو داود مختصراً والحاكم واللفظ له وقال صحيح على شرط مسلم]

قوله: (أن تهجر) أي تترك، فأريد بالهجرة الترك، وفيه أن ترك المعاصي خير من ترك الوطن، فإن المقصود الأصلي من ترك الوطن هو ترك المعاصي، (هجرة الحاضر) أي المقيم بالبلاد والقرى (والبادي) المقيم بالبادية، (فَيُجِيبُ إِذَا دُعِيَ) أي لا حاجة في حقه إلى ترك الوطن بل حضوره في الجهاد يكفي (وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَهُوَ أَعْظَمُهُمَا بَلِيَّةً وَأَفْضَلُهُمَا أَجْرًا) لما روى في الصحيح عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يَخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يَخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ). [رواه أحمد وغيره]

قال المناوي: ومن ثم عدوا من أعظم أنواع الصبر «الصبر على مخالطة الناس وتحمل أذاهم»، واعلم أن الله لم يسلطهم عليك إلا لذنوب صدر منك فاستغفر الله من ذنبك، واعلم أن ذلك عقوبة منه تعالى، وكن فيما بينهم سمياً لحقهم أصم عن باطلهم نطقاً بحاسنهم صموتاً عن مساوئهم، لكن احذر مخالطة متفهمة الزمان ذكره الغزالي، وقال الذهبي في الزهد: مخالطة الناس إذا كانت شرعية فهي من العبادة وغاية ما في العزلة التبعيد فمن خالطهم بحيث اشتغل بهم عن الله وعن السنن الشرعية فذا بطل فليفرّ منهم، واستدل به البعض على أن حج التطوع أفضل من صدقة النفل لأن الحج يحتاج لمخالطة الناس، قال حجة الإسلام: وللناس خلاف طويل في العزلة والمخالطة أيهما أفضل مع أن كلاهما لا ينفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إليها وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وميل الشافعي وأحمد إلى مقابله، واستدل كل مذهبه بما يطول، والإنصاف أن الترجيح

يختلف باختلاف الناس فقد تكون العزلة لشخص أفضل والمخالطة لآخر أفضل فالقلب المستعد للإقبال على الله: العزلة له أولى، والعالم بدقائق الحلال والحرم مخالطته للناس ليعلمهم وينصحهم في دينهم أولى وهكذا، ألا ترى إلى تولية النبي صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما من أمرائه، وقوله لأبي ذر إني أراك رجلاً ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تتأمر على اثنين .. الحديث

** يقول الشيخ محمد الغزالي: "ومن هوان الدنيا على الله أن ترك كلاب المترفين فيها تشبع مع المترفين، وأن ترك حملة الوحي فيها يهونون مع الوحي! وفي هذا الحديث حتى الجواد يقتل مع صاحبه.. أصابه من الشهادة مسها القاني! ولو كان مربوطاً بعربة بضاعة لعاش دهرًا.

وكذلك أبي ريك أن يسترجع المختارين من عباده - بعدما أدوا رسالتهم في الحياة - أبي أن يتركوا هذه الحياة سالمين من طعناتها الفاجرة وجراحاتها الغادرة.

فمزق عِلج من المجوس أحشاء عمر، وعدا مافون غر على حياة علي، وتآمرت دولة الأوغاد على قتل حسن البنا.. ولن تزال سلسلة الشهداء تطول حلقة حلقة ما بقي في الدنيا صراع بين الضياء والظلام".

** قال تعالى في سورة الحج: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} {٥٨} لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ {٥٩}

قال أهل العلم: مراتب حسن الأرزاق متفاوتة تفاوت حسن حال المرزوقين، فلا تقتضي الآية تساوي المقتول والمتوفى على كل حال، فللمقتول في سبيل الله مزية على الميت بما أصابه في ذات الله تعالى فهو أفضل منه، ويدل عليه دلائل كثيرة منها قوله عليه السلام لما سئل أي الجهاد أفضل: "أن يعقر جوادك ويهراق دمك"، وأيضاً المقتول في سبيل الله يجيء وريح دمه ريح المسك والميت لم ينل ذلك، وأيضاً المقتول يتمنى الرجعة إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله مرة ثانية لما يرى من فضل الشهادة وليس كذلك الميت، وأيضاً القتل في

سبيل الله يكفر كل ذنب ولم يرد ذلك في الموت، وأيضاً الميت في سبيل الله يغسل، والمقتول لا يغسل، وأيضاً الشهيد المقتول يشفع ولم يرد ذلك في الميت، وأيضاً الشهيد يرى الحور العين قبل أن يجف دمه وليس كذلك الميت. [تفسير روح البيان]

فرخص فيه

روى البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها-: صَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَرَخَّصَ فِيهِ، فَتَنَزَّهُ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهَ ثُمَّ قَالَ: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشِيَّةً)

** قوله: (صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه) الظاهر أن الشيء المرخص فيه ما رواه أنساً رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِمَا كَانَتْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ فَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلَا أَتَزَوِّجُ أَبَدًا فَجَاءَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- إِلَيْهِمْ فَقَالَ: (أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لِكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

وقد يكون المرخص فيه ما روته عائشة -رضي الله عنها- عند مسلم من غسل الجنابة بعد طلوع الفجر في رمضان. (فرخص) أي للناس (فيه) أي في ذلك الصنع أو من أجله (فتنزه) أي تباعد وتحرز (عنه) أي عن ذلك الصنع (قوم فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-) أي تنزههم (فخطب فحمد الله ثم قال ما بال أقوام) استفهام إنكاري بمعنى التوبيخ، أي ما حالهم؟ (يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إنني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشيئة)

** قوله: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ) فيه ما جبل عليه صلى الله عليه وسلم من الخلق العظيم في عدم مخاطبة من صدر منه هفوة وبلغته، وكان إذا بلغه عن أحد شيء يقول (ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا) ولا يقول ما بال فلان لئلا يلحقه في ذلك ما يبغضه عند غيره بل يحصل الانزجار عما كان منه بوقوفه ودخوله في العموم

وعن أنس بن مالك يحدث قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما كان يواجه الرجل بالشيء يكرهه، قال ودخل عليه يوما رجل وعليه أثر الخلق (طيب من الزعفران ونحوه له لون ونهي عنه تجنباً للتشبه بالنساء) والنبى صلى الله عليه وسلم يأكل القرع وكان يعجبه القرع فلما خرج قال لو أمرتم هذا فغسله

** قوله: (فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُم بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشِيَّةً) أي بعذاب الله وغضبه، يعني أنا أفعل شيئاً من المباحات وهم يحترزون عنه، فإن احترزوا لخوف عذاب الله، فأنا أعلم بقدر عذاب الله تعالى منهم، فأنا أولى أن أحترز عنه... إشارة إلى القوة العلمية (وأشدهم له خشية) إشارة إلى القوة العملية.

أي إنهم توهّموا أن رغبتهم عما أفعل أقرب لهم عند الله، وأن فعلي خلاف ذلك. وليس كما توهّموا إذ هو أعلمهم بالقربة وأولاهم بالعمل بها، فمهما فعله - صلى الله عليه وسلم - من عزيمة ورخصة فهو فيه في غاية التقوى والخشية، لم يحمله التفضل بالمغفرة على ترك الجلد في العمل قياماً بالشكر، ومهما ترخص فيه فإنما هو للإعانة على العزيمة ليعملها بنشاط.

وفي رواية للإمام أحمد: (والله إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له قلباً).

قال العلامة ابن رجب الحنبلي: فلما زادت معرفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بربه زادت خشيته له وتقواه، فإن العلم التام يستلزم الخشية كما قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] فمن كان بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه أعلم كان له أخشى وأتقى،، وإنما تنقص الخشية والتقوى بحسب نقص المعرفة بالله.

وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رجلا قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله إني أصبح جنباً وأنا أريد الصيام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (وأنا أصبح جنباً وأنا أريد الصيام فأغتسل وأصوم) فقال الرجل: يا رسول الله إنك لست مثلنا، قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فغضب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: (إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي)

ففي هذه الأحاديث كلها الإنكار على من نسب إليه -صلى الله عليه وسلم- التقصير في العمل للاتكال على المغفرة؛ فإنه كان -صلى الله عليه وسلم- يجتهد في الشكر أعظم الاجتهاد، فإذا عوتب على ذلك وذكرت له المغفرة أخبر أنه يفعل ذلك شكراً؛ كما في الصحيحين عن المغيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم حتى تتفطر قدماه فيقال له: تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: (أفلا أكون عبداً شكوراً). وقد يواصل -صلى الله عليه وسلم- في الصيام وينهاهم ويقول: (إني لست كهيتكم؛ إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني)

فنسبة التقصير إليه -صلى الله عليه وسلم- في العمل لاتكاله على المغفرة خطأ فاحش؛ لأنه يقتضي أن هديه ليس هو أكمل الهدى وأفضله، وهذا خطأ عظيم؛ ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته: (خير الهدى هدى محمد). ويقتضي -أيضاً- هذا الخطأ: أن الاقتداء به في العمل ليس هو أفضل؛ بل الأفضل الزيادة على هديه في ذلك، وهذا خطأ عظيم جداً؛ فإن الله تعالى قد أمر بمتابعته وحث عليها، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [آل عمران: ٣١].

فلهذا كان صلى الله عليه وسلم يغضب من ذلك غضباً شديداً لما في هذا الظن من القبح في هديه ومتابعته والاقتداء به.

**** قال الشعبي: إن الله يحب أن يعمل برخصة كما يجب أن يعمل بعزائه.**

فليس ذلك الحديث دليلاً على تحريم الأخذ بالعزائم؛ لأن ذلك لو كان حراماً لأمر الذين خالفوا رخصته بالرجوع من فعلهم إلى فعله.. فتنزيههم عما رخص فيه النبي كان تعمقاً.

**** قال أهل العلم: في الحديث ذم التعمق والتنزه عن المباح شكاً في إباحته، وفيه الحث على الاقتداء به -صلى الله عليه وسلم- وأن الخير في الاتباع، سواء كان ذلك في العزيمة أو الرخصة، فإن استعمال الرخصة بقصد الاتباع في المحل الذي وردت أولى من استعمال العزيمة، بل ربما كان استعمال العزيمة حينئذٍ مرجوحاً كما في إتمام الصلاة في السفر، وربما كان مذموماً إذا كان رغبة عن السنة كترك المسح على الخفين.**

**** إننا أمام فارقة عظيمة لجيل رائع وبون شاسع من قرون الخيرية عن غيرهم ممن جاءوا بعدهم، قوم هانت في عيونهم الرخصة، وقوم اليوم يبحثون عن رخصة الرخصة إلا من رحم ربي**

**** دوافع الرخصة عند النبي: "التخفيف - والمحبة والشفقة - ومراعاة المستويات - وتغيير القناعات - معرفة وخبرة بالنفوس - خوف المالات - إعلاء الديمومة والاستمرارية على العنفوان والتقطع - إبصار الواقد الجديد على البيئة - مزيد فهم وارتباط بالله ومنهجه - يخلص المسلم من شعوره بثقل تكليفه**

**** قوله: (ومن رغب عن سنتي فليس مني) وبهذا يتبين على أن الأفضلية هي بمتابعة هديه -صلى الله عليه وسلم- والتأسي بسنته وليست بكثرة العمل وهذا هو القول الفصل يعلمنا الترخص أن نهتم بالكيف دون الكم، وأن نضبط الفعل المختصر والقليل، ونحسن الأداء فهو مغنم وغاية، وأن نقوي العلاقة بما لا يثقل الكاهل، وأن نحصل الأجر بأقل العمل، وأن لا نبخس الحق الدنيوي أمام الأخرى، وألا نضيع الأمانات والحقوق والرغبات الأسرية والشخصية لثقل التكاليف المزاحمة للأوقات المستهلكة لها فتأمل.**

فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَرْبَعَةٌ، يُعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ، فَيَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، قَدْ كُنْتُ أَرْجُو إِنْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَنْ لَا تُعِيدَنِي فِيهَا، فَيَقُولُ: فَلَا تَعُودُ فِيهَا) [أحمد ومسلم بنحوه]

** من الناس من لا ينقطع رجاءه بربه بعد دخوله النار ويسوق حسن الظن به فلعله ينجي به دون غيره.

** استشعر معنى الانكسار والعوز دائما فبه تنال ما ليس عند غيره وتفوق أقرانك - حتى من أهل البلاء- في النجاة.

** ذكر من الأربعة واحدا، وحكم عليه بالنجاة وترك الثلاثة اعتمادا على المذكور، ولأن الكافر لا خروج له البتة فيدخل مرة أخرى.

ونحوه في الأسلوب أن يراد أشياء ويذكر بعضها ويترك بعضها كقوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٦-٩٧] فجمع الآيات وفصلها بآيتين إحداهما قوله مقام إبراهيم وثانيتها ومن دخله كان آمنا.. قال في الكشاف ذكر هاتين الآيتين وطوى عن ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات.

** أخي الحبيب

إن لم نحسن الظن بالله تعالى، فبمن نحسن الظن!؟

قالوا في الحكم: إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه، حسن ظنك به لوجود معاملته معك، فهل عودك إلا حسناً، وهل أسدى إليك إلا منناً.

** حسن الظن به تعالى من ركائز الإيمان، وتاج عبادة القلب، ومفتاح متانة العقيدة،
وسر من أسرار السعادة في الدنيا والآخرة.

** قال -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي، إن خيرا
فخير، وإن شرا فشر) [صحيح الجامع: ١٩٠٥]

أي أنا عند يقينه بي، فالاعتماد عليّ والوثوق بوعدي، والرغبة من وعيدي، والرغبة
فيما عندي، أعطيه إذا سأني، وأستجيب له إذا دعاني، كل ذلك على حسب ظنه وقوة
يقينه.. والمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف، والظن الحسن على بابه.

** يقول ابن القيم: ولا ريب أن حسن الظن به إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن
حسن الظن بربه، أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصير
على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن
بربه، وهذا موجود في الشاهد فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن
الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته،
وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: "إن المؤمن أحسن الظن بربه
فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل".

** قال أبو سهل ابن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة -رضي الله
عنها- فقالت: لو رأيتما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مرض له، وكانت عنده ستة
دنانير، أو سبعة دنانير. فأمرني رسول الله أن أفرقها، فشغلني وجعه حتى عافاه الله، ثم سألتني
عنها: (ما فعلت أكنت فرقت الستة دنانير)، فقلت لا والله، لقد كان شغلني وجعك،
قالت: فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: (ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده)، وفي لفظ:
(ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده) [أحمد].

قال الطيبي: في وضع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الدنانير في كفه، ووضع
المظهر موضع المضمرة، وتخصيص ذكر نبي الله، ثم الإشارة بقوله هذه.. تصوير لتلك الحالة

الشيعة واستهجان بها وإيدان بأن حال النبوة منافية لأن يلقي الله ومعه هذا الديء الحقير - انتهى.

** يقول ابن القيم: فبالله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم.. فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: {أَتَفَكَّهُمْ آلهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصفات: ٨٦، ٨٧] أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

** قال -صلى الله عليه وسلم-: (لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) [رواه مسلم]

قال المناوي: "أي لا يموتن أحدكم في حال من الأحوال إلا في هذه الحالة، وهي حسن الظن بالله تعالى بأن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه لأنه إذا حضر أجله وأتت رحلته لم يبق لخوفه معنى بل يؤدي إلى القنوط وهو تضيق مجاري الرحمة والإفضال، ومن ثم كان من الكبائر القلبية، فحسن الظن وعظم الرجاء أحسن ما تزوده المؤمن لقدمه على ربه.. وهذا الحديث قاله قبل موته بثلاث.. وأفاد الحث على العمل الصالح المفضي إلى حسن الظن، والتنبية على تأميل العفو وتحقيق الرجاء في روح الله تعالى".

** وهذا الحديث أصل عظيم في حسن الرجاء في الله وجميل الظن به، وليس لنا وسيلة إليه إلا ذلك، قالوا: والأفضل للمريض أن يكون رجاءه أغلب، قال القرطبي: وقد كانوا يستحبون تلقين المحتضر محاسن عمله ليحسن ظنه بربه.

** قال سليمان بن علي أمير البصرة لعمر بن عبيد: ما تقول في أموالنا التي تعرفها في سبيل الخير؟ فأبطأ في الجواب، يريد به وقار العلم، ثم قال: من نعمة الله على الأمير أنه أصبح لا يجهل أن من أخذ الشيء من حقه ووضعه في وجهه فلا تبعه عليه غداً.

قال الأمير: نحن أحسن ظناً بالله منكم. فقال: أقسم على الأمير بالله، هل تعلم أحداً أحسن ظناً بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا. قال: فهل علمت أنه أخذ

شيئاً قط من غير حله ووضعه في غير حقه؟ قال: اللهم لا. قال: حسن الظن بالله أن تفعل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

** يقول ابن القيم: وأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظن به، فإن من أساء الظن به ظن به خلاف كماله الأقدس، وظن به ما يناقض أسمائه وصفاته، ولهذا توعد عليه بما توعد به غيره فقال: {وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح: ٦] وقال: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ} [فصلت: ٢٢-٢٣].

** قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "الجبن والبخل والحرص غرائز سوء يجمعها كلها سوء الظن بالله عز وجل".

والإنسان كلما ازداد جهلاً بربه ازداد سوء ظن به جل وعلا، وكلما ازداد علماً وبقينا بالله ازداد حسن ظنه بالله عز وجل، قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: ١٥٤]

ولذلك قال في شأن المؤمنين: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ} [الأحزاب: ٢٢-٢٤]

في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدا؟ على كل هين لين قريب سهل (١)

تزكية النفوس -بالتحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن سيئها- مطلب عظيم وربع الرسالة المحمدية، لقوله تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} [آل عمران: ١٦٤]، ولذا أقسم الله عز وجل أحد عشر قسما متتاليا -لم يأت إلا في موضع واحد من القرآن- على أن الفلاح منوط بتزكية النفوس.

فقال جل شأنه: {والشمس، وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها} [الشمس: ١-١٠]

وقال سبحانه: {قد أفلح من تركى وذكر اسم ربه فصلى} [الأعلى: ١٤-١٥]
وتزكية النفوس ملاك دعوة الرسل بعد التوحيد، فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون: {هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتحشى} [النازعات: ١٨-١٩]

بل إن تزكية النفوس سبب الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم، كما قال تعالى: {ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تركى} [طه: ٧٥-٧٦]

وكان من دعائه -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها) (٢)

قال المناوي: (ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار) أي دخول نار جهنم (غداً) أي يوم القيامة وأصل الغد اليوم الذي بعد يومك على أثره ثم توسعوا فيه حتى أطلق على البعيد

المترب، قالوا: أخبرنا قال (على كل هين) مخففاً من الهون بفتح الهاء وهو السكينة والوقار (لين) مخفف لين بالتشديد على فعيل من اللين ضد الخشونة (قريب) أي إلى الناس (سهل) يقضي حوائجهم وينقاد للشارع في أمره ونهيه.

قال الماوردي: بين بهذا الحديث أن حسن الخلق يدخل صاحبه الجنة ويحرمه على النار فإن حسن الخلق عبارة عن كون الإنسان سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة كما سبق لكن لهذه الأوصاف حدود مقدرة في مواضع مستحقة فإن تجاوز بها الخير صارت ملقاً وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقاً والملق ذل والنفاق لؤم (٣) وحاصل الكلام في حسن الخلق يدور على قطب واحد وهو بذل المعروف وكف الأذى وإنما يدرك ذلك بثلاثة أمور: «العلم، والجود، والصبر».

فالعلم يرشد العبد إلى مواقع بذل المعروف، والفرق بينه وبين المنكر، وترتيبه في وضعه مواضعه، فلا يضع الغضب موضع الحلم ولا بالعكس، والإمساك موضع البذل ولا بالعكس، بل يعرف مواقع الخير والشر ومراتبها وموضع كل خلق أين يضعه وأين يحسن استعماله.

قال الحسن البصري: لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله. مدحوا عند الفضيل بن عياض رجلاً وقالوا: إنه لا يأكل الخبيص، فقال الفضيل: وما ترك أكل الخبيص؟! انظروا كيف صلته للرحم! انظروا كيف كظمه للغيب! انظروا كيف عطفه على الجار والأرملة واليتيم! انظروا كيف حسن خلقه مع إخوانه! وعن هشام بن عروة عن أبيه قال مكتوب في الحكمة: ليكن وجهك بسطاً وكلمتك لينة تكن أحب إلى الناس من الذي يعطيهم العطاء.

وقال يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات.

وقال الجنيد: أرفع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان.

روي أن الربيع بن خثيم اشترى فرسا بثلاثين ألفا فغزا عليها وفي يوم أرسل غلامه (يسار) يحتش ويقام يصلي وربط فرسه، فجاء الغلام فقال: يا ربيع أين فرسك؟ قال سرقت يا يسار قال: وأنت تنظر إليها؟! قال: نعم يا يسار، إني كنت أناجي ربي عز وجل فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء، اللهم إنه سرقني ولم أكن أسرقه، اللهم إن كان غنيا فاهده وإن كان فقيرا فأغنه ثلاث مرات.

أما الجود فيبعثه على المسامحة بحقوق نفسه والاستقصاء منها بحقوق غيره فالجود هو قائد جيوش الخير، قال علي الثقفي: لا تقم على خلق تدمه من غيرك ولا تفعل ما لا يحمد منك حتى تصلحه من نفسك ولو بالتخلق.

وكان يحيى بن أبي كثير يقول: لا يعجبكم حلم امرئ حتى يغضب ولا أمانته حتى يطمع فإنك لا تدري على أي شقيه يقع.

وقال ذو النون: إذا غضب الرجل فلم يحلم فليس بحليم لأن الحليم لا يعرف إلا عند الغضب.

عن عائشة -رضي الله عنه- قالت: ما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ضرب خادما له قط، ولا ضرب امرأة له بيده، ولا ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يكون لله، فإن كان لله انتقم له، ولا عرض له أمران إلا أخذ بالذي هو أيسر حتى يكون إثما، فإذا كان إثما كان أبعد الناس منه.

وعن محمد بن القاسم أنه كان يكون بينه وبين الرجل المماراة في الشيء، فيقول له القاسم: هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك، فإن كان حقا هو لك فخذة ولا تحمديني فيه، وإن كان لي فأنت منه في حل وهو لك.

وكان محمد بن واسع يقول: لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يحسن إلى كل من صحبه ولو ساعة. وكان إذا باع شاة يوصي بها المشتري ويقول: قد كان لها معنا صحبة.

وشتم رجل أبا ذر -رضي الله عنه- فقال له: يا هذا لا تغرقن في شتمنا ودع للصلح موضعا فإننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.
وأما الصبر فيحفظ عليه استدامة ذلك ويجمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى وعدم المقابلة وعلى كل خير، وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة.

قال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن حسن الخلق؟ فقال: هو أن تحتمل ما يكون من الناس.

عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم- {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله (٤)

وعلى الدرب سار الأحفاد، ولا غرابة فهي ذرية بعضها من بعض.. خرج الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ذات ليلة ومعه حرس فدخل المسجد فمر في الظلمة برجل نائم فعثر به فرفع الرجل رأسه وقال: أعمنون أنت؟ قال عمر: لا، فهم به الحرس. فقال له عمر: مه! إنما سألتني أعمنون أنت؟ فلقت لا.

إنها مكارم الأخلاق التي تستعذب النفوس الطاهرة كل مشقة في سبيلها.. قال سعيد بن العاص: يا بني إن المكارم لو كانت سهلة يسيرة لسابقكم إليها اللئام، ولكنها كريمة مرة لا يصبر عليها إلا من عرف فضلها ورجا ثوابها.

الهوامش والمصادر

- (١) رواه الترمذي في سننه بنحوه - كتاب صفة القيامة برقم ٢٤١٢ والطبراني في المعجم الكبير (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٦٠٩ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني (٢) رواه مسلم عن زيد بن أرقم . كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم ٤٨٩٩ (٣) فيض القدير للمناوي ٢٥٤/١ (٤) البخاري . كتاب تفسير القرآن برقم ٤٢٧٦
- صلاح الأمة في علو الهمة د/ سيد العفاني ج ٥
- الآداب الشرعية ابن مفلح

فَضْلُ الْمَنِحَةِ

روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ الْمَدِينَةَ، قَدِمُوا وَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، وَكَانَ الْأَنْصَارُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالْعَقَارِ [أي النخل]، فَقَاسَمَهُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى أَنْ أُعْطَوْهُمْ أَنْصَافَ ثَمَارِ أَمْوَالِهِمْ كُلِّ عَامٍ وَيَكْفُونَهُمُ الْعَمَلَ وَالْمُتُونَةَ، وَكَانَتْ أُمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَهِيَ تُدْعَى أُمَّ سُلَيْمٍ.. وَكَانَتْ أُعْطَتْ أُمَّ أَنَسِ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عِدَاقًا لَهَا [جمع عَدَق وهي النخلة ككلب وكلاب] فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاتِهِ أُمَّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا فَرَغَ مِنْ قِتَالِ أَهْلِ خَيْبَرَ وَأَنْصَرَفَ إِلَى الْمَدِينَةِ، رَدَّ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْأَنْصَارِ مَنَائِحَهُمُ الَّتِي كَانُوا مَنَحُوهُمْ مِنْ ثَمَارِهِمْ. قَالَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى أُمِّي عِدَاقَهَا، وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّ أَيْمَنَ مَكَائِنَهُنَّ مِنْ حَائِطِهِ.

** هذا الحديث رواه مسلم في: «باب رَدِّ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْأَنْصَارِ مَنَائِحَهُمْ مِنَ الشَّجَرِ وَالثَّمَرِ حِينَ اسْتَعْنَوْا عَنْهَا بِالْفُتُوحِ» ورواه البخاري في: «باب فَضْلِ الْمَنِحَةِ».

قال أهل اللغة: المنحة والمنيحة هي العطية، وتكون في الحيوان وفي الثمار وغيرهما، ثم قد تكون المنيحة عطية للرقبة بمنافعها وهي الهبة، وقد تكون عطية اللبن أو الثمرة مدة، وتكون الرقبة باقية على ملك صاحبها ويردها إليه إذا انقضى اللبن أو الثمر المأذون فيه.

** قال العلماء: لما قدم المهاجرون آثرهم الأنصار بمنائح من أشجارهم، فمنهم من قبلها منيحة محضة، ومنهم من قبلها بشرط أن يعمل في الشجر والأرض وله نصف الثمار،

ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضمة، هذا لشرف نفوسهم وكرهتهم أن يكونوا كلا، وكان هذا مساقاة أو مزارعة، وهي شرعا: دفع الشجر إلى من يصلحه بجزء من ثمره.

** فلما فتحت عليهم خبير استغنى المهاجرون بأنصابتهم فيها عن تلك المنائح، فردوها إلى الأنصار، ففيه فضيلة ظاهرة للأنصار في مواساتهم وإيثارهم وما كانوا عليه من حب الإسلام وإكرام أهله وأخلاقهم الجميلة ونفوسهم الطاهرة، وقد شهد الله تعالى لهم بذلك، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الحشر ٩

** قوله (فأعطاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أم أيمن) هذا دليل على أنه لم يكن كل ما أعطت الأنصار على المساقاة، بل كان فيه ما هو منيحة ومواساة، وهذا منه، وهو محمول على أنها أعطته -صلى الله عليه وسلم- ثمارها يفعل فيها ما شاء من أكله بنفسه وبعياله وضيافته وإيثاره بذلك لمن شاء، فلهذا آثر بها أم أيمن، ولو كانت إباحة له خاصة لما أباحها لغيره لأن المباح له بنفسه لا يجوز له أن يبيح ذلك الشيء لغيره، بخلاف الموهوب له نفس رقبة الشيء فإنه يتصرف فيه كيف شاء.

** قوله (رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم) هذا دليل على أنها كانت منائح ثمار، أي: إباحة للثمار لا تمليك لرقاب النخل، فإنها لو كانت هبة لرقبة النخل لم يرجعوا فيها، فإن الرجوع في الهبة بعد القبض لا يجوز، وإنما كانت إباحة كما ذكرنا، والإباحة يجوز الرجوع فيها متى شاء، ومع هذا لم يرجعوا فيها حتى اتسعت الحال على المهاجرين بفتح خبير واستغنوا عنها فردوها على الأنصار فقبلوها.

** في زيادة لمسلم بعد هذا الحديث.. قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: وَكَانَ مِنْ شَأْنِ أُمِّ أَيْمَنَ أُمَّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهَا كَانَتْ وَصِيفَةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَكَانَتْ مِنَ الْحَبَشَةِ فَلَمَّا وَلَدَتْ أَمِنَهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا تُوفِّيَ أَبُوهُ فَكَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَحْضُنُهُ حَتَّى كَبِرَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْتَقَهَا ثُمَّ أَنْكَحَهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ثُمَّ تُوفِّيتْ بَعْدَ مَا تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ.

** في رواية أخرى لمسلم عن أنسٍ أَنَّ رَجُلًا وَقَالَ حَامِدٌ وَابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَجْعَلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّخْلَاتِ مِنْ أَرْضِهِ حَتَّى فُتِحَتْ عَلَيْهِ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ فَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَعْطَاهُ. قَالَ أَنَسٌ: وَإِنَّ أَهْلِي أَمْرُونِي أَنْ آتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْأَلَهُ مَا كَانَ أَهْلُهُ أَعْطَوْهُ أَوْ بَعْضَهُ وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَعْطَاهُ أُمَّ أَيْمَنَ فَاتَّيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِيهِنَّ فَجَاءَتْ أُمَّ أَيْمَنَ فَجَعَلَتْ الثُّوبَ فِي عُنُقِي، وَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا نُعْطِيكَاهُنَّ وَقَدْ أَعْطَانِيهِنَّ. فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أُمَّ أَيْمَنَ اتْرِكِيهِ وَلَكِ كَذَا وَكَذَا وَتَقُولُ كَلًّا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَجَعَلَ يَقُولُ كَذَا حَتَّى أَعْطَاهَا عَشْرَةَ أَمْثَالِهِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ عَشْرَةِ أَمْثَالِهِ.

وإنما فعلت هذا -رضي الله عنها- لأنها ظنت أنها كانت هبة مؤبدة وتمليكا لأصل الرقبة، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم استطابه قلبها في استرداد ذلك، فما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه صلى الله عليه وسلم واکرام لها لما لها من حق الحضانة والتربية.

** أم أيمن اسمها «بركة» وكانت حبشية سوداء، وكانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وهي إحدى حواضن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبها، وهي زوجة زيدٍ رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وأم أسامة بن زيد. // وكانت أم أيمن تحدث تقول: كنت أحضن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فغفلت عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول: يا بركة. قلت: لبيك. قال: أتدريين أين وجدت ابني؟ قلت: لا أدري. قال: وجدته مع غلمان قريبا من السدرة، لا تغفلي عن ابني، فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم، وكان لا يأكل طعاما إلا قال علي بابني فيؤتي به إليه

//وقالت أم أيمن -وكانت تحضنه- ما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شكا
جوعا قط ولا عطشا، وكان يغدوا إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة فرما عرضنا عليه
الغذاء فيقول لا أريده أنا شبعان

** في فضائل أم أيمن روى الإمام مسلم:

//عَنْ أَنَسٍ قَالَ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ
فَنَاولْتُهُ إِنَاءً فِيهِ شَرَابٌ قَالَ فَلَا أَدْرِي أَصَادَفْتُهُ صَائِمًا أَوْ لَمْ يُرِدْهُ. فَجَعَلْتُ تَصْخَبُ عَلَيْهِ
وَتَذْمُرُ عَلَيْهِ

(تَصْخَبُ) أي: تصيح وترفع صوتها إنكارا لإمساكه عن شرب الشراب، وقوله (تَذْمُرُ)
أي تنذمر وتتكلم بالغضب.. ومعنى الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رد الشراب
عليها أما لصيام وإما لغيره، فغضبت وتكلمت بالإنكار والغضب، وكانت تدل عليه -صلى
الله عليه وسلم- لكونها حضنته وربته -صلى الله عليه وسلم-، وجاء في الحديث: (أم أيمن
أمي بعد أمي)، وفيه أن للضيف الامتناع من الطعام والشراب الذي يحضره المضيف إذا كان
له عذر من صوم أو غيره.

//عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتُ فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى
الْبُكَاءِ فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا

** من جميل ما يستنبط من الحديث أن المسلم المستقبل لإخوانه على أرضه وبيئته
ينبغي أن ينشغل به ويفكر لتيسير حياته، فلا ينزعج بقدمهم عليه، ولا يسخط لزدحام
أرضه بهم، ولا يخاف من منازعة رزق محتوم مقسوم له.

دَعَامِصُ الْجَنَّةِ

أخرج مسلم عن أبي حسان، قال: قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِي ابْنَانِ، فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: نَعَمْ، (صِغَارُهُمْ دَعَامِصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ - أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ -، فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ - أَوْ قَالَ بِيَدِهِ -، كَمَا آخُذُ أَنَا بِصِنْفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا، فَلَا يَتَنَاهَى - أَوْ قَالَ فَلَا يَنْتَهِي - حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ)

** (دعاميص) واحد دعموص أي صغار أهلها، وأصل الدعموص دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي أن هذا الصغير في الجنة لا يفارقها.

والدعموص أيضا: الدخال في الأمور: أي أنهم سياحون في الجنة دخالون في منازلها لا يمنعون من موضع، كما أن الصبيان في الدنيا لا يمنعون من الدخول على الحرم ولا يحجب منهم أحد.

** (يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ) يعنى يتعلق به كما يتعلق الإنسان بثياب من يلازمه، وإلا فالخلق في الموقف عراة (فلا ينتهي) أي لا يتركه (حتى يدخله الله وإياه الجنة) فيه أن أطفال المسلمين في الجنة.

** وقد روي شعبة عن معاوية بن قررة بن إياس المزني عن أبيه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن رجلا من الأنصار مات له ابن صغير فوجد عليه، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أما يسرك أن لا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته يستفتح لك) فقالوا: يا رسول الله أله خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: (بل للمسلمين عامة) وهذا حديث ثابت صحيح

وفي رواية: (أما ترضى أن لا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا جاء يسعى يفتحه لك) فقالوا: يا رسول الله أله وحده أم لنا كلنا؟ قال: (بل لكم كلكم).

** وعن أبي سعيد الخدري أن النساء قلن: يا رسول الله غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا من نفسك موعدا نأتيك فيه، فواعدهن ميعادا، فأتاهن فوعظهن، فقال هن فيما يقول: (ما منكن امرأة تقدم ثلاثا إلا كانوا لها حجابا من النار) فقالت امرأة: واثنين يا رسول الله، فإنه قد مات له اثنان؟ قال عليه السلام: (واثنان). هذا حديث متفق على صحته أخرجاه جميعا.

** وعن أنس -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث [أي الاحتلام] إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم) وفي رواية: (إِلَّا عَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ)

وفيه أن المسلم تكفر خطاياهم وتغفر له ذنوبه بالصبر على مصيبتهم، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة).

** وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أولاد المسلمين في جبل تكفلهم سارة سميت به لأنها كانت لبراعة جمالها تسرّ من رآها] وإبراهيم فإذا كان يوم القيامة دفعوهم إلى آبائهم. [رواه مُسَدَّدٌ مَوْقُوفًا]

** وعن علي -رضي الله عنه- في قول الله عز وجل {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} قال: "هم أطفال المسلمين".

أولاد المشركين

** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُجَارِيَانِهِ) فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ لَوْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ) [مسلم]

** وقال طائفة من المفسرين والمتكلمين أنهم في الجنة، واحتجوا بحديث سمرة بن جندب - رضي الله عنه -، قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يكثر أن يقول لأصحابه: (هل رأى أحد منكم من رؤيا؟) قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: (إنه أتاني الليلة آتيان فذكر الحديث، وفيه

فأتينا على روضة معتمة، فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط) إلى أن قال:

(وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم - صلى الله عليه وسلم -، وأما الولدان الذين حولَهُ فكلُّ مولودٍ مات على الفطرة) قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (وأولاد المشركين) [البخاري ومسلم]

** وعن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال (أولاد المشركين خدم أهل الجنة) [أخرجه: أبو داود الطيالسي، والبخاري، وأبو يعلى، وضعفه الحافظ في الفتح، وابن القيم في طريق المهجرتين]

** قال ابن قدامة في المغني: ولا يصلى على أطفال المشركين، لأن لهم حكم آبائهم، إلا من حكمنا بإسلامه، مثل أن يسلم أحد أبويه، أو يموت، أو يسبى منفرداً من أبويه، أو من أحدهما، فإنه يصلى عليه. انتهى

و** في فتاوى الرملي الشافعي: فالصحيح أن أطفال المشركين محكوم بإسلامهم في الأحكام الأخروية، وبكفرهم في الأحكام الدنيوية. انتهى.

** ومن العلماء من توقف فيهم، وهو منقول عن الحماديين [حماد بن زيد، وحماد بن سلمة]، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه، ونقله البيهقي في الاعتقاد عن الشافعي.

قال ابن عبد البر: هو مقتضى صنيع مالك، وهذا ما صرح به أصحابه، وحثهم حديث: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، أيضا لتعارض الأدلة في ذلك وعدم وضوح وبيان شيء منها في نظرهم.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: إذا مات غير المكلف بين والدين كافرين فحكمه حكمهما في أحكام الدنيا، فلا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، أما في الآخرة فأمره إلى الله سبحانه، وقد صح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه لما سئل عن أولاد المشركين قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)

وهذا القول هو أصح الأقوال في أهل الفترة ونحوهم ممن لم تبلغهم الدعوة الإلهية، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم وجماعة من السلف والخلف-رحمة الله عليهم جميعًا.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن علم الله سبحانه فيهم يظهر يوم القيامة، وأنهم يمتحنون كما يمتحن أهل الفترة ونحوهم، فإن أجابوا إلى ما يطلب منهم دخلوا الجنة، وإن عصوا دخلوا النار، وقد صحت الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في امتحان أهل الفترة يوم القيامة، وهم الذين لم تبلغهم دعوة الرسل ومن كان في حكمهم كأطفال المشركين، لقول الله وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [النساء: ١٥] انتهى

قال بعض أهل العلم: وقد يتردد الإنسان في الترجيح ومن أسباب هذا التردد أن حديث الامتحان لم يثبت بطريق يعتمد عليه بسند واحد صحيح، إنما هو في الحقيقة مجموع طرق يمكن أن يقال: إنها حسنة، ويشد بعضها بعضا، وحديث الامتحان رواه الإمام أحمد وأبو يعلى وغيرهما بطرق مختلفة وبألفاظ مختلفة ولكنها متقاربة، أنه يأتي يوم القيامة أربعة يحاجون الله -عز وجل- وهم رجل -في بعض الروايات- أصم، ورجل أبكم، ورجل أحمق، ورجل صاحب فترة، وفي بعض الروايات أنه مولود صغير والأحمق مكانه المجنون أو المعتوه والثالث أنه صاحب فترة والرابع أنه رجل هرم.

يأتي هؤلاء فيقول الطفل الصغير: يا رب إنني صغير ولم أسمع ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ويقول الكبير: يا رب قد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا لا أعقل ولم أفهم شيئاً.

ويقول المجنون أو المعتوه: يا رب بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- والأطفال يقذفونني بالحجارة لا أعقل شيئاً. والأصم والأبكم كذلك.

وصاحب الفترة يقول: يا رب ما سمعت بنبي قط، وما وصلت إليّ رسالة رسول قط، فهؤلاء الأربعة يمتحنهم الله في عرصات القيامة، بأن يوقد النار أو يخرج لهم لسان من النار، ويقول لهم: ادخلوها، فإن دخلوها كانت برداً وسلاماً عليهم، وإن عصوا وأبوا ألقوا فيها. والاستدلال على هذه القضية يأتي من وجهين:

١ / الوجه الأول: هو هذا الذي ذكرناه من الطرق والأحاديث والروايات.

٢ / الوجه الثاني: أن الامتحان والابتلاء ليس خاصاً بهذه الحياة الدنيا، فإن الإنسان يمتحن في البرزخ، ويدل له حديث القبر. وفيه: فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وفي يوم القيامة امتحانات:

ومن ذلك أن الله -سبحانه وتعالى- يتجلى لعباده المؤمنين في صورة غير الصورة التي يعرفون ليمتحنهم بذلك في الموقف المهيب كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح

وقوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم ٤٢].. أي يوم القيامة يشتد الأمر ويصعب هوله، ويأتي الله تعالى لفصل القضاء بين الخلائق، فيكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء امتحاناً لهم، قال -صلى الله عليه وسلم-: (يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا؛ رياءً وسمعةً، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً) [البخاري ومسلم].

لذلك فمن جاء يوم القيامة وقال: يا رب لم تبلغن الدعوة لم يأتن الرسول.. فإذا جاء هؤلاء واشتكوا إلى ربهم وقالوا: ما أتانا من رسول، وما جاءنا من نذير، فمن حكمة الله

وعدله ورحمته التي وسعت كل شيء أنه يمتحنهم، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، فإن الذي يدخل الجنة، أو الذي يدخل النار، سواء كان امتحن في الدنيا أو امتحن في الآخرة، فإنه لن يدخل أحد الدارين إلا بما عمل بإرادته واختياره.

وحديث: (الله أعلم بما كانوا عاملين) لا يتنافى مع القول بالامتحان، ويمكن أن نجعله دليلاً على الامتحان لأن الله يعلم ما كانوا عاملين، أي: إن نجحوا وآمنوا ساعة الامتحان يوم القيامة فالله تعالى سيدخلهم الجنة.

وإن كفروا وعصوا الله تعالى سيدخلهم النار.

أما حديث الخليل - عليه السلام - على رواية (أن ذراري المشركين كانوا معه) يحتمل أنهم امتحنوا فنجحوا، أو أن هؤلاء سيكونون على الصورة التي كانوا عليها، أي: أن هؤلاء الذراري الذين امتحنوا فنجحوا سموا أطفال المشركين، نسبة إلى ما كانوا عليه في الدنيا، فلهذا قال: (ذراري المشركين وأطفال المشركين) فأطفال المسلمين دخلوا الجنة لأنهم أطفال المسلمين، وأطفال المشركين كانوا مع الخليل في الجنة؛ لأنهم الذين نجحوا في الامتحان، أي أنهم أطاعوا الله سبحانه وتعالى.

إذاً: لا يمنع أن يوجد منهم من هو في النار.

ومن فقه المسلم انشغاله بأمر نفسه، وما يهمله من أمر دينه، وعدم انشغاله بمسائل الخلاف التي لا ينفعه الانشغال بها، ولا يضره ترك الانشغال بها.

ومسألة أطفال المشركين مما ينبغي على عموم المسلمين ألا يستكثروا من السؤال عنها، وقد صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوَامًا أَوْ مُقَارِبًا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الْوُلْدَانِ وَالْقَدَرِ".

[رواه عبد الله بن أحمد في "كتاب السنة" قال ابن حبان في صحيحه] الْوُلْدَانُ: أراد

به أطفال المشركين

وفي نيل الأوطار للشوكاني: والحاصل أن مسألة أطفال الكفار باعتبار أمر الآخرة من المعارك الشديدة لاختلاف الأحاديث فيها ولها ذبول مطولة لا يتسع لها المقام، وفي الوقف

عن الجزم بأحد الأمرين سلامة من الوقوع في مضيق لم تدع إليه حاجة ولا أجات إليه ضرورة، وأما باعتبار أحكام الدنيا، فقد ثبت في صحيح البخاري في باب أهل الدار من كتاب الجهاد: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن أولاد المشركين هل يقتلون مع آبائهم؟ فقال: هم منهم.

قال في الفتح: أي في الحكم في تلك الحالة، وليس المراد إباحة قتلهم بطريق القصد إليهم، بل المراد إذا لم يمكن الوصول إلى الآباء إلا بوطء الذرية، فإذا أصيبوا لاختلاطهم بهم جاز.

وَتُعَقَّب: بأن الآخرة ليست دار التكليف، فلا عمل ولا ابتلاء.

وأجيب: بأن ذلك لا يقع إلا بعد الاستقرار في الجنة أو النار، أما في العرصات، فلا مانع من ذلك

وهذا ما رجَّحه ابن القيم، قال: فاعلم أن الذي يدل عليه الأدلة الصحيحة، وتأتلف به النصوص، ومقتضى الحكمة هذا القول، والله أعلم.

سوق الجنة

عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِنَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ سُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فِيهَا كُنُوبَانُ الْمِسْكِ، فَإِذَا خَرَجُوا إِلَيْهَا هَبَّتِ الرِّيحُ فَمَمْلَأُ وُجُوهُهُمْ، وَثِيَابَهُمْ، وَبُيُوتَهُمْ مِسْكَاً، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَأْتُونَ أَهْلِيهِمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ أَزِدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، وَيَقُولُونَ لَهُنَّ: وَأَنْتُمْ قَدْ أَزِدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا) مسلم وأحمد

** (إِنَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ سُوقًا) أي مجمعا لهم يجتمعون فيه كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق (يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ) أي مقدارها من الدنيا، إذ ليس هناك حقيقة أسبوع لفقد الشمس والليل.

** وفي حديث رواه الترمذي -وفيه ضعف- عَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا، مَا فِيهَا شِرَاءٌ، وَلَا بَيْعٌ إِلَّا الصُّورُ، مَنْ أَحَبَّ صُورَةً دَخَلَ فِيهَا أَوْ اشْتَهَى صُورَةً دَخَلَ فِيهَا، وَلِلْحُورِ مَجْمَعٌ يَجْتَمِعْنَ فِيهِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهُ أَحَدٌ، يَقْلُنَّ: نَحْنُ الْحَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبُؤُسُ، وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ، فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا، وَكُنَّا لَهُ).

قوله: (مَا فِيهَا شِرَاءٌ، وَلَا بَيْعٌ) أي ليس فيها تجارة (إِلَّا الصُّورُ) أي التماثيل المختلفة، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها، أي تشكل بها
قيل يحتمل الحديث معنيين:

// أحدهما: أن يكون معناه عرض الصور المستحسنة عليه فإذا اشتهى وتمنى تلك الصورة المعروضة عليه صورته الله سبحانه بشكل تلك الصورة بقدرته.

// وثانيهما: أن المراد من الصورة الزينة التي يتزين الشخص بها في تلك السوق ويتلبس بها ويختار لنفسه من الحلبي والحلل والتاج.. يعني فإذا رغب في شيء منها أعطيه، ويكون المراد من الدخول فيها التزين بها

وعلى كلا المعنيين التغير في الصفة لا في الذات [تحفة الأحوذى]

** وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "إن أهل الجنة ليتزاوون على العيس الجون [الإبل البيض] عليها رحال الميس، تثير مناسمها غبار المسك، زمام - أو خطام - أحدها خير من الدنيا وما فيها".

** وعن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة -رضي الله عنه- [أي في سوق المدينة]، فقال أبو هريرة -رضي الله عنه-: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال سعيد: أفيها سوق؟! [يعني وهي موضوعة للحاجة إلى التجارة] قال: نعم، أخبرني رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم [أي بقدر زيادة طاعتهم كمية وكيفية]، ثم يؤذن في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا [أي في مقدار الأسبوع من أيام الدنيا] فيزورون ربهم [أي فيه]، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة [أي يظهر ويتجلى ربهم بدون حجاب]، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة [أي بحسب مقادير أعمالهم ومراتب أحوالهم]، ويجلس أديانهم -وما فيهم من دين- [والمراد به الأدنى في المرتبة، فليس في أهل الجنة دون وخسيس] على كئبان [تلال] المسك والكافور، أن يرون ما أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً. [أي لا يظنون ولا يتوهمون أن أصحاب الكراسي وأرباب المنابر بأفضل منهم مجلساً حتى يحزنوا بذلك، فالجنة ليس فيها حزن مطلقاً.. قال في التنزيل {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} فاطر ٣٤]

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا؟ قال: نعم، قال: هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ قلنا: لا. قال: كذلك لا تتمارون في رؤية ربكم،

ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة [كشَفَ الحِجَابَ وَالْمُقَارَبَةَ مَعَ
الْبُعْدِ مِنْ غَيْرِ تُرْجُمَانٍ] حتى يقول للرجل منهم: يا فلان ابن فلان، أتذكر يوم قلت كذا
وكذا. فيذكر بعض غدراته في الدنيا، فيقول: يا رب أفلم تغفر لي. فيقول: بلى، فسعة
مغفرتي بلغت بك منزلتك هذه.

فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم فأمرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل
ريحه شيئاً قط، ويقول ربنا: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتهم.
فنأتي سوقاً قد حفت به الملائكة (فيه) ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان،
ولم يخطر على القلوب، (فيجعل - وفي رواية: فيحمل-) لنا ما اشتهينا [أي إلى قصورنا]
ليس يباع فيها ولا يشتري،

وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً، فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى
من هو دونه - وما فيهم ديني - فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضي آخر حديثه
حتى يتخيل إليه ما هو أحسن منه، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها،
ثم ننصرف إلى منازلنا، فتتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحباً وأهلاً لقد جئت وإن بك من
الجمال أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار - جل جلاله - وبحقنا
أن نقبل بمثل ما انقلبنا' [الترمذي بسند فيه ضعف]

دلائل في التقاضي وفض المنازعات

روى البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ، الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرَّحَ الْمَاءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عَلَيْهِ. فَأَخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلزُّبَيْرِ: «أَسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «أَسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَحْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: " وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء: ٦٥]

** المفردات والمعاني:

(الزبير) ابن العوام بن صفية بنت عبد المطلب، عمه النبي صلى الله عليه وسلم، وهي التي ناداها النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] فقال: (يا عباس.. يا صفية عمه رسول الله.. يا فاطمة بنت محمد.. لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا).

(شِراج) جمع شرج وهو مسيل الماء من المرتفع إلى السهل (الحرّة) الأرض الصلبة الغليظة ذات الحجارة السوداء، وفي المدينة حرتان.

(سَرَّحَ الْمَاءَ يَمُرُّ) أي أطلقه وأرسله، وإنما قال له ذلك لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري فيحبسه لإكمال سقي أرضه ثم يرسله إلى أرض جاره، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك فامتنع الزبير.

(أن كان ابن عمتك) لأنه كان ابن عمتك حكمت له بذلك، ونحوه قوله تعالى {وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ} {١٠} هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ {١١} مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ {١٢} عَثَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ {١٣} أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ {١٤} [القلم] أي لا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال وبنين، وإنما قال الأنصاري ذلك عند الغضب وكان زلة منه رضي الله عنه

** قوله (حَتَّى يَرْجِعَ) يصل (إِلَى الْجَدْرِ) الحواجز التي تحبس الماء كالجدار، والمعنى حتى

تبلغ تمام الشرب

فَأَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير أَوْلًا بِالْمُسَاحَةِ وَالْإِيثَارِ بِأَنْ يَسْقِيَ شَيْئًا يَسِيرًا ثُمَّ يُرْسِلُهُ إِلَى جَارِهِ، إِدْلَالًا عَلَى الزبير ولعلمه بأنه يرضى بذلك ويؤثر الإحسان إلى جاره، فَلَمَّا قَالَ الْأَنْصَارِيُّ مَا قَالَ وَجَهْلَ مَوْضِعِ حَقِّهِ، أَمَرَهُ -صلى الله عليه وسلم- بِأَنْ يَأْخُذَ تَمَامَ حَقِّهِ وَيَسْتَوْفِيهِ فَإِنَّهُ أَصْلَحَ لَهُ وَفِي الرَّجْرِ أَبْلَغَ.

** عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في سيل مهزور ومذنيب أن

يمسك الأعلى إلى الكعبين ثم يرسل الأعلى إلى الأسفل

وذكر عبد الملك بن حبيب أن مهزور ومذنيب واديان من أودية المدينة يسيلان بالمطر، وتتنافس أهل الحوائط في سيلهما، فقضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعلى فالأعلى، والأقرب فالأقرب إلى ذلك السيل، يدخل صاحب الحائط الأعلى اللاصق به السيل جميع الماء في حائطه ويصرف مجراه إلى بيته فيسيل فيها ويسقي به حتى إذا بلغ الماء من قاعة الحائط إلى الكعبين من القائم، أغلق البيبة وصرف ما زاد من الماء على مقدار الكعبين إلى من يليه حائطه، فيصنع فيه مثل ذلك ثم يصرفه إلى من يليه أيضا، هكذا أبدا يكون الأعلى فالأعلى أولى به على هذا الفعل حتى يبلغ ماء السيل إلى أقصى الحوائط

وهذه السنة فيهما وفيما يشبههما مما ليس لأحد فيه حق معين (كمن حفر البئر

بنفسه) الأول أحق بالتبديية ثم الذي يليه إلى آخرهم رجلا.

** التخاصم مما جرى على ابن آدم والمنازعات أمر بشري كل يرى الحق معه ويسعى

في الوصول لتحقيقه، وغمامة الدنيا ودنوها عامل أساسي في قلب الحق والحقائق

فقوله: (إن رجلا من الأنصار) زاد البخاري روايته في كتاب الصلح «قد شهد بدرا» قال التوريشي رحمه الله: وقد اجترأ جمع من المفسرين بنسبة الرجل تارة إلى النفاق وأخرى إلى اليهودية، وكلا القولين زائغ عن الحق، إذ قد صح أنه كان أنصاريًا ولم يكن الأنصار من جملة اليهود.

ولو كان مغموضا عليه في دينه لم يصفوه بهذا الوصف «قد شهد بدرا» فإنه وصف مدح .. والأولى بالشحيح بدينه أن يقول هذا قول أذله الشيطان فيه بتمكنه عند الغضب وغير مستبعد من الصفات البشرية الابتلاء بأمثال ذلك. انتهى بتصريف

** الانعزالية في التفكير والتحصيل خطر عظيم، فما طلبه الأنصاري من الزبير هو تعجيل لنيل الماء قبل أوانه، وتفكيره بانعزالية عن إخوانه، وطلب النجاة لأرضه دون أرض أخيه، وكلها أحوال تنم عن حالة المرء عندما يتفاعل مع ماله ودنياه فقط، فيغيب القلب عن محياه ويستبدل بئر نبضه الإيماني والأخوي بقيعان قحط أخلاقي لا تمسك ماء ولا تنبت كالأ.

** قال العلماء: ولو صدر مثل هذا الكلام الذي تكلم به الأنصاري اليوم من إنسان من نسبته صلى الله عليه وسلم إلى هوى كان كفرا وجرت على قائله أحكام المرتدين [شرح النووي لمسلم]

** قوله (فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ) عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كتب أبي أو كتبت له إلى ابنه عبد الله بن أبي بكر وهو قاض بسجستان "أن لا تحكم بين اثنين وأنت غضبان" فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان) [البخاري ومسلم].

وفي رواية: (لا يقضين حاكم بين اثنين وهو غضبان) [البخاري].

والنص وارد في المنع من القضاء حالة الغضب، وذلك لما يحصل للنفس بسببه من التشويش الموجب لاختلال النظر وعدم استيفائه على الوجه، وعداه الفقهاء بهذا المعنى إلى كل ما يحصل منه ما يشوش الفكر، وكل حال يخرج الحاكم فيها عن سداد النظر واستقامة

الحال: كالشبع المفرط، والجوع المقلق، والهجم والفرح البالغ، ومدافعة الحدث، وتعلق القلب بأمر .. ونحو ذلك، وكل هذه الأحوال يكره له القضاء فيها خوفا من الغلط، وهو قياس مظنة على مظنة، فإن كل واحد من الجوع والعطش مشوش للفكر، وكأن الغضب إنما خص لشدة استيلائه على النفس وصعوبة مقاومته.

قال أهل العلم: ولو قضى مع الغضب والجوع نفذ قضاؤه إذا صادف الحق، وقد ورد في هذا الحديث ما يدل على ذلك.

وقال آخرون حديث أبي بكر عن رسول الله يسري على غيره صلى الله عليه وسلم من الحكام للخوف عليهم فيما ينقلهم إليه الغضب من العدل في الحكم إلى خلافه، والذي في حديث الزبير فمخالف لذلك لأنه في رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في تولى الله تعالى إياه وعصمته له وحفظه عليه أمره، بخلاف سائر الناس في مثل ذلك، فانطلق ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعمله، ولم ينطلق ذلك لغيره، فنهاه رسول الله عليه السلام عنه كما حدثه أبو بكر عنه والله أعلم

قل ربي الله ثم استقم

عن سفيان بن عبد الله الثقفي - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: (قل ربي الله ثم استقم) قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: (هذا) [١]

كلمات ندية، خرجت من فم طاهر، وعمل بها خير السلف والخلف، فكان الإسلام بروعته وحضارته وأمجاده التي أخرجت البشرية كلها من ظلمات الجاهلية والوثنية، وعبودية البشر للبشر إلى أفق رحب من الحرية والطهارة والنقاء بما لا عهد لهم به في أي منهج آخر، فأكرم بالإسلام ديننا وأكرم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - نبينا.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]
وقال جل ذكره: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأحقاف: ١٣]

فقوله تعالى: {ربنا الله} ليست كلمة تقال، بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير، إنما هي منهج كامل للحياة يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه وكل حركة وكل خالجة، ويقوم ميزانها للتفكير والشعور وللناس والأشياء وللأعمال والأحداث وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود.

{ربنا الله} فله العبادة وإليه الاتجاه ومنه الخشية وعليه الاعتماد.

{ربنا الله} فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه ولا خوف ولا تطلع لمن عداه.

{ربنا الله} فكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير متجه إليه، منظور فيه إلى رضاه.

{ربنا الله} فلا احتكام إلا إليه، ولا سلطان إلا لشريعته، ولا اهتداء إلا بهداه.

{ربنا الله} فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا ونحن نلتقي به في صلتنا بالله.

{ربنا الله} منهج كامل على هذا النحو، لا كلمة تلفظها الشفاة، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة.

{ثم استقاموا} وهذه أخرى، فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج، استقامة النفس وطمأنينة القلب، استقامة المشاعر والخوارج، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات وهي عنيقة ومتنوعة وكثيرة، واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار، وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات، وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك.

{ربنا الله} منهج، والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره، والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة وهؤلاء {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} وفيهم الخوف وفيهم الحزن والمنهج واصل والاستقامة عليه ضمان الوصول (٢)

قال المناوي: (قل آمنت بالله) أي جدد إيمانك بالله ذكراً بقلبك ونطقاً بلسانك بأن تستحضر جميع معاني الإيمان الشرعي (ثم استقم) أي الزم عمل الطاعات والانتهاة عن المخالفات إذ لا تتأتى مع شيء من الاعوجاج فإنها ضده وانتزاع هاتين الجملتين من آية {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} وهذا من بدائع جوامع الكلم فقد جمعنا جميع معاني الإيمان والإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، إذ الإسلام توحيد وهو حاصل بالجملة الأولى والطاعة بسائر أنواعها في ضمن الثانية، إذ الاستقامة امتثال كل مأمور وتجنب كل منهي، وعرفها بعضهم بأنها المتابعة للسنن المحمدية مع التخلق بالأخلاق المرضية، وبعضهم بأنها الإتيان مع ترك الابتداع، وقيل حمل النفس على أخلاق الكتاب والسنة، قال القشيري: وهي درجة بها كمال الأمور وقوامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، وقال بعضهم: لا يطبقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات (٣)

وقال ابن رجب: فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله: { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب على معرفة الله وعل- بالاستقامة له ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه استقامت الجوارح كلها على طاعته فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وكذلك فسر قوله تعالى: { فأقم وجهك للدين حنيفاً } [الروم: ٣٠] بإخلاص القصد لله وإرادته لا شريك له، وأعظم ما يراعي استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه، ولهذا لما أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالاستقامة وصاه بعد ذلك بحفظ لسانه (٤) وفي الحديث الشريف:

- (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) (٥)

- (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفرح باللسان، فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا) (٦)

- (ليس شيء من الجسد إلا وهو يشكو ذرب اللسان) أي فحشه (٧)

- (إنك لن تزال سالماً ما سكت فإذا تكلمت كتب لك أو عليك) (٨)

- (من صمت نجاً) (٩)

- (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) (١٠)

- (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم) (١١)

- (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة) (١٢)

- وعن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: (لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت) ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل) قال: ثم تلا: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} حتى بلغ {يعملون} [السجدة: ١٦-١٧] ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟) قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد) ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) قلت: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه قال: (كف عليك هذا) فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) (١٣)

الهوامش

(١) رواه الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في حفظ اللسان رقم ٢٣٣٤ وقال حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجة - كتاب الفتن رقم ٣٩٦٢ ورواه أحمد في المسند - مسند المكيين رقم ١٤٨٧١ ورواه الدارمي - كتاب الرقاق رقم ٢٥٩٤، والحديث صححه الألباني رحمة الله عليه في صحيح الترمذي رقم ١٩٦٥، وفي صحيح ابن ماجة رقم ٣٢٠٨، وفي صحيح الترغيب والترهيب رقم ٢٨٦٢، وورد برواية أخرى صحيحة (قل آمنت بالله ثم استقم) (صحيح) انظر حديث رقم: ٤٣٩٥ في صحيح الجامع للسيوطي بتحقيق العلامة الألباني رحمة الله عليهم أجمعين (٢) في ظلال القرآن - سيد قطب / سورة الأحقاف ج ٦ ص ٣٢٥٩ / دار الشروق (٣) فيض القدير للمناوي ٥٤٣/٢ (٤) جامع العلوم والحكم - ابن رجب / الحديث الحادي والعشرون (٥) حديث حسن: قال الألباني رجاله ثقات - السلسلة الصحيحة رقم ٢٨٤١ وحسنه أيضا في صحيح الترغيب والترهيب للمنذري بتحقيقه رقم ٢٨٦٥ ورقم ٢٥٥٤ (٦) رواه الترمذي عن أبي سعيد (حسن) انظر حديث رقم: ٣٥١ في صحيح الجامع (٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكر (صحيح)

انظر حديث رقم: ٥٣٩٦ في صحيح الجامع (٨) حديث حسن رواه الطبراني في الكبير ٧٣/٢ من حديث معاذ بن جبل وقال الهيثمي في الزوائد ٣٠٠/١٠ رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات (٩) رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٣٦٧ في صحيح الجامع (١٠) متفق عليه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ٦٤٧٧/١١ ومسلم والفظ له في كتاب الزهد والرقاق ٢٩٨٨ (١١) البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- . كتاب الرقاق / باب حفظ اللسان ٦٤٧٨/١١ (١٢) رواه أحمد والترمذي عن بلال بن الحارث (صحيح) انظر حديث رقم: ١٦١٩ في صحيح الجامع. (١٣) رواه الترمذي . كتاب الإيمان رقم ٢٥٤١، وقال حديث حسن صحيح

لا هجرة بعد الفتح

قال -صلى الله عليه وسلم-:

(لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا أُسْتُفِرْتُمْ فَاَنْفِرُوا)

متفق عليه

لم تكن الهجرة مفترضة بالجملة على أحد إلا على أهل مكة، فإن الله عز وجل افترض عليهم الهجرة إلى نبيهم، حتى فتح عليه مكة فقال حينئذ -صلى الله عليه وسلم-: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية) فمضت الهجرة على أهل مكة، من كان مهاجرا لم يجوز له الرجوع إلى مكة واستيطانها وترك رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل افترض عليهم المقام معه، فلما مات صلى الله عليه وسلم افرقوا في البلدان، وقد كانوا يعدون من الكبائر أن يرجع أعرابيا بعد هجرته.

(لا هجرة بعد الفتح) أي لا هجرة مبتدأة يهجر بها المرء وطنه هجرانا لا ينصرف إليه من أهل مكة وقريش خاصة بعد الفتح، وأما من كان مهاجرا منهم فلا يجوز له الرجوع إليها على حال من الأحوال ويدع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد بقي من الهجرة باب باق إلى يوم القيامة وهو المسلم في دار الحرب إذا أطاقت أسرته أو كان كافرا فأسلم لم يحل له المقام في دار الحرب، وكان عليه الخروج عنها فرضا واجبا، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين لا تراءى نارهما) [أبو داود والترمذي] وكيف يجوز لمسلم المقام في دار تجرى عليه فيها أحكام الكفر وتكون كلمته فيها سفلى وبده وهو مسلم، هذا لا يجوز لأحد.

فالمسلم مسلم حيثما كان، والإسلام لا يَرخَّص للمسلم في معصية أياً كان مكانه، أما إن كان ممن قال الله فيهم: {إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: ١٠٦]، فهذا شيء آخر.

فإذا كان يُكره في بلد الكفر على مخالفة أو ترك دينه، فلا يحق له أن يقيم، وتعينت عليه الهجرة، ولذا اختلف العلماء في حكم الهجرة هنا هل هي واجبة أو مندوبة؟ فبعضهم يقول: (لا هجرة بعد الفتح)؛ ولكن إذا ضيق عليه في بلد الكفر، ولا يستطيع أن يقيم شعائر دينه تعينت عليه الهجرة كما يتعين عليه أن يصلي ويصوم.

قال ابن الأثير: الهجرة في الأصل: الاسم من الهجر ضد الوصل. وقد هجره هجرا وهجرانا، ثم غلب على الخروج من أرض إلى أرض، وترك الأولى للثانية. يقال منه: هاجر مهاجرة.

والهجرة هجرتان: إحداهما التي وعد الله عليها الجنة في قوله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ} [التوبة: ١١١] فكان الرجل يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- ويدع أهله وماله لا يرجع في شيء منه، وينقطع بنفسه إلى مهاجرة، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكره أن يموت الرجل بالأرض التي هاجر منها، فمن ثم قال: (لكن البائس سعد بن خولة) يرثي له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن مات بمكة. وقال حين قدم مكة: (اللهم لا تجعل منايانا بها) فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة وانقطعت الهجرة.

والهجرة الثانية: من هاجر من الأعراب، وغزا مع المسلمين، ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى، فهو مهاجر وليس بداخل في فضل من هاجر تلك الهجرة، وهو المراد بقوله: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) [أحمد وأبو داود]

فهذا وجه الجمع بين الحديثين. وإذا أطلق في الحديث ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة. [النهاية في غريب الحديث]

وقال آخرون: الهجرة من دار الحرب إلى دار السلام باقية إلى يوم القيامة، وفي تأويل هذا الحديث قولان:

(الأول) لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام، وإنما تكون الهجرة من دار الحرب، وهذا يتضمن معجزة له، وعلم من أعلام نبوته -صلى الله عليه وسلم- بأنها تبقى دار إسلام لا يتصور منها الهجرة.

(الثاني) أي لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضلها ما قبل الفتح. كما قال الله تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠]

ومن هذا الحديث استنبط أهل العلم أن العمل الواحد قد يتفاضل في وقت عنه في وقت آخر.

كقوله -صلى الله عليه وسلم-: (عبادة في الهرج والفتنة كهجرة إلي) [صحيح الجامع: ٣٩٧٤]، وقوله: (العبادة في الهرج كهجرة إلي) [مسلم، والترمذي، صحيح الجامع: ٤١١٩]

قال المناوي: (العبادة في الهرج) أي وقت الفتن واختلاط الأمور (كهجرة إلي) في كثرة الثواب، أو يقال المهاجر في الأول كان قليلاً لعدم تمكن أكثر الناس من ذلك، فهكذا العابد في الهرج قليل. قال ابن العربي: وجه تمثيله بالهجرة أن الزمن الأول كان الناس يفرون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتن تعين على المرء أن يفر بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجر أولئك القوم، وتلك الحالة، وهو أحد أقسام الهجرة.

ومثل قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن من ورائكم زمان صبر، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدا منكم) [الطبراني]، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت، شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، وإن من ورائكم أيام الصبر،

الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم، قالوا: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: لا بل أجر خمسين منكم) [أبو داود والترمذي] والتفاضل هنا في ثواب العمل وليس في المكانة، فمكانة الصحابة لا يعدلها أحد.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ولكن جهاد ونية) معناه: ولكن لكم طريق إلى تحصيل الفضائل التي في معنى الهجرة، وذلك بالجهاد، ونية الخير في كل شيء، وبه يعلم أن النوايا مطايا عظيمة، بما يرتقي المسلم إلى أعالي الدرجات، فمن صدقت سريره وأراد وجه الله تعالى، عظم الله أجره، وأجزل مثوبته، بفضله وكرمه جل وعلا.

وقوله: (وإذا استنفرتم فانفروا) أي إذا دعاكم السلطان إلى الغزو فاذهبوا.

قال الطيبي وغيره: هذا الاستدراك يقتضي مخالفة حكم ما بعده لما قبله والمعنى أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر والخروج في طلب العلم والفرار بالدين من الفتن والنية في جميع ذلك (وإذا استنفرتم فانفروا) قال النووي: يريد أن الخير الذي انقطع بانقطاع الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة، وإذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا إليه. [تحفة الأحوذ]

رجب شهر الله

عن أبي بكر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خطب في حجة الوداع، وقال في خطبته: (إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان) (١)

لله تبارك وتعالى منح وعطايا ومواهب يمنحها لعباده ويهبها لهم في كل حين. يحو بها الخطايا ويكفر بها السيئات ويرفع الدرجات ويقيّل العثرات. فقد شرع لنا جل وعلا شهراً نصوم فيه، وشهراً نحج فيه، ويوماً أو يومين من بعض الشهور نصومها، وشرع كذلك قيام الليل وصلاة الوتر والأضحية والعقيقة وغير ذلك من أنواع العبادات المختلفة المتنوعة، كل ذلك منه جل وعلا تنوعاً لسبل الخير والطاعات، وتنشيطاً للنفس كي تنتقل من نوع من الطاعات إلى نوع آخر فلا يمل الإنسان ولا يكل من طاعة الله الودود الرحيم، وتلك نعمة من نعم الله تعالى علينا، وذلك فضله سبحانه وتعالى (٢)

فالحمد لله القائل في كتابه العزيز: { وربك يخلق ما يشاء ويختار } [القصص: ٦٨]، والاختيار هو الاجتباء والاصطفاء الدال على ربوبيته ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته. ومن اختياره وتفضيله اختياره بعض الأيام والشهور وتفضيلها على بعض، وقد اختار الله من بين الشهور أربعة حُرماً

قال تعالى: { إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم } [التوبة: ٣٦]

والأربعة أشهر الحرم حرّمها العرب في الجاهلية، وسبب تحريمهم ذي القعدة وذي الحجة ومحرم هو أداء شعيرة الحج، فكانوا يحرمون قبله شهراً ليتسكنوا من السير إلى الحج ويسمونهم ذي القعدة لعودهم عن القتال فيه، ثم يحرمون ذا الحجة وفيه أداء مناسكهم وأسواقهم، ثم يحرمون بعده شهراً ليعودوا إلى ديارهم. وحرّموا شهر رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار، فيأمن قاصد البيت الغارة فيه (٣)

وسمي رجب رجباً لأنه كان يرجب أي يعظم، يقال في اللغة «رَجَبٌ» فلانا أي خافه، وهابه، وعظمه قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٤): رجب: الرء والجيم والباء أصلٌ يدل على دعم شيء بشيء وتقويته ... ومن هذا الباب: رجت الشيء أي عظّمته ... فسمي رجباً لأنهم كانوا يعظّمونه، وقد عظّمته الشريعة أيضاً. أ. هـ

وأما إضافته إلى مضر لأن مضر كانت لا تغيّره بل توقعه في وقته، بخلاف باقي العرب الذين كانوا يغيّرون ويبدلون في الشهور بحسب حالة الحرب عندهم، وهو النسيء المذكور في قوله تعالى: {إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله} [التوبة: ٣٧]

وقيل إن سبب نسبته إلى مضر أنها كانت تزيد في تعظيمه واحترامه فنسب إليهم لذلك. فلقد كانوا يُحرمون فيه القتال، حتى أنهم كانوا يُسمّون الحرب التي تقع في هذا الشهر: (حرب الفجار!!). وكانوا يتحرّون الدعاء في اليوم العاشر منه على الظالم، وكان يُستجاب لهم! وقد ذُكر ذلك لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: إنَّ الله كان يصنع بهم ذلك ليحجز بعضهم عن بعض، وإنَّ الله جعل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمرّ.

وكانوا أيضاً يذبحون ذبيحةً تُسمّى «العَتيرة»، وهي شاة يذبحونها لأصنامهم، فكان يُصبُّ الدم على رأسها! فأبطلها الإسلام، لحديث الصحيحين: (لا فزَع ولا عَتيرة) (٥) وذكر بعضهم أن لشهر رجب أربعة عشر اسماً: شهر الله، ورجب، ورجب مضر، ومنصل الأسنّة، والأصم، والأصب، ومنفس، ومظهر، ومعلّى، ومقيم، وهرم، ومقشّش، ومبرئ، وفرد. (٦)

وقد كان أهل الجاهلية يسمون شهر رجب مُنصّل الأسنّة كما جاء عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة [كوم من تراب] ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به، فإذا دخل شهر رجب قلنا مُنصّل الأسنّة، فلا ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناه وألقيناه في شهر رجب. (٧)

قال البيهقي: كان أهل الجاهلية يعظّمون هذه الأشهر الحرم، وخاصة شهر رجب، فكانوا لا يقاتلون فيه. وكانوا يسمونه أيضاً: «رجب الأصم» لسكون أصوات السلاح وقعته فيه. (٨)

وللأشهر الحرم مكانة عظيمة، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام} [المائدة: ٢] أي لا تحلوا محرماته التي أمركم الله بتعظيمها ونهاكم عن ارتكابها، فالنهي يشمل فعل القبيح ويشمل اعتقاده.

وقال تعالى: {فلا تظلموا فيهن أنفسكم} [التوبة: ٣٦] أي في هذه الأشهر المحرمة، فينبغي مراعاة حرمة هذه الأشهر لما خصها الله به من المنزلة والحذر من الوقوع في المعاصي والآثام تقديراً لما لها من حرمة، ولأن المعاصي تعظم بسبب شرف الزمان الذي حرّمه الله؛ ولذلك حذرنا الله في الآية السابقة من ظلم النفس فيها مع أنه - أي ظلم النفس ويشمل المعاصي - يحرم في جميع الشهور.

قال قتادة: "العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً".

وقال ابن عباس: (يريد استحلال الحرام والغارة فيهن).

وقال محمد بن إسحاق: لا تجعلوا حلالها حراماً، ولا حرامها حلالاً كفعل أهل الشرك، وهو النسيء.

وقال القرطبي - رحمه الله -: لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب، لأن الله سبحانه إذا عظم شيئاً من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة، وإذا عظمه من جهتين أو

جهات صارت حرمته متعددة، فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيئ، كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح، فإن من أطاع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام، ليس ثوابه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس كثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال، وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله تعالى: { يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين } [الأحزاب: ٣٠] (٩)

ويقول الحافظ ابن حجر عليه رحمة الله: لم يرد في فضل شهر رجب ولا في صيامه ولا في صيام شيء معين منه، ولا في قيام ليلة مخصوصة منه حديث صحيح يصلح للحجة. وقال: الأحاديث الواردة في فضل شهر رجب على قسمين: ضعيفة وموضوعة (١٠). وقال ابن دحية رحمه الله: وفي هذا الشهر أحاديث كثيرة من رواية جماعة من الوضاعين وكان شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي لا يصوم رجباً وينهى عن ذلك ويقول: ما صح في فضل رجب ولا في صيامه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيء (١١)

الهوامش والمصادر

(١) رواه البخاري رقم (١٧٤١) في الحج باب الخطبة أيام منى، ورواه مسلم رقم (١٦٧٩) في القسامة باب تحريم الدماء . (٢) بدع رجب / سعيد عبد الباري بن عوض (٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨٩/٤) (٤) معجم مقاييس اللغة (ص٤٤٥) ابن فارس (٥) رواه البخاري ٥٤٧٣ في كتاب العقيدة باب الفرع، ومسلم ١٩٧٦ في كتاب الأضاحي باب الفرع والعتيرة عن أبي هريرة (٦) لطائف المعارف / ابن رجب الحنبلي ص ٢٠٤ / المكتبة التوفيقية / مصر (٧) رواه البخاري ٣٤٦٤ بقية كتاب المغازي (٨) انظر: تفسير الطبري (٤/٣٠٠ . شاکر) (٩) تفسير القرطبي . سورة التوبة ج ٤ ص ٢٣٤ (١٠) تبیین العجب بما ورد في فضل رجب ص٢٣ (١١) أداء ما وجب ص ١٠٤ - ١١٢.

مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، قال: «مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»

** الفاروق، أبو حفص، عمر بن الخطاب الذي أعز الله به وأظهر الدين.. لُقِبَ بالفاروق لأنَّ الله عز وجل فرق به بين الحق والباطل، وأيد به الدين، ونصر به الإسلام. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: كَانَ إِسْلَامُهُ عِزًّا ظَهَرَ بِهِ الْإِسْلَامُ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ) قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ

[الترمذي وأحمد وصححه الألباني، وأورده القاري في "المصنوع في الموضوع" بلفظ:

«أحد العميرين» وقال: لا أصل له بهذا اللفظ]

** أسلم عمر في السنة السادسة من البعثة، فكان من أعظم الناس شدة على كفار قريش، وإن كان قبل إسلامه شديداً على المسلمين؛ لكنه بعد أن أسلم كان من أشد الناس على الكفار حتى أنزل الله عند إسلامه: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: ٦٤]، أي: يكفيك من حصل إسلامهم فلا تبال بتأخر غيرهم، وكون نزولها عند إسلامه دليل على مزيد فضله حتى كأنه هو المقصود من الآية وحده -رضي الله عنه-.

** عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لما أسلم عمر -رضي الله تعالى عنه-، قال المشركون: لقد انتصف القوم منا.

// وعن ابن عباس أيضاً: لما أسلم عمر -رضي الله تعالى عنه- نزل جبريل عليه السلام على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر.

// في زيادة حديث الباب قال ابن مسعود: والله لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالكعبة [أي: عندها] ظاهرين آمنين حتى أسلم عمر فقاتلهم حتى تركونا فصلينا [أي وجهروا بالقراءة وكانوا قبل ذلك لا يقرءون إلا سرا].
// وعن صهيب لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقا وطفنا وانتصفنا ممن غلظ علينا.

** الفاروق أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الخلفاء الأربعة، وُلد بعد حادث الفيل بثلاث عشرة سنة، وأسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة.
** عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: أريت في المنام أبا بكر بدلو بكره [أي استقي بالدلو على البكرة] على قليب [بئر] فجاء أبو بكر فنزع [استقى] ذنوباً أو ذنوبين [الدلو العظيمة] نزعاً ضعيفاً والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً [أي تحولت ورجعت إلى الكبر، والغرب الدلو العظيمة] قال أبو بكر الأنباري: هذا مثل، أي أن عمر لما أخذ الدلو عظمت في يده لأن الفتوح كانت على عهد عمر أكثر مما كانت في أيام أبي بكر، ومعنى استحالت انقلبت من الصغر إلى الكبر] فلم أر عبقرياً يفري فرية [أي يعمل عمله] حتى روي الناس وضربوا بعطن [الموضع الذي تُناخ فيه الإبل إذا رويت .. ضرب ذلك مثلاً لأيام خلافتهما، وأن أبا بكر قصرت مدة أمره ولم يفرغ من قتال أهل الردة لافتتاح الأمصار، وعمر قد طالت أيامه وتيسرت له الفتوح وأفاء الله عليه الغنائم وكنوز الأكاسرة]

// قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فدكر أن أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر، فلا ريب أن أبا بكر أقوى إيماناً من عمر. وعمر أقوى عملاً منه كما قال ابن مسعود: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر؛ وقوة الإيمان أقوى وأكمل من قوة العمل، وصاحب الإيمان يكتب له أجر عمل غيره، وما فعله عمر في سيرته مكتوب مثله لأبي بكر فإنه هو الذي استخلفه.

** عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ فُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قُئِمَ فَبَادَرَنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَدَخَلَ عُمَرُ وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعَ صَوْتَكَ ابْتَدَرَنَ الْحِجَابَ. فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهْبَنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ يَا عَدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَقُلْنَ: نَعَمْ أَنْتَ أَفْظُ وَأَغْلُظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ.

** عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عَرَضُوا عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَعَرَضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ اجْتَرَّهُ. قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الدِّين»

** عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي حَمْزَةُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ شَرِبْتُ -يَعْنِي اللَّبَنَ- حَتَّى أَنْظَرُ إِلَى الرَّيِّ يَجْرِي فِي ظَفْرِي أَوْ فِي أَظْفَارِي ثُمَّ نَأَوْتُ عُمَرَ. فَقَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ؟ قَالَ: «الْعِلْم»

// وقال ابن مسعود: لو وضع علم أحياء العرب في كفة الميزان، ووضع علم عمر لرجح علم عمر. ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم. ولمجلس كنت أجلسه من عمر أوثق في نفسي من عمل سنة.

// وقال الشعبي: من سره أن يأخذ بالوثيقة في القضاء فليأخذ بقضاء عمر، فإنه كان

يستشير.

** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ.

** ولقد نزل كثير من آيات القرآن موافقا لرأي عمر -رضي الله عنه- وعاتب الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- مخالفته رأي عمر في قصة أسرى بدر ... فقد نزل القرآن بموافقة في أسرى بدر وفي الحجاب وفي مقام إبراهيم.

// فأما أسرى بدر فإن أبا بكر أشار على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يأخذ منهم الفداء، وأشار عمر أن تضرب أعناقهم، فهوى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر. ونزل القرآن بقول عمر: {ما كان لنبِي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض}

// وأما قصّة الحجاب، فإن عمر -رضي الله عنه- كان يقول: يا رسول الله، احجب نساءك، فإنه يدخل عليك المنافق والمرتاب. فأنزل الله آية الحجاب.

// وأما قصة مقام إبراهيم، فروى الترمذي عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلىً. فنزلت: {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىً}.

وقال علي -رضي الله عنه-: ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر.

** عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- يَقُولُ: وَضَعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَأَنَا فِيهِمْ فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَجُلٌ آخِذٌ مَنَكِبِي فَإِذَا عَلِيٌّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ فَتَرَحَّمَ عَلَيَّ عُمَرُ وَقَالَ: مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسِبْتُ إِلَيَّ كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

** عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرَّمِيصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ [مصغر الرمضاء، ولقبت بها لرمص

كان بعينها، وهو وسخ أبيض يجتمع بموق العين إذا هاجت بالرمد وتلصق منه الأشفار،
واسمها سهلة بنت ملحان الأنصارية زوجة أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري وهي، أم سليم
أم أنس بن مالك]

وَسَمِعْتُ خَشْفَةً [الصوت ليس بالشديد] فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ، وَرَأَيْتُ
قَصْرًا بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لِعُمَرَ. فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ
غَيْرَتَكَ. فَقَالَ عُمَرُ: يَا أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَلَيْكَ أَغَارُ

** يعملنا قول ابن مسعود أن نكون أهل إنصاف وحق مع علماء وقادة ومربين
وإصلاحيين ومثقفين ومبدعين كنا أعزة بهم وبمسيرتهم وجميل حركتهم وكنا نستشهد بهم وما
كان من تكويننا وإبداعاتنا إلا ثمرة من عطائهم وجميل تربيتهم، وهذا والله منتهى الاعتراف،
والعلم، والفهم والوعي.

** ما زلنا أعزة منذ ...

فليسطر كل واحد منا كلمة في خلدته يتبعها بتكملة الجملة بما يراه، وإذا لم يجد مكانا
لها ولا جوابا عليها.. عندها فقط فليعلم أنه أول الخاسرين، لأنه لن يكون له اعتراف به
وتقدير لجهوده ومكانته إذا لم ير عزة فيمن نقل له وعلمه

فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ

عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي غَرَزَةَ، قَالَ: كُنَّا نُسَمِّي عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- السَّمَّاسِرَةَ، فَمَرَّ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَسَمَّانَا بِاسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ، وَالْحَلْفُ، فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ) [أحمد وابن ماجه وصححه الألباني]

«السَّمَّاسِرُ» لفظ أعجمي، وكان كثير من يعالج البيع والشراء فيهم عجمًا، فنقلوا هذا الاسم عنهم، فغيره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى «التجار» التي هي من الأسماء العربية، وذلك معنى قوله: "فسمانا باسم هو أحسن منه".

والسمسار: اسمٌ لِمَنْ يَعْمَلُ لِلغَيْرِ بِالْأَجْرِ بَيْعًا وَشِرَاءً، وَمَقْصُودُهُ مِنْ إيرادِ الْحَدِيثِ بَيَانُ جَوَازِ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَمَّاهُمْ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِمَّا كَانُوا يُسَمُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَهُوَ الْأَلْيَقُ بِكَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ مَعَ النَّاسِ، وَإِنَّمَا كَانَ اسْمُ التُّجَّارِ أَحْسَنَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُطْلَقُ فِي الْعِبَادَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}

قوله: (إِنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ، وَالْحَلْفُ)

** (اللَّغْوُ) هو من الكلام ما لا يعتد به، وقيل هو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغو وهو «صوت العصافير»، فاللغو هو الكلام الذي فيه ترغيب في السلعة وترويج لها، وقد يكون منه ما هو كذب، وقد يكون منه ما هو لغو لا حاجة إليه.

قوله: (إِنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ، وَالْحَلْفُ)

** (الْحَلْفُ) أي: يحصل فيه الحلف، فالإنسان يحلف من أجل البيع والشراء، فإذا كان صادقاً فهو غير آثم لكن يشوبه الحرج، وإن كان كاذباً فهو آثم، ولا يحتاج الأمر إلى أن يحلف، بل يخبر بالسلعة كما هي، ويخبر عنها بما يعلمه فيها دون أن يحلف، ولا يجعل الله وسيلة إلى أنه لا يتحدث إلا حالفاً، بل يعرض سلعته ويبين ما فيها دون أن يحلف، وإن حلف بكذب فإنه يأثم بذلك.

// عن أبي قتادة -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنْفِقُ، ثُمَّ يَمَحِقُ) [مسلم والنسائي].

إياكم معناه الزجر والتحذير، أي: احذره واتقه، وإنما حذر من كثرة الحلف لأن الغالب ممن كثرت أيمانه وقوعه في الكذب والفجور، وإن سلم من ذلك -على بعده- لم يسلم من الحنث أو الندم لأن اليمين حنث أو مندمة وإن سلم من ذلك لم يسلم من مدح السلعة المحلوف عليها والإفراط في تزيينها ليروجها على المشتري، مع ما في ذلك من ذكر الله تعالى لا على جهة التعظيم، بل على جهة مدح السلعة، فاليمين على ذلك تعظيم للسلع لا تعظيم لله تعالى.. وهذه كلها أنواع من المفاسد لا يقدم عليها إلا من عقله ودينه فاسد // وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (الْحَلْفُ مَنْفَقَةٌ لِلْسَّلْعَةِ، مَحَقَّةٌ لِلْكَسْبِ). [البخاري ومسلم] وعند أبي داود: (مَحَقَّةٌ لِلْبِرْكَةِ).

قال الإمام النووي: "وفيه النهي عن كثرة الحلف في البيع فإن الحلف من غير حاجة مكروه وينضم إليه ترويج السلعة وربما اغتر المشتري باليمين"

وقال الحافظ أبو العباس القرطبي المحدث - وهو شيخ القرطبي المفسر: "وقوله: (الحلف منفقة للسلعة محقة للربح) أي الحلف الفاجرة تنفق السلعة وتمحق بسببها البركة، فهي ذات نفاق وذات محق. ومعنى تمحق البركة أي تذهبها، وقد تذهب رأس المال، كما قال الله تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ} وقد يتعدى المحق إلى الحالف فيعاقب بإهلاكه وتوالي المصائب عليه، وقد يتعدى ذلك إلى خراب بيته وبلده كما روي أن النبي -

صلى الله عليه وسلم- قال: (اليمن الفاجرة تذر الديار بلاقع) أي: خالية من سكانها إذا توافقوا على التجروء على الأيمان الفاجرة.

وأما محق الحسنات في الآخرة فلا بد منه لمن لم يتب وسبب هذا كله أن اليمن الكاذبة يمين غموس يؤكل بها مال المسلم بالباطل".

وقال أبو حامد الغزالي: "ولا ينبغي أن يحلف عليه البتة فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع. وإن كان صادقاً فقد جعل الله عرضة لأيمانه وقد أساء فيه إذا الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة... فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروهاً من حيث أنه فضول لا يزيد في الرزق فلا يخفى التغليظ في أمر اليمن: [إحياء علوم الدين ٧٧/٢]

// وعن حكيم بن حزام -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا)، أو قال: (حتى يتفرقا، فإن صدقا وبينا، بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا، محقت بركة بيعهما).

وفي رواية للبخاري: (فإن صدق البيعان وبينا، بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا، فعسى أن يربحا ربحاً ما، ويمحقا بركة بيعهما، اليمن الفاجرة: منفقة للسلعة، ممحقة للكسب) [أخرجه الجماعة]

// عَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: (ثَلَاثًا لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: الْمَنَانُ وَالْمُسْبِلُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ).

// وعن عبد الله بن أبي أوفى -رضي الله عنه-: أن رجلاً أقام سلعة وهو في السوق فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعط ليوقع فيها رجلاً من المسلمين فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} [رواه البخاري]

// وعن سلمان -رضي الله عنه-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه) [الطبراني، وصححه الشيخ الألباني]
وفي رواية: (رجل اتخذ الأيمان بضاعة يحلف في كل حق وباطل) [الطبراني، وحسنه الألباني]

والأشيمط الزاني: هو الرجل الكبير في العمر ومع ذلك يزني، والعائل المستكبر: هو ذو العيال المتكبر.

// قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه-: الْإِيمَانُ لِقَاحُ الْبُيُوعِ وَتَمَحُّقُ الْكَسْبِ.
// وَقَالَ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-: الْكَذِبُ مِلْحُ الْبَيْعِ يُنْفِقُ السِّلْعَةَ وَيَمْحَقُ الْكَسْبَ.

// وقال أنس بن مالك -رضي الله عنه-: "يا معشر التجار إنكم تقولون في شرائكم لا والله وبلى والله فشوبوه بالصدقة".

// وقال الدهلوي: يكره إكثار الحلف في البيع لشيئين: كونه مظنة لتغريب المتعاملين، وكونه سببا لزوال تعظيم اسم الله من القلب، والحلف الكاذب منفقة للسلعة لأن مبني الإنفاق في تدليس المشتري، وممحققة للبركة لأن مبني البركة على توجه دعاء الملائكة إليه، وقد تباعدت بالمعصية، بل دعت عليه. [حجة الله البالغة]

// قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٢٤] أي: لا تكثروا من اليمين بالله تعالى فإنه أهيب للقلوب، ولهذا قال الله تعالى: {وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} وذم من كثر اليمين فقال الله تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ خَلَّافٍ مَهِينٍ} والعرب تمتدح بقلة الأيمان [تفسير القرطبي]

وأما إذا كان الخالف كاذباً متعمداً للكذب فقد وقع في الحرام، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٧]

**** قوله في هذا الحديث (إِنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ، وَالْحَلْفُ)**

// وفي رواية: (الحلف والكذب).

// وفي رواية أبي داود: (اللغو والكذب).

// ورواية الترمذي: (إن الشيطان والإثم يحضران البيع).

**** قال صلى الله عليه وسلم: (التجار هم الفجار) قالوا: أليس قد أحل الله البيع؟! قال:**

(بلى، ولكنهم يخلفون فيأثمون، ويخونون فيكذبون)

// وقال سعيد بن عمير: سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- أي كسب الرجل

أطيب؟ قال: (عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور).

// وروى الدارقطني عن ابن عمر -رضي الله عنه- قال صلى الله عليه وسلم: (التاجر

الصدوق الأمين المسلم مع التبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة).

فمعظم التجارات مشتملة على الأكل بالباطل للطمع في أخذ الأرباح الفاحشة،

ولزخرفة البضاعة بمختلف الأساليب، ولاقتراها بالأيمان الكاذبة غالباً، لذا فإنها تحتاج إلى

المسامحة والصدقة.

**** (فشوبوه بالصدقة) أصل الشوب: الخلط، أمرهم بالصدقة لما يجري بينهم من**

الكذب والربا والزيادة والنقصان في القول لتكون كفارة لذلك، ففيه تكفير الخطيئة وجبر ما

فرط من غلواء النفس، وأراد -والله أعلم- أن يطهره الصدقة.. فجعل -صلى الله عليه

وسلم- للآخرة وجوداً من أموالهم.

قال أهل العلم: قَدْ يُبَالِغُ التَّاجِرُ فِي وَصْفِ سِلْعَتِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِمَا هُوَ لَعْوٌ، وَقَدْ يُجَازِفُ

فِي الْحَلْفِ لِتَرْوِجِ سِلْعَتِهِ، فَيُنْدَبُ إِلَى الصَّدَقَةِ لِيَمْحُوَ أَثَرَ ذَلِكَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} وَقَالَ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {أَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا} أما

الحلف الكاذب فشأنه أعظم.

// عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرْقِيِّ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى الْمَصْلَى بِالْمَدِينَةِ فَوَجَدَ النَّاسَ يَتَّبِعُونَ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ التَّجَارِ) فَاسْتَجَابُوا لَهُ وَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ وَأَعْنَاقَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: (إِنَّ التَّجَارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَارًا إِلَّا مَنْ اتَّقَى وَتَرَّ وَصَدَّقَ) [ابن حبان، وصححه الألباني]

** وكل من فتن بشيء من المعاصي والشهوات المحظورة فهو مفتون إلا أنه إن ترك وأتاب واستغفر وتاب، غفر له مع أدائه لصلاته وزكاته وصومه، وهذه صفات المذنبين، وقد فتن الصالحون وابتلوا بالذنوب، قال الله تعالى: {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} وقد يكون من هذا الباب من الفتنة ما هو أشد مما وصفنا وهو الإصرار على الذنب والإقامة عليه [التمهيد للقرطبي]

** وقد استدل «أهل الظاهر» بهذا الحديث على أن زكاة العُرُوض غير واجبة [تقوم السلع فإذا بلغت قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة يخرج منها الزكاة]؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أمر بأن تشاب التجارة بالصدقة، وفي رواية (بشيء من الصدقة)، ولو كان هناك شيء في التجارة واجب لبينه الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

وليس فيما ذكروه دليل على ما ادعوه لأنه أمرهم في هذا الحديث بشيء من الصدقة غير معلوم المقدار في تضاعيف الأيام من الأوقات ليكون كفارة عن اللغو والحلف فأما الصدقة التي هي ربع العشر الواجب عند تمام الحول فقد وقع البيان فيها من غير هذه الجهة، وقد روى سمرة بن جندب أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يأمرهم أن يخرجوا الصدقة عن الأموال التي يعدونها للبيع، وذكره أبو داود في كتاب الزكاة ثم هو عمل الأمة وإجماع أهل العلم.

وأكثر أهل العلم على القول بوجود الزكاة في عُرُوضِ التِّجَارَةِ؛ بل عُرُوضِ التِّجَارَةِ هي أغلب ما يحصل منه من الفوائد، وأكثر ما تحصل الزكاة عن طريقها، وقد استدل أهل العلم على زكاة العُرُوضِ بالآيات والأحاديث العامة فيما يتعلق بالزكاة، لاسيما وغالب

المكاسب والأعمال تكون في التجارة، فإذا لم يكن في التجارة زكاة فمعناه أن قسماً كبيراً مما يصرف للفقراء من الأغنياء سينقطع.

وقد اتفق على وجوب زكاة عُرُوضِ التِّجَارَةِ الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وهم فقهاء المدينة السبعة الذين جمعوا بين الفقه والحديث، وكانوا في زمن متقارب وفي عصر واحد ف قيل لهم: «الفقهاء السبعة»، وهم: عبيد الله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وأبو بكر بن الحارث بن هشام، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

لقد حجرت واسعا

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في صلاة، وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: (اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا) فلما سلم النبي -صلى الله عليه وسلم- قال للأعرابي: (لقد حجرت واسعا) يريد رحمة الله (١)

رحمة الله جائزة الطائعين ومرجع التائبين وملاذ المسرفين من القنوط من عفو رب العالمين، إنها الغيث الذي تنبت به القلوب المؤمنة والنور الذي يضيء الطرق الحالكة، والغيض الذي بلغ المؤمن غاية رشده، والفيض الذي تعجز الأقلام عن وصف حده، فرحمة الله تعالى تفيض على عباده جميعا وتسعهم جميعا وبها يقوم وجودهم وتقوم حياتهم وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات وجودهم وفي جميع حركاتهم وسكناتهم.

قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} [الأعراف: ١٥٦] وقال تعالى: {نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم} [الحجر: ٤٩]

حكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: {قل كل يعمل على شاكلته} [الإسراء: ٨٤]

فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران، وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول} [غافر: ١-٣] قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارة

للمؤمنين، وقال عثمان ابن عفان -رضي الله عنه- عنه قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: {نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم} [الحجر: ٤٩]، وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} [الزمر: ٥٣]، قلت [أي القرطبي] وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} [الأنعام: ٨٢] (٢) قال تعالى:

- {وربك الغني ذو الرحمة} [الأنعام: ١٣٣]

- {وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا} [الكهف: ٥٨]

- {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم} [الأنعام: ٥٤]

- {كتب على نفسه الرحمة} [الأنعام: ١٢]

أي وعد بها فضلا منه وكرما فلذلك أمهل، وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده وارتفاع الوسائط دونه، ومعنى الكلام الاستعفاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة.

فمن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي) (٣) أي لما أظهر قضاءه وأبرزه لمن شاء أظهر كتابا في اللوح المحفوظ - أو فيما شاءه - مقتضاه خبر حق ووعد صدق (إن رحمتي تغلب غضبي) أي تسبقه وتزيد عليه (٤)

وقال تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} [الزمر: ٥٣]

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا محمدا -صلى الله عليه وسلم- فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تجربنا أن لما عملنا كفارة، فنزل {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون...} [الفرقان: ٦٨-٧٠] ونزلت: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} [الزمر: ٥٣] (٥)

وعن ابن عمر عن عمر -رضي الله عنهما- قال: لما اجتمعنا على الهجرة اتعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمي وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة فقلنا الموعد أضاة بني غفار، وقلنا من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه، فأصبحت أنا وعياش ابن عتبة، وحبس عنا هشام وإذا به قد فتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله -صلى الله عليه وسلم- ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضا يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عز وجل في كتابه: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} إلى قوله تعالى: {أليس في جهنم مثوى للمتكبرين} قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام، قال هشام: فلما قدمت علي خرجت بها إلى ذي طوى فقلت: اللهم فهمنيها، فعرفت أنها نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٦)

قال سيد قطب -رحمة الله-: إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت وإنما الدعوة للأوبة. دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانتهم ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق ويجلب عليهم بخيله ورجله، وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا

أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصية حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط، وبعد أن يلج في المعصية ويسرف في الذنب ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ولم يعد يقبل ولا يستقبل في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}.

وليس بينه - وقد أسرف في المعصية وولج في الذنب وأبق عن الحمى وشرذ عن الطريق - ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية وظلالها السمحة المحيية. ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة. التوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون} [الزمر: ٥٤ - ٥٥]

الإناابة والإسلام والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام هذا هو كل شيء بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء!

إنه حساب مباشر بين العبد والرب، وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب ومن أراد الإناابة من الضالين فلينب ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم وليأت.. ليأت وليدخل فالباب مفتوح والفيء والظل والندى والرخاء كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب! (٧)

وقال تعالى: {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير} [غافر: ١-٣]

روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان، سلام عليك وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير} ثم ختم الكتاب وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحبا ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرتي عقابه فلم يبرح يرددتها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ أمره، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلة فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه (٨)

وفي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار) (٩)

وعن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (لو تعلمون قدر رحمة الله لا تكلمتم عليها) (١٠)

وقوله -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث الجليل (حجرت) أي ضيقت وزنا ومعنى، ورحمة الله واسعة، كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف: ١٥٦]، فأنكر -صلى الله عليه وسلم- على الأعرابي لكونه بخل برحمة الله على خلقه، وقد أثنى الله تعالى على من فعل خلاف ذلك حيث قال تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} [الحشر: ١٠]

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود. تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها في

متضامن وتكافل وتواد وتعاطف وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب وتتفرد وحدها في القلوب تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة ويذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة كما يذكر أخاه الحي أو أشد في إعزاز وكرامة وحب ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف صفا واحدا، وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم.

إنها صورة باهرة تمثل حقيقة قائمة كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم، صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد الذميم والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس، صورة الحقد الذي ينغل في الصدور وينخر في الضمير على الطبقات وعلى أجيال البشرية السابقة وعلى أممها الحاضرة التي لا تعتق الحقد الطبقي الذميم وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين!

صورتان لا التقاء بينهما في لحظة ولا سمة ولا لمسة ولا ظل صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقبها وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتهما صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله بريئة الصدور من الغل طاهرة القلوب من الحقد وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقي بعضهم بعضا بالحقد والدغل والغش والخداع والالتواء حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة. فالصلاة ليست سوى أحبولة، والدين كله ليس إلا فخا ينصبه رأس المال للكادحين {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} هذه هي قافلة الإيمان وهذا هو دعاء الإيمان وإنها لقافلة كريمة وإنه لدعاء كريم (١١)

الهوامش والمصادر

- (١) رواه البخاري - كتاب الأدب برقم ٥٥٥١ (٢) تفسير القرطبي ج: ١٠ ص: ٣٢٢ (٣)
مسلم - كتاب التوبة برقم ٤٩٤١ (٤) تفسير القرطبي ج: ٦ ص: ٣٩٥ (٥) البخاري - كتاب تفسير
القرآن برقم ٤٤٣٦
- (٦) تفسير القرطبي ج: ١٥ ص: ٢٦٧ ورواه الحاكم ج ٢ ص ٤٣٥ وقال هذا حديث صحيح
على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٦ ص ٦١ رواه البزار
ورجاله ثقات (٧) في ظلال القرآن - دار الشروق - ص ٣٠٥٨ (٨) تفسير القرطبي ج: ١٥ ص:
٢٩١ (٩) رواه البخاري - كتاب الرقائق برقم ٥٩٨٨ (١٠) رواه البزار (صحيح) انظر حديث رقم:
٥٢٦٠ في صحيح الجامع (١١) في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق ص ٣٥٢٧

أعني على نفسك بكثرة السجود

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سلمة قال: سمعت ربيعة بن كعب الأسلمي يقول: كنت أبيت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- [على باب بيته لأداء خدمته] فَأَتَيْتُهُ بَوْضُوئِهِ وَبِحَاجَتِهِ. فقال: (سلني) [حاجة أتحنك بها في مقابلة خدمتك] فقلت: مُرِّافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قال: (أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟) قلت: هو ذلك. قال: (فأعني على نفسك بكثرة السجود). [مسلم]

** ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمي، أبو فراس، الصحابي، خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حضراً وسفراً، ومن أهل الصُّفَّة، رضي الله عنه.

قال أبو نعيم: كان من أحلاس المسجد، ومن الملازمين لخدمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وله بأهل الصفة اتصال، روي عنه قال: كنت أبيت على باب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأعطيته الوضوء فأسمعته من الهويِّ بالليل يقول: (سمع الله لمن حمده) وللهويِّ من الليل يقول: (الحمد رب العالمين)

رُوي له عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اثنا عشر حديثاً، روى له مسلم حديثاً واحداً وهو هذا الحديث، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود.

** قوله: (أو غير ذلك؟).. أي أن تسألني غير ذلك. أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعرف مدى تصميمه على ما سأل.

** قوله: (أسألك مرافقتك في الجنة) أي: أن أكون معك فيها قريباً منك متمتعاً بنظرك وقربك حتى لا أفارقك، فلا يشكل حينئذٍ بأن منزله «الوسيلة» وهي خاصة به عن سائر الأنبياء فلا يساويه في مكانه منها نبيٌّ مرسل فضلاً عن غيرهم.. لأن المراد أن تحصل له مرتبة من مراتب القرب التام إليه، فكفى عن ذلك بالمرافقة.

** فإذا رأيت رجلاً تتوسم فيه الخير، وسألته أن يسأل الله لك، وصرت أنت وهو تدعوان الله سبحانه، فهذا مظنة الإجابة، وروي أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما جاءه عمر -رضي الله عنه- وقال: كنت نذرت اعتكاف ليلة في الجاهلية، ولم أوف بندري، فقال: أوف بندرك يا عمر! فلما أراد الخروج قال له النبي: (لا تنسنا من دعائك يا أخي!) أي: من دعائك هناك عند الكعبة، فلا مانع في ذلك.

** هذا الصحابي الجليل في بعض أخباره أنه خدم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكافئه، تقديراً لعمله، قال: ستعطيني إياه؟ قال: نعم، قال: أمهلني، فرجع إلى زوجته وأخبرها أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد طلب منه أن يسأله أي شيء مكافأة له، قالت: أو يفعل؟ قال: سألته فقال: نعم، قالت: سله مرافقته في الجنة.

لم تقل -رضي الله عنها-: سله عملاً أو منصباً أو مالاً!!

لكن ما هو الذي يخصها من مرافقة زوجها للنبي -صلى الله عليه وسلم- في الجنة؟ فلو سأل مالاً أو منصباً يمكن أن تحصل على شيء منه، لكن نقول: فعلت ذلك لأحد أمرين:

١/ إما من باب: النصح لله ولرسوله ولعامة الناس، وهذا من صلاح الزوجة وبركتها ووفائها لزوجها، أنها تحب له أقصى ما يمكن، فأثرت مصلحته على نفسها، ووجهته التوجيه العالي، فكم من امرأة أعقل من عشرات الرجال!

٢/ وإما من جانب آخر: وذلك أنها ستدخل في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾ [الطور: ٢١] إذاً: تكون الزوجة ملحقة بالزوج إذا رفع إلى أعلى مراتب الجنة، وإذا دخل الجميع الجنة مع تفاوت مراتبهم، فيلحق الله تعالى الزوجة إلى مرتبة الزوج لتقر أعين الآباء بالأبناء والأزواج بالزوجات.

** قوله: (أعني) حينئذٍ (على نفسك) المتخلفة بطبعها عن السعي في نيل المعالي لميلها إلى الدعة والرفاهية والشهوات والبطالات، وفي قوله: «أعني» إشارة إلى أنه -صلى الله عليه وسلم- كان مجتهداً في إصلاحه كغيره، وأنه كالطبيب الساعي في شفائه، والطبيب يحتاج لمساعدة المريض بتعاطيه ما يصفه له (بكثرة السجود) المحصل لنيل مرتبة القرب المطهر للنفس عن خبائثها، المخرج لها عن شهواتها وعاداتها، المبعد لها عن النقائص، كما أنه يؤدي إلى دوام المراقبة فيحصل الرقي إلى المرافقة والمجاورة.

** والصحابي -رضي الله عنه- لم يطلب مجرد دخول الجنة، بل طلب مرافقة النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها، وهذه مسألة غير عادية، فمراتب النبيين وعباد الله المكرمين شيء عال، فقال له -صلى الله عليه وسلم-: (أو غير ذلك؟) اسأل ما لا أعطيك، اسأل منصباً أوليك، قال: هو ذاك، فتمسك الرجل بوعده رسول الله.

** انظروا إلى سماحة وسعة هذا الدين، لم يقل له أنا أضمن لك هذا، بل وجهه إلى ما يفعله هو، قال: (أعني على نفسك بكثرة السجود) أي يمكن أن يكون لك ما أردت بمساعدة من عندي، بما له -صلى الله عليه وسلم- من حق الشفاعة، وبما له عند الله من جاه وطلب وبر، ومن استجابة دعوة، ولكن أرشده إلى أمر فقال: (أعني على نفسك بكثرة السجود)

** في الحديث دليل على أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يملك أن يدخل أحداً الجنة، ولهذا لم يضمن لهذا الرجل أن يعطيه مطلوبه، ولكنه قال له: فأعني على نفسك بكثرة السجود فإذا قام بكثرة السجود التي أوصاه بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإنه حرى بأن يكون مرافقاً للرسول -صلى الله عليه وسلم- في الجنة.

** والسجود هنا بمعنى «الصلاة». وليس المقصود السجود بدون صلاة، وإنما يصلي؛ لأن الصلاة يطلق عليها سجود، ويقال للركعة: سجدة، كما في قوله تعالى: {وَأَذْبَارَ السُّجُودِ} [ق: ٤٠] يعني: أذبار الصلوات.

** حمل أهل العلم (كثرة السجود) على «الصلاة نفلًا» فجعل الحديث دليلاً على التطوع، وكأنه صرفه عن الحقيقة كون السجود بغير صلاة غير مرغوب فيه على انفراده، والسجود وإن كان يصدق على الفرض، لكن الإتيان بالفرائض لا بد منه لكل مسلم، وإنما أرشده -صلى الله عليه وسلم- إلى شيء يختص به ينال به ما طلبه

فكثرة السجود توحى بزيادة سجود مطلقة سواء كانت راتبة مع الفريضة، أو كانت غير راتبة كسنة مطلقة غير مقيدة لا بزمان ولا بمكان.. وهذا -كما هو معلوم- له ولغيره.

** قال أهل العلم: فمن كثر سجوده حصلت له تلك الدرجة العلية التي لا مطمع في الوصول إليها بمزيد الزلفى عند الله في الدنيا إلا بكثرة السجود المشار إليه بقوله تعالى: {واسجد واقترب} (العلق: ١٩) فكل سجدة فيها قرب مخصوص لتكفلها بالرقى إلى درجة من درجات القرب، وهكذا حتى ينتهي إلى درجة المرافقة لحبيبه -صلى الله عليه وسلم-

كما قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} [آل عمران: ٣١] فدل على أن القرب من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يحصل إلا بالقرب من الله تعالى، وأن القرب من الله تعالى لا ينال إلا بالقرب من رسوله. فالقربان متلازمان لا انفكاك لأحدهما عن الآخر البتة: ومن ثم أوقع تعالى في الآية «متابعة رسوله» بين تلك المحبتين ليعلمنا أن محبة العبد ومحبتة للعبد متوقفتان على متابعة رسوله.

** لا شك في أن الوقت الذي فيه الإتيان بالصلاة على وجه أكمل هو الليل، والحديث يشمل الصلاة في الليل وغير الليل، ولا يختص بالليل، ولكن الصلاة في الليل لها فضيلة ومزية، ولهذا أورده أبو داود رحمة الله عليه فيما يتعلق بصلاة الليل، ولكنه لا يختص بذلك، بل يمكن أن الإنسان يصلي في الضحى، ويصلي بعد الظهر وبعد المغرب، وفي كل الأوقات التي تجوز الصلاة فيها.

** من نعمة الله تبارك وتعالى أنه شرع لعبادة سننا من جنس الفرائض فالصلوات المفروضة لها تطوع: سنن، والزكاة لها تطوع: صدقة، والصيام له تطوع: صوم النافلة، والحج له تطوع [كحديث الجلوس حتى شروق الشمس]، الجهاد له تطوع [الحج جهاد لا شوكة

فيه]، وذلك أن الإنسان لا يخلو من تقصير في الواجبات فجعل الله تعالى هذا التطوع جبراً لما يحصل من التقصير، ومن نعمة الله تعالى أن شرع لعباده هذا التطوع ليزدادوا عملاً صالحاً ولتجبر به فرائضهم فله الحمد والمنة.

**كثرة التطوع تؤهل إلى مرافقة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد جاء عنه -صلى الله عليه وسلم- فيمن يكون قريباً منه في الجنة، أنه قال: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة)، وقال: (أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً)، (أكثرُوا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة...) فهناك مميزات وأعمال تدني من تلك الدرجة الشريفة.

**الأعمال تتفاضل فطلب العلم أفضل من صلاة النافلة لأن طلب العلم من الجهاد في سبيل الله.. قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: "تذاكر ليلة أحب إلي من قيامها" يعني التذاكر في العلم أحب إلي من قيامها، ولكن إذا كان الإنسان ليس أهلاً لطلب العلم لعدم فهمه أو لعدم حفظه أو ما أشبه ذلك فالصلاة خير والله الموفق

كن إيجابياً تكن مسلماً حقاً

عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال -صلى الله عليه وسلم-: (ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين اللذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون) [١]

الشخصية المسلمة والشخصية الإيجابية وجهان لعملة واحدة، وما زال المسلمون قديماً وحديثاً يقولون: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص» فالشخصية المتدينة لا تنفصل أبداً عن الإيجابية، بمعنى أنه لا يمكن أن يكون الإنسان متعبداً وفي الوقت نفسه مُخلاً بحياته العملية الطيبة، هذا لا يكون أبداً.

إن الشخصية السوية لا تنفصم إلى واقع عقدي تعبدي وواقع عملي مغاير، والترابط واضح جداً في اثنتين وثمانين آية من كتاب الله حيث يقول الله سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} آمن وعمل صالحاً هذا شرط أساسي، العمل هو برهان الإيمان وهذا العمل الذي هو برهان الإيمان يجب أن يكون صالحاً.

قال المناوي: (ارحموا ترحموا) لأن الرحمة من صفات الحق التي شمل بها عباده فلذا كانت أعلاماً اتصف بها البشر فندب إليها الشارع في كل شيء حتى في قتال الكفار والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك (واغفروا يغفر لكم) لأنه سبحانه وتعالى يحب أسمائه وصفاته التي منها الرحمة والعفو ويجب من خلقه من تخلق بها (ويل لأقماع القول) أي شدة هلكة لمن لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب بآدابه، والأقماع الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملاً بالمائع، شبه استماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به بالأقماع التي لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها فكأنه يمر عليها مجتازاً كما يمر الشراب في القمع (ويل للمصرين) على الذنوب أي العازمين على المداومة عليها (الذين يصرون على ما فعلوا) يقيمون عليها فلم يتوبوا ولم يستغفروا (وهم يعلمون) حال أي يصرون في حال علمهم بأن ما

فعلوه معصية أو يعلمون بأن الإصرار أعظم من الذنب أو يعلمون بأنه يعاقب على الذنب
(٢)

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم) نظير قوله تعالى:
{وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَلْيُغْفِرُوا لِمَنْ سَفَّحُوا أَهْلًا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢]

قال عبد الله بن المبارك: «هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى».

وفيهما دليل على أن العفو والصفح عن المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب
والجزاء من جنس العمل.

أما قوله -صلى الله عليه وسلم-: (ويل لأقماع القول) فيسوقنا لتعريف علماء النفس
للشخصية الضعيفة بأنها: الشخصية التي لا تستمر في النمو والتطور، فصاحب العقلية
المتحجرة.. ضعيف الشخصية، ومن لا يستفيد من وقته وصحته وإمكانياته.. ضعيف
الشخصية، ومن لا يعدل من سلوكه ويقلع عن أخطائه.. ضعيف الشخصية، وقوة
الشخصية تعني أيضا القدرة على الاختيار السليم، والتمييز بين الخير والشر، والصواب
والخطأ، وإدراك الواقع الحاضر، وتوقع المستقبل.. فالنمو والتطوير شرطان أساسيان لكي
تكون شخصيتك قوية ومثمرة في نفس الوقت.

وحين يشعر الإنسان بجسامة الأمانة المنوطة به، تنفتح له آفاق لا حدود لها للمبادرة
للقيام بشيء ما، فيجب على كل فرد منا أن يضع نصب عينيه اللحظة التي سيقف فيها بين
يدي الله عز وجل فيسأله عما كان منه، وبالعكس علينا أن نوقن أيضا أن التقزم الذي نراه
اليوم في كثير من الناس ما هو إلا وليد تبلد الإحساس بالمسؤولية عن أي شيء!!

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ويل للمصرين اللذين يصرون على ما فعلوا وهم
يعلمون) مقابل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ عِلْمًا} [آل
عمران: ١٣٥]

فالإصرار هو الاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة، وذلك ذنب آخر لعله أعظم من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبة الذنب، فإنه يوجب ذنباً أكبر منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يحدث الهلاك.. إن الإصرار على المعصية معصية أخرى، والقيود عن تدارك ما فاتك من الخير بسبب المعصية يعتبر إصراراً ورضاً بها وطمأنينة إليها، وذلك علامة الهلاك.

قال سهل بن عبد الله: "الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصرُّ هالك، والإصرار هو التسويف، والتسويف أن يقول: أتوب غداً؛ وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غداً، وغدا لا يملكه!"

وعلى هذا فالتوبة من المعصية مع بقاء لذتها في القلب، وتمي ارتكابها إن وجد إليها السبيل، وحديث النفس الدائم بلذتها، هذه التوبة تسمى «توبة الكذابين»، وهي التي وصف أبو هريرة صاحبها بأنه كالمستهزئ بربه، فهي توبة غير مقبولة، فضلاً عن الإثم الذي يلحق بصاحبها من مخادعته لله عز وجل.

ولذلك كان من شروط التوبة الاعتذار الذي هو إظهار الضعف والمسكنة لله عز وجل، وأنك لم تفعل الذنب عن استهانة بحقه سبحانه وتعالى، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لاطلاعه، ولا استهانة بوعيده، وإنما كان ذلك من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة الشهوة، وطمعاً في مغفرته وسعة حلمه ورحمته، واتكلاً على عفوه، وحسن ظن به، ورجاء لكرمه سبحانه وتعالى.

وما فعلت ذلك الذنب إلا بسبب ما غرَّك به الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وستره سبحانه وتعالى المرخي عليك، وأعانك على ذلك جهلك، ولا سبيل إلى الاعتصام لك إلا به عز وجل، ولا معونة على طاعته إلا بتوفيقه. ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعفاف والتذلل والافتقار إليه عز وجل، والاعتراف بالعجز والإقرار بالعبودية، فهذا من تمام التوبة.

إن المفكر الإيجابي يقرّ بأن هناك عناصر سلبية في حياة كل شخص لكنه يؤمن بأن أي مشكلة يمكن التغلب عليها. والمفكر الإيجابي إنسان يقدر الحياة ويرفض الهزيمة. والشخص

الإيجابي يفهم أنه من أجل التغيير من حالة المفكر السلبي إلى الأداء الكامل بطريقة المفكر الإيجابي يجب على الإنسان أن يتحلّى برغبة جادّة في التغيير.

الهوامش

[١] رواه أحمد في المسند ٥٢/١٠، والبخاري في الأدب المفرد ٢٩٣ والعجلوني كشف الخفاء ١١٩/١ عن عبد الله بن عمر وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٨٢ [٢] فيض القدير للمناوي ٥١٤/٢

سيصيب أمتي

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-،
قال: (سيصيب أمتي داء الأمم، قالوا: يا نبي الله، وما داء الأمم؟ قال: الأشرُّ
والبَطْرُ، والتَّكَاثُرُ والتَّشَاخُنُ في الدُّنْيَا، والتَّبَاغُضُ، والتَّحَاسُدُ حتى يكون
البغي ثمَّ الهَرْجُ

[رواه الحاكم وقال صحيح وأقره، قال الحافظ العراقي: وسنده جيد(حسن) حديث:
٣٦٥٨ صحيح الجامع]

** قوله: (سيصيب أمتي داء الأمم) قبلهم، قالوا: يا رسول الله وما داء الأمم؟ قال:
(الأشر) أي كفر النعمة (والبطر) الطغيان عند النعمة وشدة المرح والفرح (والتكاثر) من
جمع المال (والتشاحن) التعادي (في الدنيا والتباغض والتحاسد) أي تمنى زوال نعمة الغير
(حتى يكون البغي) أي مجاوزة الحد (ثمَّ الهَرْجُ) القتل.

وهو تحذير شديد من التنافس في الدنيا لأنها أساس الآفات ورأس الخطيئات وأصل
الفتن، وعنهما تنشأ الشرور، وفيه علم من أعلام النبوة فإنه إخبار عن غيب وقع.

** ولا يأتي زمانٌ إلا الذي بعده شرٌّ منه، حتى تأتي الساعة فتقوم على شرار خلق الله،
فإنها تقوم على أناس لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً.

وللبُخاري عن الزُّبير بن عدي. قال: أتينا أنساً، فشكَّونا إليه ما نلقى من الحجَّاج.
فقال: (اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ، إلا والذي بعده شرٌّ منه). سمعته من نبيِّكم -
صلى الله عليه وسلم.

** وقال صلى الله عليه وسلم: (يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ. وَيُلْقَى الشُّحُّ وَتَظْهَرُ
الْفِتْنُ. وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ). قالوا: يا رسول الله! ما هو؟ قال: (الْقَتْلُ الْقَتْلُ)

** وقال الإمام أسماء بن عُبَيْد: أدركنا أقوامًا، فجالسناهم فنفعنا الله بمجالستهم في ديننا ومعايشنا. فأصبحنا اليوم بين ظهرائي قوم، نجالسهم فيُنسونا ما سمعنا من أولئك [الإشراف لابن أبي الدنيا، وسنده حسن]

وهذا عام، ولكن ليس معنى ذلك أن الشر يكون في كل فرد، ليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود النسبة، فإن الشر في المتأخرين نسبتته أكثر من نسبتته في المتقدمين، حتى يأتي الزمان الذي قبيل قيام الساعة، ولا يعرف أحد الله، ولا يذكر اسمه جل وعلا، ويتهاجون [يتناكحون] كتهاج الحمر، فهم شرار خلق الله، وعليهم تقوم الساعة.

** وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته) رواه البخاري

قوله: (خير الناس قرني) قال الشافعي رحمه الله في رسالته عن الصحابة: "هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا"

وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل وعانوا الرسول، وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله مما يستدلون به على مرادهم ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك. [ابن تيمية]

فإن السلف كانوا أعظم عقولاً، وأكثر فهوماً، وأحد أذهاناً، وألطف إدراكاً [ابن تيمية]

قوله: (تسبق شهادة أحدهم يمينه ...) هذا إشارة إلى السرعة في الشهادة واليمين، وذلك استخفافاً منه بالله عز وجل، واستهتار بمكانة الشهادة واليمين. ففيه تحريم المسارعة في الحلف، لأن ذلك استخفافاً بالله وتنقص لتعظيمه، وذلك منافٍ للتوحيد.

وقال إبراهيم النخعي: "كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار". وذلك لكثرة علم التابعين، وقوة إيمانهم، ومعرفتهم برهيم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقوله "على الشهادة" أي يضربوننا عليها إن شهدنا زوراً أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها.

** أخرج الطبراني عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: مَا مِنْ عَامٍ إِلَّا وَيُحَدِّثُ النَّاسُ بَدْعَةً وَيَمْتُونُ سُنَّةً حَتَّى تَمَاتَ السَّنَنُ وَتَحْيَى الْبَدْعُ.

** وقال -صلى الله عليه وسلم-: (ومن يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا)، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم، والناس لا يحسون بالتغير؛ لأن الأمور تأتي رويدا رويدا، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء؛ لوجد التغير الكثير المزعج - نسأل الله السلامة -، فعلينا الحذر، وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمى، وأن يسان، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله أبدا مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عبادا لله، تذللا وتعبدًا وطاعة.

** قال الله سبحانه وتعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة: ١٠-١٤]

هذا فيه بيان لانصراف الناس عن الدين في آخر الزمان، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه)، فبسبب بعد العهد عن الرسالات ينسى الناس كثيراً مما ذكروا به، كما قال الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ} [الحديد: ١٦] أي: طال عليهم الأمد بينهم وبين الرسل الذين كانوا يذكروهم، فقسست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون.

فبالبعد عن أزمنة الخير ينسى الناس كثيراً مما ذكروا به، فكما قال القائل: تزينت الدنيا لخطابها، فنسى الناس كثيراً مما ذكروا به، وانغمسوا في ملذاتها وشهواتها، فقل منهم الصابرون

على تعاليم الدين، وقل منهم الصابرون على سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أصبحوا موضع اتهام لاتباعهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم! فطعن فيهم الطاعنون، وأرجف وضحك منهم المرجفون، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} [المطففين: ٢٩-٣٢]، فلم يصبر كثير من الناس على ازدراء أهل الغفلة، ولم يصبر كثير من الناس على ظلم أهل الظلم والعدوان، فنكصوا على أعقابهم، ورجعوا تاركين وراءهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وتاركين لكتاب ربهم، فقل أهل الفضل وأهل الخير، وقل أهل الثبات والصلاح في الأمم المتأخرة وأصبحوا غرباء.

فلذلك قال سبحانه وتعالى في شأن المقرين: {وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة: ١٤] أي: قلة قليلة من الأمم التي بعد عهدها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأخرت أزمانها عن أزمنة أصحابه رضي الله تعالى عنهم [سلسلة التفسير، مصطفى العدوي]

** قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: "هَذَا زَمَانٌ أَحْفَظُ فِيهِ لِسَانَكَ، وَأَخْفِ مَكَانَكَ، وَعَالَجْ جَفَانَكَ، وَخِذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تَنْكَرُ لِتَصْلِحَ شَأْنُكَ

** قَالَ الثَّوْرِيُّ: "هَذَا زَمَانُ السَّكُوتِ، وَلِزُومِ الْبَيْوتِ، وَالرِّضَا بِالْقُوْتِ إِلَىٰ أَنْ تَمُوتَ" اللهم أصلح أحوالنا، ونجنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وتوفنا وأنت راضٍ عنا.

خمس ما أثقلهن في الميزان

عن ثوبان -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه) [١]

لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلأؤه بالذكر فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ، فإذا ذكر جلاه، وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب. وجلأؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر.

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبا على قلبه. وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل. لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا وهذا أعظم عقوبات القلب [٢]

أما هذه الأذكار التي وردت في هذا الحديث الجليل فلها منزلة خاصة وقدر عظيم عند الله تعالى. فهي الباقيات الصالحات التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم قال عز وجل: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا} [الكهف: ٤٦].

قال القرطبي في تفسير الباقيات الصالحات: قال الجمهور: هي الكلمات المأثور فضلها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [٣]

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (استكثروا من الباقيات الصالحات) قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: (التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ولا حول ولا قوة إلا بالله) [٤]

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (خذوا جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. فإنهن مقدمات ومنجيات، وهن الباقيات الصالحات) [٥]

وعن الحارث مولى عثمان قال: كان عثمان -رضي الله عنه- جالسا ونحن معه إذ جاءه المؤذن فدعا بماء فذكر الحديث في فضل الوضوء والصلوات الخمس، قال: وهن الحسنات، يذهبن السيئات. قالوا: يا عثمان هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات؟ قال: (لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله) [٦]

وهذه الأذكار غراس الجنة، فقد روي الترمذي عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لقيت ليلة أسري إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس).

وعن طلحة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتكبيره وتحميده وتسبيحه وتكليله) [٧]

وروى مسلم عن سمرة بن جندب -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. ولا يضرك بأيهن بدأت)

وأخيرا تزكية النبي -صلى الله عليه وسلم- لهن بقوله: (بخ بخ) وهي كلمة تقال للمدح والرضا وتكرر للمبالغة

كما ثبت في الكتاب والسنة نصوص كثيرة تدل على فضل الصابرين وعظيم أجرهم، وأن الله يوفيهم أجرهم بغير حساب. وهذا يشمل كل من صبر على أي مصيبة ابتلي بها،

ولا شك أن فقد الولد من المصائب العظيمة على من وقعت عليه، فمن صبر عليها ورضي بقضاء الله وقدره، حصل له هذا الأجر العظيم بفضل الله وكرمه.

روى الترمذي عن أبي سنان قال: دَفَنْتُ ابْنِي سِنَانًا وَأَبُو طَلْحَةَ الْخَوْلَانِيُّ جَالِسٌ عَلَيَّ شَفِيرِ الْقَبْرِ فَلَمَّا أَرَدْتُ الْخُرُوجَ أَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا أبا سِنَانٍ قُلْتُ بلى فَقَالَ حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَزْرَبٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: (إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَعَ فَيَقُولُ اللَّهُ: " ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ ")

بل وثبت أجر خاص لمن توفي له أكثر من طفل فصبر واحتسب، فعن أبي سعيد رضي الله عنه- أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-: اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا. فَوَعظَهُنَّ، وَقَالَ: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَالِدِ كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ قَالَتْ امْرَأَةٌ وَاثْنَانِ قَالَ وَاثْنَانِ) [٨]

وفي رواية عند البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (مَا مِنْ النَّاسِ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَالِدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْتَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ).

الهوامش

[١] رواه (البخاري) في مسنده عن ثوبان والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي سلمى وأحمد عن أبي أمامة (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٨١٧ في صحيح الجامع للسيوطي بتحقيق الألباني، وقال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي ورواه أيضاً الطبراني من حديث سفينة قال المنذري: ورجاله رجال الصحيح [٢] الوابل الصيب لابن القيم ص ٦٤ [٣] الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ج ٥ تفسير سورة الكهف [٤] أورده الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة عن أبي سعيد الخدري رقم ٢٢٣ وقال حديث حسن [٥] المصدر السابق عن أبي هريرة رقم ٢٢٤ وحسنه أيضاً [٦] المصدر السابق رقم

٢٢٦ وقال حديث حسن ورجاله رجال الصحيح. [٧] رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع
رقم ٥٣٧١ [٨] أخرجه البخاري (٩٩) ومسلم (٤٧٨٦)

حسن معاملة الأجير

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جاء رجل، فقعد بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله! إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم؛ فكيف أنا منهم؟! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إذا كان يوم القيامة؛ يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم؛ فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم؛ كان كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم، كان فضلا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم؛ اقتص لهم منك الفضل، فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبيكي، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أما تقرأ قول الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ (١) فقال الرجل: يا رسول الله! ما أجد لي ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم؛ أشهدك أنهم كلهم أحرار. (٢)

شاء الله عز وجل أن تتباين أدوار البشر وتتنوع مسؤولياتهم وتعدد اهتماماتهم حتى تتكامل حركة الحياة وتعمر الأرض، واقتضت مشيئته وحكمته سبحانه أن يجعل بعض عباده أغنياء وبعضهم فقراء، وسخر كلاً من الطائفتين للأخرى، هذه تنمي المال وتنفق منه على تلك، وتلك تقوم بالعمل مقابل ذلك الإنفاق.

والإسلام يوجه الأغنياء المخدمين إلى التواضع وعدم التكبر على الخادمين، ويجعل لهؤلاء حقوقاً على أولئك يجب عليهم أن يؤدوها بدون ممانعة ولا نقص، فالمخدوم ينبغي أن يتواضع مع خادمه ولا يترفع عليه لأنه قد يكون أعظم درجة منه عند الله، وليس الفضل

بكثرة الأموال ولا بعظم الأجسام، ولا بغير ذلك من متاع الدنيا وزينتها ومظاهرها وإنما
الفضل بالتقوى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}

ولقد ضرب الرسول -صلى الله عليه وسلم- المثل الأعلى في معاملة الخادم، فعن
أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال "خدمت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشر
سنين والله ما قال لي أف قط، ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا" (٣)
والرسول -صلى الله عليه وسلم- قدوة حسنة لأمته، وهي إذا لم تستطع أن تصل إلى
درجة الكمال التي بلغها -صلى الله عليه وسلم- فلتسدد ولتقارب.
قال -صلى الله عليه وسلم-:

- (من لا يلايكم من خدمكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون، ومن لا
يلايكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله) (٤)

- (لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على خدمكم ولا تدعوا
على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجاب لكم) (٥)
- (إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة، أو لقمتين، أو أكلة
أو أكلتين فإنه ولي حره وعلاجيه) (٦)

وبلغ من رحمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان لا يطيق أحدا أن يقول:
كان عبدي وأمتي، وأنه أمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك، وأن يقولوا فتاي وفتاتي (٧)
وعن المعمور بن سويد قال: "رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حلة وعلى غلامه حلة،
فسألناه عن ذلك فقال: ساببت رجلا، فشكاني إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
فقال لي النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعيرته بأمه؟! ثم قال: إخوانكم خولكم جعلهم الله
تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم
ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم) (٨)

وعن أبي مسعود البدري -رضي الله عنه- قال: كنت أضرب غلاما لي، فسمعت من
خلفي صوتا: (اعلم، أبا مسعود! لله أقدر عليك منك عليه) فالتفت فإذا هو رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله! هو حر لوجه الله، فقال: (أما لو لم تفعل،
للفحتك النار، أو لمستك النار) (٩)

وعن معاوية بن سويد قال: لطمت مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر، فصليت
خلف أبي فدعاه ودعاني ثم قال: امثل منه ثم قال: كنا بني مقرن على عهد رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - ليس لنا إلا خادم واحدة فلطمها أحدها، فبلغ ذلك النبي -صلى
الله عليه وسلم - فقال: (اعتقوها) قالوا: ليس لهم خادم غيرها. قال: (فليستخدموها، فإذا
استغنوا عنها فيخلوا سبيلها) (١٠)

وللخادم على سيده حقوق نذكر منها (١١):

- أن يعامله معاملة حسنة، ويحلم عليه إذا بدر منه خطأ، قال تعالى: {وَالْكَاطِمِينَ
الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٤]

- أن يتواضع معه ولا يتكبر عليه، فإن التواضع مع الخادم يؤنسه ويشعر معه
بالطمأنينة وعدم الحرج من العسر والفقير، والتكبر عليه يوحشه ويشعر بسببه أنه محتقر لا
قيمة له فيضطرب ويعيش كتيبا حزينا، وقد ذم الله الكبر والمتكبرين وأعد لهم عقابا أليما كما
مدح التواضع والمتواضعين ووعدهم الجزاء الحسن.

قال تعالى: {وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥]

وقال تعالى في وصف المؤمنين: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}

[المائدة: ٥٤]

وعن عياض بن حمار -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:
(إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) (١٢)
وعن أنس -رضي الله عنه- قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي -
صلى الله عليه وسلم- فتنتطق به حيث شاءت. (١٣)

- قد يقوم الخادم بالخدمة في مقابل طعامه وشرابه وكسوته، وقد يقوم بها بأجر معلوم من النقود أو غيرها، وفي كلتا الحالتين يجب على المخدم أن يؤدي إلى الخادم ما يستحق، ولا يجوز له أن يظلمه بنقص أجرته أو مماطلته فيها فإن فعل شيئا من ذلك فقد ظلمهن. والله تعالى ذم في كتابه الظلم والظالمين، كما حذر الرسول -صلى الله عليه وسلم- منه، قال تعالى: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [الحج: ٧١]

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة) فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ فقال: (وإن كان قضييا من أراك) (١٤)

وقد حذر الله المستأجر تحذيرا شديدا من عدم إعطاء الأجير أجره، قال البخاري رحمه الله: [باب إثم من منع أجر الأجير] عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره) (١٥)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه) (١٦) أي ينشف، لأن أجره عمالة جسده، وقد عجل منفعتة، فإذا عجلها استحق التعجيل، ومن شأن الباعة إذا سلموا قبضوا الثمن عند التسليم فهو أحق وأولى، إذ كان ثمن مهجته لا ثمن سلعتة فيحرم مطله والتسويق به مع القدرة، فالأمر بإعطائه قبل جفاف عرقه إنما هو كناية عن وجوب المبادرة عقب فراغ العمل إذا طلب وإن لم يعرق أو عرق وجف (١٧)

. ومن أهم ما ينبغي أن يعتني به السيد للخادم تعليمه ما يجب عليه وما يحرم من أمور دينه، وحثه على التحلي بالأخلاق الفاضلة، فإن في ذلك مصلحة عظيمة للسيد والخادم والمجتمع، كما ينبغي أن يحذره من الأخلاق الرذيلة واقتراف الأمور المحرمة، ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر لأنه أصبح مسئولا عنه كمسئوليته عن بقية أهل بيته.

الهوامش

(١) الأنبياء ٤٧ (٢) الحديث رواه الترمذي - كتاب التفسير رقم ٣١٦٥ وصححه الألباني في صحيح الترمذي رقم ٢٥٣١ والمشكاة رقم ٥٤٩٤ والفظ له (٣) رواه مسلم رقم ٢٣٠٩ (٤) رواه أحمد وأبو داود عن أبي ذر (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٦٠٢ في صحيح الجامع. (٥) رواه أبو داود عن جابر (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٢٦٧ في صحيح الجامع (٦) البخاري رقم ٥٤٦٠ (٧) البخاري رقم ٢٥٥٢ (٨) البخاري رقم ٢٥٤٥ (٩) مسلم ١٦٥٩ (١٠) مسلم رقم ١٦٥٨ (١١) المسؤولية في الإسلام الشيخ عبد الله قادري بتصريف (١٣) مسلم رقم ٢٨٦٥ (١٣) رواه البخاري تعليقا انظر رياض الصالحين بتحقيق الألباني رقم ٦١٠ (١٤) صحيح مسلم من حديث أبي أمامة الحارثي رقم ١٣٧ (١٥) البخاري رقم ٢٢٧٠ (١٦) رواه ابن ماجة عن ابن عمر وصححه الألباني في الإرواء رقم ١٤٩٨ (١٧) فيض القدير - المناوي ٢٥٤١/١

الرياء سارق الحسنات

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال:
خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحن نتذاكر المسيح
الدجال، فقال: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟)
فقلنا: بلى يا رسول الله. قال: (الشرك الخفي، أن يقوم الرجل فيصلي فيزين
صلاته لما يرى من نظر الرجل) (١)

الرياء قناع خداع يحجب وجهها كالحا ونفسا لئيمة وقلبا صدئا صلدا، والرياء طلاء
رقيق يخفي سوءات بعضها فوق بعض، والرياء زيف كاسد في سوق تجارة.
قال وهب بن منبه: من طلب الدنيا بعمل الآخرة نكس الله قلبه وكتب اسمه في ديوان
أهل النار.

وقال أبو العالية: قال لي أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-: لا تعمل لغير الله
فيكلك الله إلى من عملت له.
وقال: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- كلهم يخاف على
نفسه من النفاق.

وقال الربيع بن خثيم: كل ما لا يبتغى به وجه الله يضمحل.
وقال: السرائر السرائر اللاتي تخفين من الناس وهن لله تعالى بواد التمسوا دواءهن.
ومن علم شدة حاجته إلى صافي الحسنات غدا في يوم القيامة غلب على قلبه حذر
الرياء وتصحيح الإخلاص بعمله حتى يوافي الله تعالى يوم القيامة بالخالص المقبول، إذ علم
أنه لا يخلص إلى الله جل ثناؤه إلا ما خلس منه ولا يقبل يوم القيامة إلا ما كان صافيا
لوجهه لا تشوبه إرادة شيء بغيره. (٢)

قال أبو عبد الله الأنطاكي: من طلب الإخلاص في أعماله الظاهرة وهو يلاحظ الخلق بقلبه فقد رام المحال لأن الإخلاص ماء القلب الذي به حياته والرياء يميته.

وكتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة: إن لنا ولك من الله مقاما يسألنا فيه عن الرمق الخفي وعن الخليل الجافي، ولست آمن أن يكون فيما يسألني ويسألك عنه وساوس الصدور ولحاظ الأعين وإصغاء الأسماع، اعلم أن مما يوصف به منافقو هذه الأمة أنهم خالطوا أهل الدين بأبدانهم وفارقوهم بأهوائهم ولم ينتهوا عن خبيث أفعالهم، كثرت أعمالهم بلا تصحيح فأحرمهم الله الثمن الربيح.

والرياء مشتق من الرؤية، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس برؤيتهم خصال الخير ويجمعه خمسة أقسام وهي جوامع ما يتزين به العبد للناس:

الرياء بالبدن: ويكون بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد في العبادة، وعظم الحزن على أمر الدين، وغلبة خوف الآخرة، قال الربيع بن خثيم: لا يغرنك كثرة ثناء الناس من نفسك فإنه خالص إليك عملك. وقال يحيى بن معاذ: لا تجعل الزهد حرفتك لتكتسب به الدنيا، ولكن اجعله عبادتك لتنال الآخرة وإذا شكرك أبناء الدنيا ومدحوك فاصرف أمرهم على الخرافات.

الرياء بالهيئة والزي: بتشعيت شعر الرأس وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وتحري لبس الثياب الخشنة أو لبس المرقعات، فعن محمد بن عبد الله الحذاء قال: وقفنا للفضيل بن عياض على باب المسجد ونحن شباب علينا الصوف، فخرج علينا، فلما رأنا قال: وددت أني لم أركم ولم تروني، أتروني سلمت منكم أن أكون ترسا لكم حيث رأيتم وتراءيتم لي! لأن أحلف عشرا أني مرء وأنني مخادع أحب إلي من أن أحلف أني لست كذلك.

الرياء بالقول: كرياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار لاستعمالها في المحاورة وإظهارا لغزارة العلم وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس وإظهار

الغضب للمنكرات والأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وفي ذلك يقول مطرف رحمة الله عليه: إن أقيح ما طلبت به الدنيا عمل الآخرة.

الرياء بالعمل كمراءة المصلي بطول القيام والركوع والسجود وكذلك بالصوم، والغزو والحج والصدقة.

الرياء بالأصحاب والزائرين كالذي يتكلف أن يستزير عالما أو عابدا ليقال إن فلانا قد زار فلانا وكالذي يكثر زيارة الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخا كثيرة واستفاد منهم ويتباهى بشيوخه عند المخاصمة.

وأصل الرياء حب الجاه، والجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس، وهو اعتقاد القلوب نعتا من نعوت الكمال في هذا الشخص إما لعلم أو عبادة أو نسب أو قوة أو حسن منظر أو غير ذلك مما يعتقدده الناس كمالا، فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تدعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته وتوقيره.

ومن غلب على قلبه حب هذا صار مقصور لهم على مراعاة الخلق مشغوبا بالتردد إليهم والمراءة لهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته لديهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، لأن من طلب هذه المنزلة في قلوب العباد اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه ويجر إلى المراءة بالعبادات واقتحام المحظورات والتوصل إلى اقتناص القلوب.

وهذا باب غامض لا يعرفه إلا العلماء بالله العارفون به المحبون له وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول:

حب لذة الحمد، الفرار من الذم، الطمع فيما في أيدي الناس

كتب خالد بن صفوان إلى عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إن أقواما غرهم ستر الله وفتنهم حسن الشاء فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك أعادنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين وبثناء الناس مسرورين وعمما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين وإلى الأهواء مائلين. فبكى عمر ثم قال: أعادنا الله وإياك من إتباع الهوى

الرياء الجلي والخفي

فالرياء الجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه، أما الرياء الخفي: فهو الذي لا يحمل على العمل بمجردة إلا أنه يخفف مشقة العمل على النفس كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط للقيام وخف عليه، ومن الرياء الخفي كذلك أن يخفي العبد طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان فإن قصر مقصر ثقل ذلك على قلبه كأنه يتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها، ومن الرياء الخفي أن الإنسان يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به.

قال مطرف ابن عبد الله: كفى بالنفس إطراء أن تدمها على الملاء كأنك تريد بدمها زينتها وذلك عند الله سفه.

وقال الحسن البصري: من ذم نفسه في الملاء فقد مدحها وذلك من علامات الرياء.

الهوامش والمصادر

- (١) حديث حسن رواه ابن ماجة . كتاب الزهد ٤١٩٤ والبيهقي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٧ (٢) الرعاية لحقوق الله - المحاسبي ص ١٥٥
- حديث الإخلاص د/ سيد العفاني دار العفاني - مصر
- إحياء علوم الدين الإمام الغزالي ط دار الحديث

اللهم ثبته

روى البخاري ومسلم عن جرير رضي الله عنه، قال: مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أُسْلِمْتُ، وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ، وَلَقَدْ شَكَّوتُ إِلَيْهِ إِنِّي لَا أَتُّبُّ عَلَى الْخَيْلِ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: (اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا) وفي رواية: قَالَ: فَمَا وَقَعْتُ عَنْ فَرَسٍ بَعْدُ"

راوي الحديث سيدنا «جرير بن عبد الله الجلي - رضي الله عنه-» نسبة إلى «بجيلة بنت مصعب» أحد أجداده، وأسلم جرير قبل وفاته -صلى الله عليه وسلم- بأربعين أو ثمانين يوما، وكان -رضي الله عنه- حسن الصورة.

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: جرير يوسف هذه الأمة، وهو سيد قومه. وفي الطبراني أنه لما دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- أكرمه وبسط له رداءه وقال: (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه)

وَعَنْ قَيْسٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رضي الله عنه- قَالَ: «كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْتٌ يُقَالُ لَهُ ذُو الْخُلَصَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ الْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَّةُ أَوْ الْكَعْبَةُ الشَّامِيَّةُ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: هَلْ أَنْتَ مُرِيحِي مِنْ ذِي الْخُلَصَةِ؟ قَالَ: فَنفَرْتُ إِلَيْهِ فِي خَمْسِينَ وَمِائَةً فَارِسٍ مِنْ أَحْمَسَ [قبيلة جرير]، قَالَ: فَكَسَرْنَا، وَقَتَلْنَا مَنْ وَجَدْنَا عِنْدَهُ، فَأَخْبَرَنَا، فَدَعَا لَنَا وَلَا أَحْمَسَ».

وفي باب [البشارة في الفتوح] من الجهاد: فبارك على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.

** قوله: (ما حجبتني النبي -صلى الله عليه وسلم- منذ أسلمت)

أي ما منعتني مما التمسست منه، بل أعطاني ما طلبته منه البتة منذ أسلمت

أو ما حجبني من دخول الدار ولا يلزم منه النظر إلى أمهات المؤمنين

أو ما منعني من مجالسته الخاصة

// فيه أن الرجل الوجيه في قومه له حرمة ومكانة على من هو دونه؛ لأن جريرا كان

سيد قومه.

// وفيه أن من دلالات المحبة وجمال الاحترام والتواضع؛ نزع الحجب وترك الاحتجاب

والكلفة عن الآخر في أي موطن، وتحت أي ظرف، إنزالا لمكانة الرجل، وطرده لغواية

الشیطان ونزغه، وصدقا في المحبة والتقدير

** قوله: (وَلَا رَأْيِي إِلَّا تَبَسُّمٌ فِي وَجْهِهِ)

// فيه أن لقاء الناس بالتبسم وطلاقة الوجه من أخلاق النبوة، وهو مناف للتكبر

وجالب للمودة.

فالتبسم علامة الترحيب الذي يقوي سكون النفس وفرحها بالرغبة في لقاء

الأشخاص والأنس بهم في مجلسهم، فهو ترحيب لا يعرف لغة التزييف ولا التمثيل.

// قال بعض أهل العلم: ولعل منشأ كثرة انبساطه عليه السلام معه أن جرير -رضي

الله عنه- كان من مظاهر الجمال، ولذا قال عمر رضي الله عنه إن جريرا يوسف هذه الأمة

** قوله (فَضْرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي) لأنه محل القلب

// فيه أنه لا بأس للعالم والإمام إذا أشار إلى إنسان في مخاطبته أو غيرها أن يضع عليه

يده، ويضرب بعض جسده، وذلك من التواضع

// وفيه استمالة النفوس.

** قوله: (اللهم ثبته) لفظ شامل للثبات على الخيل وعلى غيرها.

// فيه أن دائما عند إجابة الطلب لا تقف عند محدودية المطلوب، بل زد في دعائك

وعطائك.. طلب جرير -رضي الله عنه- الثبات على الخيل فزاده النبي -صلى الله عليه

وسلم- دعوة صالحة عامة لا غنى للإنسان عنها في جميع الميادين والمواقف.

وفي الحديث الصحيح: (من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه [إجلالا لمن سأل به]، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له [وكررنا له الدعاء] حتى تروا أنكم قد كافأتموه).. قال أهل العلم: ووجه المبالغة أنه رأى من نفسه تقصيراً في المجازاة فأحاله إلى الله ونعم المجازي هو سبحانه. // وفيه فضل الفروسية وإحكام ركوب الخيل وأن ذلك مما ينبغي أن يتعلمه الرجل الشريف والرئيس.

وكتب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لأهل الشام يقول لهم: (علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية).

ومن طريف المواقف أن الحجاج قال لمؤدب بنيه: (علمهم السباحة قبل الكتابة، فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم).

// لذلك ترجم البخاري للحديث بقوله: «باب من لا يثبت على الخيل» ووجه دخول الترجمة في الأحكام أن الحديث يدل على فضيلة ركوب الخيل والثبوت عليها. ولولا ذلك لما دعا به -صلى الله عليه وسلم-.

// وفيه بركة دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه قد جاء في هذا الحديث أنه ما سقط بعد ذلك من الخيل.

** قوله: (هاديا مهديا) من باب التقديم والتأخير الذي في كلام العرب؛ لأنه لا يكون هاديا لغيره إلا بعد أن يهتدي هو ويكون مهديا.

من هدي النبوة

عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
(ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين
يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون) (١)

أمتع وجدانك بروائع من كلمات سيد المرسلين، فأنت بالروح لا بالجسد إنسان،
وترجم هذا الخير واقعا عمليا في حياتك لتنال مثوبة رب العالمين، وتحس بروعة هذا الدين،
وتفتخر بأنك من أتباع خاتم النبيين، لا من أتباع الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

إن في العمل بهذا المنهج النبوي راحة للنفس لا تدانيها راحة، ومنتعة للوجدان
والضمير لا يستطيع أن يصفها لك أحد بكلمات مهما أوتي من فصاحة وبلاغة إلا بقوله:
من ذاق عرف.

قال المناوي: (ارحموا ترحموا) لأن الرحمة من صفات الحق التي شمل بها عباده، فلذا
كانت أعلماً اتصف بها البشر، فندب إليها الشارع في كل شيء حتى في قتال الكفار
والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك (واغفروا يغفر لكم) لأنه سبحانه وتعالى يحب أسمائه
وصفاته التي منها الرحمة والعفو ويجب من خلقه من تخلق بها

(ويل لأقماع القول) أي شدة هلكة لمن لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب
بآدابه، والأقماع بفتح الهمزة جمع قمع بكسر القاف وفتح الميم وتسكن، الإناء الذي يجعل
في رأس الظرف ليملاً بالمائع، شبه استماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به
بالأقماع التي لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها، فكأنه يمر عليها مجتازاً كما يمر الشراب في القمع.

كذلك قال الزمخشري: من المجاز ويل لأقماع القول وهم الذين يستمعون ولا يعون
(ويل للمصرين) على الذنوب أي العازمين على المداومة عليها (الذين يصرون على ما

فعلوا) يقيمون عليها فلم يتوبوا ولم يستغفروا (وهم يعلمون) حال أي يصرون في حال علمهم بأن ما فعلوه معصية، أو يعلمون بأن الإصرار أعظم من الذنب أو يعلمون بأنه يعاقب على الذنب (٢)

فقوله -صلى الله عليه وسلم- (ارحموا ترحموا) لأن الجزء من جنس العمل، فلتكن الرحمة سجيتك والرفق خلقك، أما تحب أن يرحمك الله.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

- (ارحم من في الأرض، يرحمك من في السماء) (٣)

- (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) (٤)

- (من رحم ولو ذبيحة عصفور، رحمه الله يوم القيامة) (٥)

- (الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) زاد أحمد والترمذي والحاكم: (والرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعها الله) (٦)

أي الراحمون لمن في الأرض من آدمي وحيوان لم يؤمر بقتله بالشفقة والإحسان والمؤاساة والشفاعة وكف الظلم ثم بالتوجه والتوجه إلى الله والالتجاء إليه والدعاء بإصلاح الحال ولكل مقام مقال. قال البوني: فإن كان لك شوق إلى رحمة من الله، فكن رحيماً لنفسك ولغيرك ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهلك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهايم بعطفك ورفع غضبك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم خلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جل فهو صادر عن صفة الرحمة (٧)

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (واغفروا يغفر لكم) هذا كقوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢]

قال الشنقيطي: فيه الأمر من الله للمؤمنين إذا أساء إليهم بعض إخوانهم المسلمين أن يعفوا عن إساءتهم ويصفحوا، وأصل العفو: من عفت الرياح الأثر إذا طمسته، والمعنى: فليطمسوا آثار الإساءة بجلهم وتجاوزهم والصفح. قال بعض أهل العلم: مشتق من صفحة العنق، أي أعرضوا عن مكافأة إساءتهم حتى كأنكم تولونها بصفحة العنق، معرضين عنها {ألا تحبون أن يغفر الله لكم} دليل على لأن العفو والصفح عن المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل (٨)

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ويل لأقماع القول) أي الذين لا يعون أوامر الشرع ولا يتأدبون بآدابه، قال جل ذكره {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]

والذين يغفلون عما حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله.. أولئك كالأنعام، بل هم أضل.. فللأنعام استعدادات فطرية تهديها، أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا، إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها، ولا تلتقط أعينهم مشاهدتها ودلالاتها، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيجاعاتها.. فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية... ثم هم يكونون من ذرء جهنم! (٩)

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [الأنفال: ٢٠-٢٢] جعلهم تعالى من جنس البهائم لصرفهم جوارحهم عما خلقت له، ثم جعلهم شرها لأنهم عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل، وفي ذكرهم في معرض التشبيه بهذا الأسلوب غاية في الدم.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون) وهؤلاء الأشرار على النقيض من أهل الخير الذين.

قال تعالى فيهم: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَمَنْ يَصِرْهُمَا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]

والفاحشة أشنع الذنوب وأكبرها، ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهون إليها من رحمة الله، ولا تجعلهم في ذيل القافلة، قافلة المؤمنين، إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة، مرتبة المتقين، على شرط واحد، شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته: أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تخرج ولا حياء.. وبعبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله، والاستسلام له في النهاية، فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله.

والإسلام لا يدعو بهذا إلى الترخص، ولا يمجّد العاثر الهابط، ولا يهتف له بجمال المستنقع! كما تهتف «الواقعية» إنما هو يقيل عشرة الضعف، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء، كما يستجيش فيها الحياء! فالمغفرة من الله - ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ - تخجل ولا تطمع، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار، فأما الذين يستهترون ويصرون فهم هنالك خارج الأسوار، موصدة في وجوههم الأسوار! (١٠)

الهوامش

(١) رواه أحمد في مسنده ١٦٥/٢، ٢١٩، والبخاري في الأدب المفرد رقم ٣٨٠، والبيهقي في شعب الإيمان (صحيح) انظر حديث رقم: ٨٩٧ في صحيح الجامع - السيوطي / الألباني، والسلسلة الصحيحة للألباني رقم ٤٨٢

(٢) فيض القدير للمناوي ٧٤٥/٢ (٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن جرير والحاكم في المستدرک عن ابن مسعود وأبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٠٩

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن جرير وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥) رواه الطبراني عن أبي أمامة (حسن) انظر حديث رقم: ٦٢٦١ في صحيح الجامع. (٦) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عمرو (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٥٢٢ في صحيح الجامع (٧) فيض القدير للمناوي ٤٥٢/٢ (٨) أضواء البيان - سورة النور ج ٥ بتصريف (٩) في ظلال القرآن - سيد قطب ص ١٤٠١ (١٠) الظلال ص ٤٧٧ بتصريف

المتنافسون.. بين قلة العدد وضعف الهمم

عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة) [١]

عجبا لنا.. ما أن تعلن الصحف عن وظائف شاغرة، محدودة وقليلة إلا ويتهافت الناس عليها تهافت الفراش على النار، أما حين يعلن القرآن -ويا لشرف الإعلان- عن وظائف شاغرة، حيث أرقى المناصب، وأسمى المراتب، ينكص الجميع ويولون الدبر!! فيا ويح المتنافسين ما أقلهم وأضعف هممهم، قال تعالى: {ثلة من الأولين وقليل من الآخرين} [الواقعة: ١٣-١٤]

انظر - مثلا - كيف كان التنافس على الصلاة في الصف الأول زمن الصحابة والتابعين، لقد كان على من أراد إدراكه منهم أن يذهب قبل الصلاة بقدر كاف قبل النداء، أما الآن فمن السهل إدراكه ولو جئت وقت إقامة الصلاة في بعض المساجد، أين نحن من سعيد بن المسيب الذي قال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة.

وأين نحن من ثابت البناني الذي قال: كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.

وقال جعفر: كان ثابت يخرج إلينا وقد جلسنا في القبلة، فيقول يا معشر الشباب، حلتم بيني وبين ربي أن أسجد له. وكان قد حبت إليه الصلاة.

أين نحن من الأوائل، المتسابقون الأشداء الذين لا يشق لهم غبار في طلب الجنة.. كان الجنيد يقرأ وقت خروج روحه، فقليل له في هذا الوقت! قال: أبادر طي صحيفتي.

وجمعت بُراية أقلام ابن الجوزي التي كتب بها الحديث فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك فكفت وفضل منها.

قال تعالى: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون} [المطففين: ٢٦] فنعيم الجنة مطلب يستحق المنافسة، وهو أفق يستحق السباق، وغاية تستحق الغلاب، والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم، إنما يتنافسون في حقير قليل فان قريب.

والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه، فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة.. ومن عجب أن التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا، بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بهم جميعا، والسعي لنعيم الآخرة يصلح الأرض ويعمرها ويطهرها للجميع، والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعا وبيئا تأكل فيه الديدان بعضها البعض، أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين! والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خرابا بلقعا كما يتصور بعض المنحرفين، إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق، على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله سبحانه وهو يقول: {وما خلقت الجن والإنس ليعبدون} [الذاريات: ٥٦]

وإن قوله تعالى: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون} هو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة، بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها، ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه! إن عمر المرء في هذه العاجلة محدود، وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته إلا الله، وإن متاع هذه الأرض في ذاته محدود، ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر، وإن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف، ومستوى النعيم هنالك يليق بالخلود! فأين مجال من مجال؟ وأين غاية من غاية؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من حساب.

وعن قوله -صلى الله عليه وسلم-: (التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة) يقول المناوي: (التؤدة) التأني (في كل شيء خير) أي مستحسن محمود (إلا في عمل الآخرة) فإنه غير محمود بل الحزم بذل الجهد فيه لتكثير القربات ورفع الدرجات ذكره القاضي، وقال الطيبي: معناه أن الأمور الدنيوية لا يعلم أنها محمودة العواقب حتى يتعجل فيها أو مذمومة حتى يتأخر عنها بخلاف الأمور الآخروية لقوله سبحانه: {فاستبقوا الخيرات} [البقرة: ١٤٨]، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم} [الحديد: ٢١]

فهلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام، بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، هو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر، بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم، وهو عمل قلب، وما يستقبل تصلحه بالعزم والتوبة، وإياك أن تكون ممن قال فيهم يحيى بن معاذ الرازي: "عمل كالسراب، وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب، هيهات أنت سكران بغير شراب. ما أكملك لو بادرت أملك! ما أجلك لو بادرت أجلك! ما أقواك لو خالفت هواك!"

قالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-: "البخيل من بخل عن نفسه بالجنة".

وقال رجل لابن السماك: عظمي، فقال: "احذر أن تقدم على جنة عرضها السماوات والأرض وليس لك فيها موضع قدم".

وقال عطاء بن ميسرة: "إني لا أوصيكم بدنياكم، أنتم بها مستوصون، وأنتم عليها حراس، وإنما أوصيكم بآخرتكم، فجدوا في دار الفناء لدار البقاء".

وقال يحيى بن معاذ: "ترك الدنيا شديد، وفوت الجنة أشد، وترك الدنيا مهر الآخرة".
وقال أيضا: "في طلب الدنيا ذل النفوس، وفي طلب الآخرة عز النفوس، فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى، ويترك العز في طلب ما يبقى!"

المصادر

- [١] رواه أبو داود (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٠٠٩ في صحيح الجامع.
- الاستثمار الأمثل وعوائده د. عبد الله بهجت
- في ظلال القرآن سيد قطب رحمة الله تعالى عليه
- الفوائد لابن القيم
- صلاح الأمة في علو الهمة د. سيد العفاني

المسجد بيت كل تقي

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (المسجد بيت كل تقي، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة) (١)

المساجد مراح ومستراح للأرواح الرفرافة الطاهرة، ومأوى ومستقر للأجساد العابدة، وموطن طمأنينة ومكان سكينة للقلوب النقية، وموضع سعادة وأنس وجمال للنفوس المطمئنة ... إنها بيوت الله في الأرض، التي لا يتعلق بها قلب مخلص إلا كان علامة على تقواه، ولا يلازمها عبد صالح إلا رفع الله شأنه وطهر قلبه وغلب أعداءه.

من مواضع السجود فيها خرج العابدون، ومن مدارسها نبغ العلماء العاملون، ومن جوانبها خرجت ثورات الأمة على كل ظالم جبار مفتون.

قال تعالى: { فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [النور: ٣٦-٣٨]

وقال عز وجل: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [التوبة: ١٨].

قال -صلى الله عليه وسلم-: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله { فذكر منهم } .. ورجل قلبه معلق في المساجد) [٢] فلما أثر طاعة الله تعالى، وغلب عليه حبه، صار قلبه معلقاً في المساجد، ملتفتاً إليها يحبها ويألفها، لأنه يجد فيها حلاوة القربة، ولذة العبادة، وأنس الطاعة، ينشرح فيها صدره، وتطيب نفسه، وتقر عينه. فهو لا يحب الخروج منها، وإذا خرج تعلق قلبه بها حتى يعود إليها.

وهذا إنما يحصل لمن ملك نفسه، وقادها إلى طاعة الله جل وعلا فانقادت له. فلا يقصر نفسه على محبة بقاع العبادة إلا من خالف هواه، وقدم عليه محبة مولاه جل في علاه. أما من غلبته نفسه الأمانة بالسوء، فقلبه معلق بالجلوس في الطرقات، والمشى في الأسواق، محب لمواضع اللهو واللعب، وأماكن التجارة واكتساب الأموال.

والمكث في المساجد من أعظم أسباب تكفير السيئات ورفع الدرجات، ففي الحديث الشريف: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط) [٣] قال البيضاوي: " المرابطة: ملازمة العدو، مأخوذة من الربط وهو الشد، والمعنى: هذه الأعمال هي المرابطة الحقيقية، لأنها تسد طرق الشيطان إلى النفس، وتقهر الهوى وتمنعها عن قول الوسواس واتباع الشهوات، فيغلب بها جنود الله حزب الشيطان، وذلك هو الجهاد الأكبر، إذ الحكمة في شرع الجهاد تكميل الناقصين ومنعهم عن الفساد والإغراء."

وفي الحديث أيضا: (إسباغ الوضوء في المكاره، وإعمال الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة يغسل الخطايا غسلا) [٤] وفي رواية (الكفارات: مشى الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في المكروهات) [٥] قال ابن رجب: " يدخل في قوله -صلى الله عليه وسلم- (والجلوس في المساجد بعد الصلاة) الجلوس للذكر والقراءة وسماع العلم وتعليمه ونحو ذلك، لاسيما بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، فإن النصوص قد وردت بفضل ذلك، وهو شبيه بمن جلس ينتظر صلاة أخرى، لأنه قد قضى ما جاء المسجد لأجله من الصلاة وجلس ينتظر طاعة أخرى " وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما توطن رجل المساجد للصلاة والذكر، إلا تبشيش الله تعالى إليه، كما يتبشيش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم) [٦]، وفي رواية قال -صلى الله عليه وسلم-: (ما من رجل كان توطن

المساجد، فشغله أمر أو عله، ثم عاد إلى ما كان، إلا يتبشش الله إليه كما يتبشش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم) [٧].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال صلينا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المغرب، فرجع من رجع وعقب من عقب، فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسرعاً قد حفزه النفس، وقد حسر عن ركبتيه فقال (أبشروا هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة، يقول انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى) [٨]

وقال - صلى الله عليه وسلم -: (إذا تطهر الرجل ثم مر إلى المسجد يرعى الصلاة، كتب له كاتبه بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت، ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه) [٩]

وقال - صلى الله عليه وسلم -: (إذا توضأ أحدكم في بيته ثم أتى المسجد كان في صلاة حتى يرجع) [١٠]

وعن علي - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (من صلى الصبح، ثم جلس في مصلاه، صلت عليه الملائكة، وصلاتهم عليه: اللهم اغفر له اللهم ارحمه، ومن انتظر الصلاة صلت عليه الملائكة وصلاتهم عليه: اللهم اغفر له اللهم ارحمه) [١١]

وقال - صلى الله عليه وسلم -: (من صلى الغداة في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين؛ كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة تامة تامة) [١٢]

قال ابن رجب: " وإنما كان ملازمة المسجد مكفراً للذنوب لأنه فيه مجاهدة النفس، وكفراً لها عن أهوائها فإنها تميل إلى الانتشار في الأرض لابتغاء الكسب، أو لمجالسة الناس ومحادثتهم، أو للتنزه في الدور الأنيقة والمسكن الحسنة ومواطن النزه ونحو ذلك، فمن حبس نفسه في المساجد على الطاعة فهو مرابط لها في سبيل الله، مخالف لهواها وذلك من أفضل أنواع الصبر والجهاد "

الهوامش والمصادر

- [١] رواه الطبراني وصححه الألباني في الترغيب والترهيب ١٧٦/١ [٢] البخاري ٦٨٠٦ [٣] مسلم ٢٥١ [٤] (صحيح) حديث ٩٢٦ صحيح الجامع السيوطي / الألباني [٥] الترمذي ٣٢٣٥ وقال حسن صحيح [٦] رواه المنذري في الترغيب ١٧٥/١ وقال إسناده صحيح [٧] صحيح الترغيب للمنذري / الألباني ٣٢٧ [٨] صحيح ابن ماجة للألباني ٦٦٠ [٩] (صحيح) حديث ٤٣٤ في صحيح الجامع [١٠] (صحيح) حديث ٤٤٥ في صحيح الجامع [١١] مختصر البزار ٤١٢/٢ وقال العسقلاني إسناده حسن، بل صحيح [١٢] السلسلة الصحيحة للألباني ٣٤٠٣

الناس معادن

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه).

(تجدون الناس معادن) أي أصولا مختلفة ما بين نفيس وخسيس كما أن المعدن كذلك، ومعدن كل شيء أصله، أي: أصول بيوتهم تعقب أمثالها ويسرى كرم أعراقها إلى فروعها. والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك من كان متصفا بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها، متوقيا لمساوئها كالبخل والفجور والظلم وغيرها.

وفي رواية: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة) وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشركين في الجاهلية.

وأخرج ابن سعد والحاكم وصححه، عن أم سلمة قالت: شكى عكرمة بن أبي جهل للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا مر بالمدينة قيل له: هذا ابن عدو الله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فقال: (الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، لا تؤذوا مسلما بكافر).

ولفظ ابن سعد فقال: (ما بال أقوام يؤذون الأحياء بسبهم الأموات، ألا لا تؤذوا الأحياء بشتهم الأموات).

وعكرمة بن أبي جهل صحابي جليل، واسم أبي جهل عروة بن هشام المخزومي القرشي، كان شديد العداوة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو وأبوه، وكان فارساً مشهوراً، وهرب يوم الفتح فلحق باليمن فلحقت به امرأته أم حكيم بنت الحارث فأتت به النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما رآه قال: (مرحبا بالراكب المهاجر) فأسلم بعد الفتح سنة ثمان، وحسن إسلامه، وقتل يوم اليرموك سنة ثلاث عشرة وله اثنتان وستون سنة. قالت أم سلمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأيت لأبي جهل عذقا في الجنة فلما أسلم عكرمة قال يا أم سلمة هذا هو.

(فخيارهم في الجاهلية) سميت جاهلية لكثرة جهالاتهم (خيارهم في الإسلام) لأن اختلاف الناس في الغرائز والطبائع كاختلاف المعادن، فكما أن المعدن منه ما لا يتغير فكذا صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، ثم لما أطلق الحكم خصه بقوله (إذا فقهوا) أي صاروا فقهاء فإن الإنسان إنما يتميز عن الحيوان بالعلم، والشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين، وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة.

فأعلمنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وخيارهم في الجاهلية هم أهل الشرف بالأنساب فإذا فقهوا في الإسلام كانوا خيار أهل الإسلام، وعقلنا بذلك أنهم إذا لم يفقهوا في الإسلام لم يكونوا كذلك، وكان من فقه سواهم ممن ليس له من النسب ما لهم يعلون بذلك.

والتفاخر هو الممنوع أما التفاضل فإن الله يفضل بعض الأجناس على بعض، فالعرب أفضل من غيرهم، لكن إذا كان العربي غير متق والعجمي متقياً، فالعجمي عند الله أكرم من العربي.

قال في «زهر الأدب في مفاخر العرب»: الكفاءة عندنا معاشر الحنابلة معتبرة، وكذا عند الشافعية، وفي إحدى الروايتين عن مالك، ثم قال: ومن الجهل أن يعتقد أحد عدم التفاضل، والتفاضل واقع في أنواع الموجودات، فضل الله السماء السابعة على سائر الموجودات، ومكة على باقي البلاد، وجبريل وميكائيل وإسرافيل على غيرهم من الملائكة.

وروى الدارقطني عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: "لأمنعن تزوج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء" وفي حديث رواه ابن ماجه والدارقطني عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم) ثم قال: وقوله: " ليس لعربي فضل على عجمي " ، " والمؤمنون تتكافأ دماؤهم " إنما المعنى في هذا كما قال ابن قتيبة أن الناس من المؤمنين كلهم سواء في الأحكام والمنزلة والكفاءة إنما هي في الدين والخلق.

(وتجدون خير الناس في هذا الشأن) الخلافة أو الإمارة (أشدهم له كراهية) يعني خيرهم دينا وعقلا يكره الدخول في تولي الإمارة لصعوبة لزوم العدل وفي رواية (حتى يقع فيه) فإذا وقع فيه قام بحقه ولا يكرهه. قال القاضي: يحتمل أن المراد به الإسلام كما كان من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وغيرهم من مسلمة الفتح وغيرهم ممن كان يكره الإسلام كراهية شديدة فلما دخل فيه أخلص وأحبه وجاهد فيه حق جهاده.

(وتجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين) وفسره بأنه (الذي) يشبه المنافق (يأتي هؤلاء) القوم (بوجه ويأتي هؤلاء بوجه) فيكون عند ناس بكلام وعند أعدائهم بضده، مذبذبين بين ذلك، وذلك من السعي في الأرض بالفساد، لأنه نفاق محض وكذب وخداع، وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها ويظهر لها أنه منها في خير أو شر وهي مداهنة محرمة.

وقد قال الله في شأن المنافقين: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]

وقال تعالى: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضي من القول وكان الله بما يعملون محيطاً} هذه الآية نزلت في قوم يخفون في أنفسهم ما لا

يبدونه، يحدثون الناس بما ليس في قلوبهم، فإذا صاروا في الوحدة واجتمعوا في الليل أظهروا ما في نفوسهم والعياذ بالله الذي كانوا أخفوه عن الناس من قبل. ومثل ذلك أيضاً من يعمل المعصية خفياً ولا يعملها أمام الناس حياءً منهم وخجلاً، وأما الله فلا يستحي منه ولا يخجل والعياذ بالله، وهذا يدخل في الآية الكريمة.

الأمة الإسلامية.. أمة التطوع

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال -صلى الله عليه وسلم-:
(إن الله تعالى يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيرببها لأحدكم كما يربي
أحدكم مهره، حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد) (١)

الأمة الإسلامية أمة التطوع في كل مجال، وبالتطوع حققت كل المنجزات، وبالتطوع انتشر هذا الدين في ربوع الدنيا، وبالتطوع شيدت أعظم حضارة عرفها التاريخ في قيمها ومفاهيمها ونظرتها للكون والحياة، وبالتطوع تحققت للإنسان على أيدي المسلمين كرامته المفقودة، وبالتطوع قضى المسلمون على الثالث المدمر للإنسانية «الفقر والمرض والجهل» حتى عادت الصدقات إلى بيت المال في القرن الأول من بزوغ فجر الإسلام لأنها لم تجد من يقبلها أو يحتاجها.

وبالتطوع تحول الناس كلهم إلى قطرات غيث وسواعد بناء لحضارة أشرقت شمسها وتفيء العالم ظلالها لما يزيد عن الألف عام، في زمن كانت أوروبا غارقة في التخلف والجهل، بل وتمزقها الصراعات على المطامع المادية وإقطاعات الأراضي. وعندما كانت روح التطوع سائدة في المجتمع المسلم لم يعرف كثيرا من المشكلات التي ظهرت في هذا الزمان مثل البطالة والأمية والمخدرات وجنوح الأحداث وتلوث البيئة وغيرها.

قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١] إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف، إنما يبدأ بالحض والتأليف.. إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله.. إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة: صورة الزرع. هبة الأرض أو هبة الله. الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره. يعرض هذه الصورة الموحية مثلا للذين ينفقون أموالهم في

سبيل الله.. وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء. إنه لا يعطي، بل يأخذ، وإنه لا ينقص، بل يزداد.. وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها. تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة. إن الله يضاعف لمن يشاء. يضاعف بلا عدة ولا حساب. يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها (٢)

قال -صلى الله عليه وسلم-:

- (تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدق رجل من دينار، تصدق رجل من درهم، تصدق رجل من بره، تصدق رجل من تمره من شعيره، لا تحقرن شيئاً من الصدقة ولو بشق تمر) (٣)

- (ما يخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها حبي سبعين شيطاناً) (٤)

- (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة تطفي غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر) (٥)

- (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول) (٦)

- (من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدي زقاقاً فهو كعتق نسمة) (٧)

وقال رجل للنبي -صلى الله عليه وسلم- يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: (أن تصدق وأنت صحيح حريص، تأمل الغنى، وتخشى الفقر، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان) (٨)

قال المناوي: (إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه) كناية عن حسن قبولها، لأن الشيء المرضي يتلقى باليمين عادة، وقيل ذكر اليمين لأنها عرفاً لما عز، والشمال لما هان، والله تعالى منزه عن الجارحة (فيربيها لأحدكم) يعني يضعف أجرها أي يزيد في كميته عينها فيكون أثقل في الميزان (كما يربي أحدكم) تمثيل لزيادة التفهيم (مهرة) صغير الخيل، وفي رواية فلو، وخصه بضرب المثل لأنه يزيد زيادة بينة، قال في الكشف: هذا مثل ضرب لكون أصغر صغير يصير بالتربية أكبر كبير. (٩)

ومن فضائل الصدقة:

أنها تطفى غضب الله سبحانه وتعالى لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (صدقة السر تطفى غضب الرب) (١٠)

والصدقة تمحو الخطيئة، وتذهب نارها لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار) (١١)

كما أنها وقاية من النار لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا النار، ولو بشق تمرة) (١٢)

والمصدق في ظل صدقته يوم القيامة لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (كل امرئ في ظل صدقته، حتى يقضى بين الناس) (١٣) قال يزيد " فكان أبو مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة "

وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... رجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) (١٤)

وفي الصدقة دواء للأمراض البدنية لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (داووا مرضاكم بالصدقة) (١٥) يقول ابن شقيق " سمعت ابن المبارك وسأله رجل: عن قرحة خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عاجلها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع بهم، فقال: اذهب فاحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء، فإني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم، ففعل الرجل فبرأ "

كما أن الصدقة فيها دواء للأمراض القلبية لقوله -صلى الله عليه وسلم- لمن شكا إليه قسوة قلبه: (إذا أردت يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم) (١٦)

وبالصدقة يدفع الله تعالى أنواعاً من البلاء، كما في وصية يحيى عليه السلام لبني إسرائيل: (وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم) (١٧)

فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ، بل من كافر فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه.

ولا يصل العبد لحقيقة البر إلا بالصدقة كما جاء في قوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢]

كما أن المنفق يدعو له الملك كل يوم بخلاف الممسك، وفي ذلك يقول -صلى الله عليه وسلم-: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) (١٨)

بل إن الله يضاعف للمتصدق أجره كما في قوله عز وجل: {إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد ١٨]. وقوله سبحانه: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة ٢٤٥]

الهوامش

- (١) [صحيح] ١٩٠٢ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني (٢) في ظلال القرآن سيد قطب ج ١ ص ٣٠٦ (٣) [صحيح] ١٣٥٤ صحيح الجامع (٤) [صحيح] ٥٨١٤ صحيح الجامع (٥) صحيح الترغيب والترهيب المنذري / الألباني ٨٩٠ (٦) البخاري ٥٣٥٦ (٧) [صحيح] ٦٥٥٩ صحيح الجامع (٨) البخاري ٢٧٤٨ (٩) فيض القدير للمناوي ١٢٥/٢ بتصرف (١٠) [صحيح] ٣٧٥٩ صحيح الجامع (١١) [صحيح] ٥١٣٦ صحيح الجامع (١٢) [صحيح] ١١٤ صحيح الجامع (١٣) [صحيح] ٤٥١٠ صحيح الجامع (١٤) البخاري ٦٨٠٦ (١٥) [حسن] [صحيح] ٣٣٥٨ صحيح الجامع (١٦) [حسن] ١٤١٠ صحيح الجامع (١٧) [صحيح] ١٧٢٤ صحيح الجامع (١٨) متفق عليه

إنما الدنيا لأربعة نفر

روى الترمذي عن أبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاخْفَظُوهُ قَالَ: مَا نَقَصَ مَالٌ عَبْدٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظَلَمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا). وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاخْفَظُوهُ قَالَ: (إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةٍ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ) ... قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

هذا التقسيم لأحوال الناس في الدنيا من أبداع التقسيمات التي لا يخرج عنها البشر أبدا.. قسم هو أفضل المنازل، وقسم آخر أخبث المنازل، والثاني والرابع تبع لهما. والذي رفع الرجل الأول وحط الرجل الثالث هو «العلم»، فالأول غني ثري، هداه علمه لمراعاة الله تعالى في ماله، والثالث كان جهله قائدا له إلى هلكة ماله في الباطل، والثاني نجا بالعلم، والرابع هلك بالجهل، وفي هذا إشارة إلى فضل العلم على المال. ولا يشترط للمرء الغني أن يكون عالما، بل يمكن أن يتعلق بعالم إن كان لا يعلم، فالمال لا يمدح وحده دون علم، قال -صلى الله عليه وسلم-: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه

الله مالا، فسلبه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها) [رواه النسائي]

ففي الحديث قيد فضل الغني بإنفاقه المال في «الحق» وهذا يستلزم علما وبصيرة بما يرضي الله تعالى في الإنفاق في الحق، فبالعلم وحده يفرق المرء بين الحق والباطل. قال أبو مسلم الخولاني: "مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا".

ولما حضرت أبي الإمام البخاري الوفاة، وقد كان تاجرا، قال له: يا بني تركت لك ألف ألف، ما أعلم فيها شبهة.. فقال هذا لأنه كان مصاحبا للعلماء، فانتفع بهم في التمييز بين الحلال الحرام، لذلك لما ترجم البخاري لوالده، قال: رأى حماد بن زيد، وصافح ابن المبارك بكلتا يديه.. وقد قالوا عن حماد بن زيد: لو قيل له القيامة غدا، ما قدر أن يزيد في عمله شيئا.

وكفى بالعلم شرفا، علو الذكر في الدنيا والآخرة، وطيب الثناء عبر القرون، فالتاريخ لم يذكر لنا أسماء الأغنياء في زمان مالك، أو الشافعي، أو البخاري أو الترمذي.. وإنما ذكر لنا الأفاضل، الذين نترضى عنهم صباح مساء.

وخص في الرجل الأول «صلة الرحم» لعظم قدرها، فخصص بعد عموم.. قال - صلى الله عليه وسلم-: (أفضل الصدقة، الصدقة على ذي الرحم الكاشح) [صحيح الجامع: ١١١٠]

الكشح: جانب البطن، قال الزمخشري: "هو الذي يضمّر العداوة ويطوي عليها كشحه. أو الذي يطوي عنك كشحه ولا يَأْلُفُكَ". قال ابن الأثير: وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ كَاشِحًا لِأَنَّهُ وَلَاكَ كَشْحَهُ وَأَعْرَضَ عَنْكَ.

والمقصود أفضل الصدقة على ذي الرحم المضمّر العداوة في باطنه، فالصدقة عليه أفضل منها على ذي الرحم الغير كاشح، لما فيه من قهر النفس للإذعان لمعاديها، وعلى ذي الرحم المصافي أفضل أجراً منها على الأجنبي لأنه أولى الناس بالمعروف.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (صدقة ذي الرحم على ذي الرحم صدقة وصلة)
[صحيح الجامع: ٣٧٦٣]

ففيها أجران بخلاف الصدقة على الأجنبي، ففيها أجر واحد، وفيه التصريح بأن العمل قد يجمع ثواب عملين لتحصيل مقصودهما به فلعامله سائر ما ورد في ثوابهما بفضل الله تعالى ومنته.

أما الرجل الثاني فهو «صادق النية» كما وصفه -صلى الله عليه وسلم-، والنية عبادة مستقلة لا تفتقر لغيرها من العبادات، أما سائر العبادات فتفتقر إلى النية، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) [البخاري وسلم] أي لا عمل إلا بنية.

فقوله -صلى الله عليه وسلم-: (فهجرته إلى الله ورسوله) تكرر للتوكيد ولإعلاء شأن حسن القصد.

وقوله: (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها) تخصيص بعد تعميم، لأن المرأة من الدنيا، لكنه خص ذكر المرأة لعظم الفتنة بها، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء) [رواه مسلم]، وقال: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحدائكن) [البخاري]

وقال تعالى حكاية عن يوسف: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: ٣٣] أي أميل إليهن، يقال أصباني فصبوت أي حملني على الجهل وعلى ما يفعل الصبي ففعلت. [التبيان، تفسير غريب القرآن]

(ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها) لا يستشكل في هذا قصة زواج أم سليم، وخبرها أنه لما مات زوج أم سليم رضي الله عنها، جاءها أبو طلحة الأنصاري خاطباً

فكلمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة، ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لي أن أتزوجك. فقال: ما ذاك دهرك! (ما هذه عادتك)، قالت: وما دهري؟ قال: الصفراء (الذهب) والبيضاء (الفضة)، قالت: فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، فإن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره، قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فانطلق أبو طلحة يريد النبي -صلى الله عليه وسلم- ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس في أصحابه، فلما رآه قال: (جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه)، فأخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما قالت أم سليم، فتزوجها على ذلك.

قال ثابت البناني، راوي القصة عن أنس: فما بلغنا أن مهرًا كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهرًا.

قال العلماء: إذا تزاحمت نيتان فأولاهما أسبقهما، وإنما سبقت نية أبو طلحة للإسلام نيته للزواج، بدليل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه).

وقوله (فهجرته إلى ما هاجر إليه) ولم يخص أو يعين إمعانا في التحقير والازدراء، كما قال تعالى: {قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [يوسف: ٧٥] أي افعلوا به ما يستحقه، وهذا أبلغ في العقوبة.

وكقوله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١٠٠] ولا شك أن من وقع أجره على الله: أن الله يرزقه الرزق الحسن كما لا يخفى.

قال أبو حيان: "وهذه مبالغة في ثبوت الأجر ولزومه، ووصول الثواب إليه فضلاً من الله وتكريماً، وعبر عن ذلك بالوقوع مبالغة". [البحر المحيط]

وقلما قام غني بحق المال، فلا يقوم بحق المال إلا أفذاذ الرجال، ولذلك تنازع العلماء
أيهم أفضل، الفقير الصابر أم الغني الشاكر، والكثير منهم على أن الغني الشاكر أفضل،
لأن صبر الفقير اضطراري، وشكر الغني اختياري وهو قليل.

إنها كانت وكانت

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر ذكورها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول (إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد)

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت ما غرت على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعُه يذكرها وأمره الله أن يبشرها ببنتٍ من قصبٍ وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن [البخاري]

** هذا الحديث رواه البخاري بنحوه في (باب حسن العهد من الإيمان) قال أبو عبيد العهد هنا رعاية الحرمه، وقال الراغب: حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال

** وقد أخرج الحاكم والبيهقي في الشعب من طريق صالح بن رستم عن بن أبي مليكة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي الله صلى الله عليه وسلم. فقال: (كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟) قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: (يا عائشة، إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان)

** في رواية كان إذا ذبح الشاة يقول أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة، وفي رواية قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعرف

استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: (اللهم هالة بنت خويلد).. [فارتاح] أي اهتر فرحاً وسروراً وانتعشت نفسه، وأسرع للقائها، لأن صوتها يشبه صوت خديجة
** قولها: (مَا غَرَّتْ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، مَا غَرَّتْ عَلَيَّ خَدِيجَةَ).. «على خديجة» أي من خديجة، فأقامت «على» مقام «من» وحروف الجر تتناوب في رأي، أو «على» سببية أي بسبب خديجة.. والغيرة انفعال يكون في الإنسان يجب أن يختص صاحبه به دون غيره، ولهذا سميت غيرة لأنه يكره أن يكون الغير حبيبا لحبيبه، والنساء الضرات هن أشد بني آدم غيرة.

وفيه ثبوت الغيرة، وأنها غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلا عن دونهن، وأن عائشة كانت تغار من نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - لكن كانت تغار من خديجة أكثر

وقد بينت - رضي الله عنها - سبب تلك الغيرة وإنها لكثرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إياها، وأصل غيرة المرأة من تخيل محبة غيرها أكثر منها، وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة.

** لا تصل حدود الغيرة من أحدٍ نهايتها من مفقود أو غائب زمانا ومكانا إلا كان هذا دليلا قويا على حضور الغائب بأفعاله، وعظيم سيره، وقوة أثره.

** يعلمنا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقه التعامل مع من فقدناهم في حياتنا من أقرب الناس بنا من: ديمومة الذكر لهم، وسرد محاسنهم وخصال الخير فيهم، وكثرة الدعاء لهم، وسمر الحديث بهم، فلا زمن يفتر حبه، ولا بُعدا يشغل قلبه، فيظل حاضرا معه روحا، وإن غاب الجسد حضورا، وليتنا نفعل هذا مع من فقدناهم.

** تتعدى المحبة للمحب الكلمات إلى أودية الأفعال والسلوك والهدايا، وترجم كلما سنحت فرصة بعادة جمعتهما، أو نسب قربهما، أو قرابة بينهما، أو أصدقاء ترابط أحمدهما بهم، كل ذلك من جميل المحبة.

** هناك من يلزم الآخر على تذكره، وإجهاد من يأت بعده أن يصل إلى درجته..
وتأمل عبارة (كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةً إِلَّا خَدِيجَةً)

وكانه -صلى الله عليه وسلم- لم ير غيرها، وإن تزاحم النساء من حوله، أو لم يخلق الله سواها، شعور وصل إلى الآخر الذي لم يعهداها.

** خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية كانت تحت أبي هالة بن زرارة ثم تزوجها عتيق بن عابد ثم تزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- ولها يومئذ من العمر أربعون سنة، ولم ينكح صلى الله عليه وسلم قبلها امرأة ولا نكح عليها حتى ماتت، وهي أول من آمن من كافة الناس ذكرهم وأنثاهم، وجميع أولاده منها غير إبراهيم فإنه من مارية، وماتت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين، وكان لها من العمر خمس وستون سنة، وكان مدة مقامها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة، ودفنت بالحجون

** قوله: (إنها كانت وكانت) كرر مرتين ولم يرد به التثنية، ولكن ليتعلق بالتكرير كل مرة من خصائلها ما يدل على فضلها، كقوله تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [الكهف: ٨٢] ولم يذكر هنا متعلقة للشهرة تفخيماً، وقدّر الشراح بنحو: كانت فاضلة، وكانت عاقلة، (وكان لي منها ولد).

وعند أحمد من طريق مسروق من عائشة -رضي الله عنها- قال -صلى الله عليه وسلم-: (آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقني إذ كذبنى الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء)

** كذلك أيضا يبقي من البر بعد موت الوالدين ما رواه أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي -رضي الله عنه-، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٍ أُبْرُهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا [أي الدعاء لهما])، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَادُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا) رواه أبو داود.

ترويع الآمنين بزعم الجهاد في الدين

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عُمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفِي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه) (١)

للشيطان مدخلين على المسلمين ينفذ منهما إلى إغوائهم وإضلالهم، أحدهما: أنه إذا كان المسلم من أهل التفريط والمعاصي زين له المعاصي والشهوات ليبقى بعيدا عن طاعة الله ورسوله، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات) (٢)

والثاني: أنه إذا كان من أهل الطاعة والعبادة زين له الإفراط والغلو في الدين ليفسد عليه دينه، قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧]
وقال -صلى الله عليه وسلم- (إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) (٣)

ومن مكائد الشيطان لهؤلاء المفرطين الغالين أنه يزين لهم إتباع الهوى وركوب رؤوسهم وسوء الفهم في الدين، ويژهدهم في الرجوع إلى أهل العلم لئلا يبصروهم ويرشدوهم إلى الصواب، وليبقوا في غيهم وضلالهم، قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٥٠]

إن الإرجاء والغلو كلاهما خطره عظيم؛ لكن الأخطر على شباب الصحوة المعاصرة هو الغلو؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حذر من الخوارج بتعيين صفتهم وإيجاب قتالهم، وفضل من قام بجهادهم في عشر روايات صحيحة، ولم يصح في الإرجاء حديث مرفوع، والسبب في ذلك أن الغلو تبديل للدين، أما الإرجاء فهو تفريط في الدين أو تسويغ للتقصير فيه؛ وهذا خطر على العامة؛ لكن كثيراً من المسلمين لا يقبل أن يجعله هو الدين، وبعضهم لا يعتبر من ظهر عليهم التساهل والتفريط ممثلين لحقيقة الدين وإن زعموا هم ذلك بناءً على تأويلات المرجئة؛ وذلك لاختلاط حالهم بحال الفساق والمتهاونين.

والمتشدد الغالي فإنه يكتسب عندهم منزلة التقديس كما حدث لغلاة الزهاد والعباد؛ لأنهم يرون فيه تمسكاً أكثر وأخذاً للنفس بالعزيمة، والعامة عادة لا يميزون بين شدة التمسك بالحق وبين الغلو، فيقع الاشتباه وينشأ عنه تبديل مفهوم حقيقة الدين.

والدماء المعصومة حرمتها عند الله تعالى عظيمة، وشأنها كبير، وغلظتها شديدة. ومن دلائل العناية بها، والتغليظ فيها: أن ذكرها، والتنويه بها؛ وقع قبل أن تنفخ الروح في آدم عليه السلام، وقبل أن تجري دماؤه في عروقه، فالملائكة عليهم السلام - وهم من أعلم الخلق بالله تعالى، وبما يرضاه وما لا يرضاه من الأقوال والأفعال - لما أخبرهم سبحانه وتعالى أنه جاعل في الأرض خليفة {قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء} [البقرة: ٣٠]، ولولا عظمة الدماء عند الله تعالى لما نوّه الملائكة بذكرها من بين سائر وجوه الإفساد التي هي من الكثرة بما يعجز على العد والحصر.

قال تعالى: {من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً} [المائدة: ٣٢] ولست أعلم ذنباً في الشريعة يكون مرتكبه في حق واحد من الناس كمن فعله في جميع الناس غير هذا الذنب العظيم، فما أعظم شأن الدماء عند الله تعالى!!

قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: "من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرّم دم مسلم فكأنما حرّم دماء الناس جميعاً" (٤).

وجاءت السنة النبوية تؤكد على ذلك، وتزيده وضوحاً وبيانياً.

فمن كبائر الذنوب التي توبق صاحبها، ويستحقُ بسببها العذاب يوم القيامة: قتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق؛ كما دلت على ذلك الأحاديث (٥) والمسلم في سعة من دينه، وفي فسحة من ذنوبه التي هي دون القتل، حتى يباشر القتل ظلماً وعدواناً، فيضيق عليه الأمر؛ لعظم شأن الدم؛ كما جاء في حديث ابن عمر -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) (٦)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حِلِّه" (٧) وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: "لا يزال المؤمن مُعِنِقاً [خفيف الظهر] صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلَّح [أعيا وانقطع]" (٨)

والدم الذي يُسفك ظلماً وعدواناً لا يضيع، ولو تملاً أهل بلد على قتل معصوم لقتلوا به، ولو اجتمع أهل الأرض كلهم على سفك دم محرم لأخذوا به، وعذبوا بسببه، كيف!! والنبى -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار) (٩)

لقد أدرك خبراء مراكز الدراسات الاستشراقية والشرق أوسطية أن هذه الأمة لا يمكن أن تهزم إلا إذا تم اختراقها من الداخل، والعبث بأخلاقها وقيمها ومفاهيمها ومعتقداتها، وعلى يد من؟ على يد بعض أبنائها توخياً لإثارة المهرج والمرج وابتعاث فتن داخلية من نوع جديد وبأسلوب أكثر مكرًا ودهاء نرى معاملة حيثما تلفتنا.

ولا نتردد هنا في الإقرار بأن بعض مآسي هذه الأمة في المرحلة الراهنة هم الغلاة التكفيريين الذين استباحوا لأنفسهم أن يعيشوا في الأرض فساداً وقد اختلطت لديهم المفاهيم واحتكروا لأنفسهم سن الفتاوى التي لا تتواءم مع وسطية الإسلام ودعوته إلى الحكمة

والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فأباحوا القتل والتفجير داخل بلادنا الإسلامية الآمنة، دون أن يتبصروا عواقب جرائمهم أو بالأحرى ربما هم على بينة مما يرتكبونه من مجازر وإخلال بالأمن تحت ستار تفاسير ملتوية لآيات هي منهم براء ودينهم في حل منهم. ولعل أسوأ تداعيات هذه الانحرافات ما نجم مؤخرا من الالتباس بين مفهومي الإرهاب والمقاومة حيث اختلطت الرؤى وتداخلت الدوافع وصار من العسير تفنيدها والفصل فيما بينها وخاصة أمام الرأي العام العالمي.

الهوامش والمصادر

(١) رواه مسلم - كتاب الإمارة رقم ١٨٤٨ (٢) البخاري ٦٤٨٧ ومسلم ٢٨٢٢ (٣) رواه النسائي في الكبرى رقم ٤٠٦٣ (٤) تفسير ابن كثير (٢-٧٥) عند تفسير الآية ٣٢ من سورة المائدة (٥) جاء ذلك في أحاديث عدة منها حديث أنس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس..). أخرجه البخاري رقم ٦٨٧١، وحديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (قال: "اجتنبوا السبع الموبقات.... وذكر منها: قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق) أخرجه البخاري، ومسلم ٨٩ (٦) البخاري في الديات (٧) أخرجه البخاري موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما في الديات (٨) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ١٣٠٩ وفي المعجم الأوسط ٢٢٩، والصغير ١١٠٨ (٩) أخرجه الترمذي في الديات منزلة الدماء في الشريعة / إبراهيم بن محمد الحقل

الإرجاء والغلو خطران عظيمان على الإسلام / الشيخ الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي
بأي عقل ودين يكون التفجير والتدمير جهادا ويحكم...أفيقوا يا شباب/ فضيلة الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر

تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء) (١)

الدعاء نعمة كبرى، ومنحة جلّى، جاد بها ربنا -جل وعلا- حيث أمرنا بالدعاء، ووعدنا بالإجابة والإثابة؛ فشأن الدعاء عظيم، ومنزلته عالية في الدين، فما استُجِبتِ النعم بمثله، ولا استُدْفعتِ النقم بمثله.. والدعاء عبادة لله، وتوكل عليه، ومحجوب لله، وأكرم شيء عليه تعالى.. والدعاء سبب عظيم لانسراح الصدر، وتفريج الهم، ودفع غضب الله سبحانه.. والدعاء مفزع المظلومين، وملجأ المستضعفين، وأمان الخائفين.

ثم إن ثمرة الدعاء مضمونة؛ إذا أتى الداعي بشرائط الدعاء وآدابه، فإما أن تعجّل له الدعوة، وإما أن يُدفع عنه من السوء مثلها، وإما أن تُدخر له في الآخرة.

فما أشد حاجتنا إلى الدعاء! بل ما أعظم ضرورتنا إليه! قال الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦]

وقوله -صلى الله عليه وسلم- (من سره) من السرور وهو انسراح الصدر بلذة فيها طمأنينة النفس عاجلاً (أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب) جمع كربة وهي غم يأخذ بالنفس لشدته (فليكثر الدعاء في الرخاء) أي في حال الرفاهية والأمن والعافية، لأن من

شيمة المؤمن الشاكر الحازم أن يريش السهم قبل الرمي، ويلتجئ إلى الله قبل الاضطرار بخلاف الكافر الشقي والمؤمن الغبي، قال تعالى: {وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً} [الزمر: ٨]

فتعين علي من يريد النجاة من ورطات الشدائد والغموم أن لا يغفل بقلبه ولسانه عن التوجه إلى حضرة الحق تقديس وتعالى بالحمد والابتهال إليه والثناء عليه إذ المراد بالدعاء في الرخاء، كما قال الإمام الحلبي: دعاء الثناء والشكر والاعتراف بالمنن وسؤال التوفيق والمعونة والتأييد والاستغفار لعوارض التقصير، فإن العبد وإن جهد لم يوف ما عليه من حقوق الله بتمامها، ومن غفل عن ذلك ولم يلاحظه في زمن صحته وفراغه وأمنه كان صدق عليه قوله تعالى: {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون} [العنكبوت: ٦٥] (٢)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) (٣) أي تحب وتقرب إليه بطاعته والشكر على سابغ نعمته والصبر تحت مر أقضيته وصدق الالتجاء الخالص قبل نزول بليته

(في الرخاء) أي في الدعة والأمن والنعمة وسعة العمر وصحة البدن فالزم الطاعات والإنفاق في القربات حتى تكون متصفاً عنده بذلك معروفاً به (يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك وجعله لك من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً بما سلف من ذلك التعرف، كما وقع للثلاثة الذين آووا إلى الغار، فإذا تعرفت إليه في الرخاء والاختيار جازاك عليه عند الشدائد والاضطرار بمدد توفيقه وخفي لطفه.

كما أخبر تعالى عن يونس عليه الصلاة والسلام بقوله: {فلولا أنه كان من المسبحين} [الصفات: ١٤٣] يعني قبل البلاء، بخلاف فرعون لما تنكر إلى ربه في حال رخائه لم ينجه اللجأ عند بلائه قال تعالى: {آلآن وقد عصيت قبل} [يونس: ٩١].

قال أحد الصالحين: ينبغي أن يكون بين العبد وبين ربه معرفة خاصة بقلبه بحيث يجده قريباً منه فيأنس به في خلوته ويجد حلاوة ذكره ودعائه ومناجاته وخدمته، ولا يزال العبد

يقع في شدائد وكرب في الدنيا والبرزخ والموقف فإذا كان بينه وبين ربه معرفة خاصة كفاه ذلك كله.

أوقات وأحوال وأماكن وأوضاع يستجاب فيها الدعاء :

ليلة القدر ** جوف الليل الآخر ووقت السحر ** دبر الصلوات المكتوبات (الفرائض الخمس) ** بين الأذان والإقامة ** عند النداء للصلوات المكتوبات ** عند نزول الغيث ** عند زحف الصفوف في سبيل الله ** ساعة من يوم الجمعة وهي على الأرجح آخر ساعة من ساعات العصر قبل الغروب ** عند شرب ماء زمزم مع النية الصادقة ** عند السجود في الصلاة ** عند قراءة الفاتحة واستحضار ما يقال فيها ** عند رفع الرأس من الركوع وقول: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ** عند التأمين في الصلاة ** عند صياح الديك ** بعد زوال الشمس قبل الظهر ** الغازي في سبيل الله ** دعاء الحاج ** دعاء المعتمر ** عند المرض ** إذا نام على طهارة ثم استيقظ من الليل ودعا ** عند الدعاء ب: لا إله إلا الله سبحانه إني كنت من الظالمين ** دعاء الناس عقب وفاة الميت ** الدعاء بعد الثناء على الله والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- في التشهد الأخير ** دعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب ** دعاء يوم عرفه في عرفه ** الدعاء في شهر رمضان ** عند اجتماع المسلمين في مجالس الذكر ** عند الدعاء في المصيبة ب: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبي واخلف لي خيرا منها ** الدعاء حال إقبال القلب على الله واشتداد الإخلاص ** دعاء المظلوم علي من ظلمه ** دعاء الوالد لولده ** دعاء المسافر ** دعاء الصائم حتى يفطر ** دعاء الصائم عند فطره ** دعاء المضطر ** دعاء الإمام العادل ** دعاء الولد البار بوالديه ** الدعاء عقب الوضوء إذا دعا بالمأثور في ذلك وهو قوله: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله. فمن قال ذلك فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء ** الدعاء بعد رمي الجمرة الصغرى ** الدعاء بعد رمي الجمرة الوسطى ** الدعاء داخل الكعبة ومن صلي داخل الحجر فهو في البيت ** الدعاء في الطواف ** الدعاء على الصفا والمروة ** الدعاء بين

الصفاء والمرورة ** الدعاء في الوتر من ليالي العشرة الأواخر من رمضان ** الدعاء في العشر
الأول من ذي الحجة ** الدعاء عند المشعر الحرام.

الهوامش والمصادر

(١) رواه الترمذي والحاكم قال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي، وقال الألباني (حسن) حديث
٦٢٩٠ في صحيح الجامع (٢) فيض القدير للمناوي ١٥٢/٢ (٣) رواه أبو القاسم بن بشران في
أماله عن أبي هريرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٩٦١ في صحيح الجامع

خير الناس

عن ابن عمرو -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق) قيل ما القلب المحموم؟ قال: (هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد) قيل فمن على أثره؟ قال: (الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة) قيل فمن على أثره؟ قال: (مؤمن في خلق حسن) (١)

كلمات ينبغي أن تكتب بماء الذهب، ونور لا يخرج إلا من مشكاة النبوة.. إنها دعوة لإرشاد النفس إلى طريق الخير.. دعوة امتزجت بكل الإخلاص، بعيدة عن الهتافات والشعارات الجوفاء التي خالطها الرياء فلم يبق فيها من الخير شيئاً.

(خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق)

فالقلب العامر بنور الإيمان هو المعيار الأساسي للتقوى، قال -صلى الله عليه وسلم- : (التقوى هاهنا التقوى هاهنا.. وأشار إلى صدره) (٢) فأمر الإيمان ليس بكثرة الأعمال الظاهرة، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، (ألا وإن في الجسد مضغه، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) (٣) لذلك كان صلاح القلوب بالطاعات الشغل الشاغل للمؤمنين الصادقين.

قال إبراهيم الخواص: دواء القلب في خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسه الصالحين. (٤)

والذنوب للقلب بمنزلة السموم إن لم تهلكه أضعفته ولا بد، والضعيف لا يقوي على مقاومة العوارض، قال ذو النون المصري: سقم الجسد في الأوجاع، وسقم القلوب في

الذنوب، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب (٤)

والقلوب الفارغة من طاعة الله موكله بالشهوات التي هي سبب هلكتها وعطبها.

كيف الرحيل بلا زاد إلى وطن ما ينفع المرء فيه غير تقواه
من لم يكن زاده التقوى فليس له يوم القيامة عذر عند مولاه

قيل: ما القلب المحموم (٥)؟ قال: (هو النقي النقي، الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد)

إنه القلب الخالي من آفات وأمراض القلوب كالبغي والغل والحقد والحسد ... فهو القلب السليم النقي الذي لا يفلح ولا ينجو يوم القيامة إلا صاحبه، قال تعالى: {يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم} [الشعراء: ٨٨-٨٩]

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كنا جلوسا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة) فطلع رجل من الأنصار، ينظف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل ذلك أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي -صلى الله عليه وسلم- تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحت أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيرا.

فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثم، ولكن سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول لك ثلاث مرات: (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة) فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت

أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أي لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطق (٦)

(خير الناس ... واللسان الصادق)

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} [التوبة: ١١٩]

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) (٧)

قال أحد الحكماء: من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل.

وقيل إن ربعي بن حراش لم يكذب كذبه قط، وكان له ابنان عاصيان على الحجاج، فطلبهما فلم يعثر عليهما، فقيل للحجاج: إن أباهما لم يكذب كذبه قط، لو أرسلت إليه فسألته عنهما، فاستدعى أباهما، فقال: أين أبناؤك؟ قال: هما في البيت، فأستغرب الحجاج، وقال لأبيهما: ما حملك على هذا، وأنا أريد قتلهما؟ فقال: لقد كرهت أن ألقى الله تعالى بكذبه. فقال الحجاج: قد عفونا عنهما بصدقك.

ذاك والله الصدق الحق الذي يصفه الجنيد بقوله: (حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب) (٨)

والصدق إنما يحسن إذا تعلق به نفع ولا يلحق ضرره بأحد، فمن المعلوم قبح الغيبة والنميمة والسعاية وإن كانتا صدقاً، ولذلك قيل: كفى بالسعاية والغيبة والنميمة ذماً أن الصدق يقبح فيهما.

(قيل فمن على أثره؟ قال: الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة)

فحب الدنيا رأس كل خطيئة، وحقيقة الزهد فيها ليس بالتبتل والإعراض بالكلية عن طبيعتها، ولكن نجا من نجا من عباد الله الصالحين بأنهم جعلوا الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم، وأيقنوا أنها مزرعة للآخرة، فأنفقوا أعمارهم وأموالهم في كل ما يقربهم لله تعالى، وأما طالب الدنيا لا يخلو من الحزن في حالين: حزن على ما فاته كيف لم ينله، وحزن على ما ناله يخشى أن يسلبه، وإن أمن سلبه أيقن بتركه لغيره بعد موته، فهو مغموم ومحزون في جميع أحواله.

قال تعالى: {اعلموا أن الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} [الحديد: ٢٠]

ولقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد زمانهما، وكانا لهما من المال والملك والنساء ما لهما، وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال، وكان يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء (أي بني أمية).

وقيل لبعض العلماء: ما خير المكاسب؟ قال: خير مكاسب الدنيا طلب الحلال لزوال الحاجة، والأخذ منه للقوة على العبادة، وتقديم فضلة الزائد ليوم القيامة. وأما خير مكاسب الآخرة، فعلم معمول به نشرته، وعمل صالح قدمته، وسنه حسنة أحييتها.

ولقي معاوية بن قرة أحد إخوانه، وقد جاء من الكلاء، فقال له معاوية: ما صنعت؟ قال: اشتريت لأهلي كذا وكذا. قال: وأصبت من حلال؟ قال: نعم. قال: لأن أغدو فيما غدوت به أحب إلى من أن أقوم الليل وأصوم النهار.

وكان حسان بن أبي سنان يقول: لولا المساكين ما تجرت (٩)

أريد من الدنيا ثلاث وإنها	لغاية مطلوب لمن هو طالب
تلاوة قرآن ونفس عفيفة	واكتثار أعمال عليها أواظب

وإذا تأملت القرآن وجدت أن الله تعالى حين ذكر الدنيا قال: {فامشوا في مناكبها} وحين ذكر الذكر فيها قال: {فاسعوا إلى ذكر الله} وحين تكلم عن الجنة قال: {وسارعوا} {سابقوا} وحين تكلم عن العلي القدير قال: {ففروا إلى الله}.

روى أن سليمان بن عبد الملك تجمل يوم ولبت ثيابه واعتم بعمامة، وعنده جارية، فقال لها: كيف ترين الهيئة؟ فقالت أنت أجمل العرب لولا...! فطلب منها أن تكمل الجواب، وتصرح بما أضمرت فقالت:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقي غير أن لا بقاء للإنسان
أنت خالٍ من العيوب ومما يكره الناس غير أنك فان

وروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية، مشوهة الحلقة، لا يراها أحد إلا كرهها، فتشرف على الخلائق، فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقال لهم: هذه التي تفاخرتم وتخاربتم عليها. ثم يؤمر بها إلى النار. فتقول: يا رب، أين أتباعي وأصحابي وأحبابي؟ فيلحقونها.

ووجه إلقائها في النار لينظر إليها أهلها فيرون هوانها على الله عز وجل (١٠)

فحب الدنيا يورث الضغائن والعداوات، ويزرع الأحقاد، ويكمن الشر، ويمنع البر، ويسبب العقوق وقطيعة الرحم والظلم، وطالب الدنيا قصير العمر، كثير الفكر فيما يضر ولا ينفع، فأمر الدنيا أفقر من أن تتعاضد فيه النفوس، وأن تطاع فيه الضغائن والأحقاد.

يؤمل دنيا لتبقى له فمات المؤمل قبل الأمل

يربي فسيلا ليبقى له فعاش الفسيل ومات الرجل

قال رجل لداود الطائي: أوصني؟ فدمعت عيناه، وقال: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة، حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم كل يوم زاداً لما بين يديك فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لنفسك، واقض ما أنت قاض، فكأنك بالأمر قد نعتك، إني لا أقول لك هذا، وما أعلم أحداً أشد تقصيراً مني ثم قام وتركه (١١)

(قيل فمن على إثره؟ قال مؤمن في خلق حسن)

فالخلق الحسن صفه سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو شطر الدين، وثمره مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين، فتزكية النفوس ملاك دعوة الرسل بعد التوحيد. فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون: {هل لك أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى} [النازعات: ١٨ - ١٩]

فحسن الخلق يغطي غيره من القبائح، وسوء الخلق يغطي غيره من المحاسن، ومن حسن خلقه طابت عيشته ودامت سلامته في الغالب وتأكدت في النفوس محبته، ومن ساء خلقه تنكدت عيشته ودامت بغضته ونفرت النفوس منه.

قال تعالى: {ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك} [آل عمران: ١٥٩]
وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

- (أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن) (١٢)
- (إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة مجالس أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً، الثرثارون المتفيهقون المتشدقون) (١٣)
- (إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وإن حسن الخلق ليبليغ درجة الصوم والصلاة) (١٤)
- (عليك بحسن الخلق وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلاق بمثلهما)

(١٥)
- (من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار) (١٦)
ومن أحسن ما قيل في تفسير حسن الخلق أنه طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى وطيب الكلام وقلة الغضب واحتمال الأذى وقيل أيضاً هو التخلي عن الرذائل والتخلي بالفضائل.

صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله، فكلامك شفاء من كل داء، ومنهج للحيارى الذين يتلمسون طريق النجاة، إنه نور لا يخرج إلا من مشكاة النبوة.

وما زادني شرفاً وتيها
دخولي تحت قولك يا عبادي
وكدت بأخصمي أطو الثريا
وأن صيرت أحمد لي نبيا

الهوامش

رواه ابن ماجة (٤٢١٦) عن عبد الله بن عمرو بلفظ [قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي الناس أفضل قال كل مخموم القلب صدوق اللسان قالوا صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب قال هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد] وصححه البوصيري في الزوائد (٢٩٩/٣) ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/٢٩/١٧) وزاد من طريق القاسم بن موسى [قالوا فمن يليه يا رسول الله ؟ قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة قالوا ما نعرف هذا فينا إلا رافع مولى رسول الله قالوا فمن يليه قال مؤمن في خلق حسن] ورواه البيهقي بنفس الزيادة في شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٢٠٥ برقم (٤٨٠٠) عن عبد الله بن عمرو قال [قلنا يا نبي الله من خير الناس قال ذو القلب المحموم واللسان الصادق قال قلنا قد عرفنا اللسان الصادق فما القلب المحموم قال التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد قال قلنا يا رسول الله فمن على أثره قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة قلنا ما نعرف هذا فينا إلا رافع مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فمن على إثره قال مؤمن في خلق حسن قلنا أما هذه ففيها]، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول ج: ٢ ص: ١٦٨ وأبو نعيم في حلية الأولياء ج: ١ ص: ١٨٣ والطبراني في مسند الشاميين ج ٢ ص ٢١٧ برقم ١٢١٨ كلهم بنفس رواية وزيادة ابن عساكر والبيهقي، وأورده السيوطي في الجامع الصغير (صحيح الجامع ٣٢٩١) ومنه نقلنا هذا النص الذي نحن بصده وقال الألباني في الصحيحة بعد أن ساق إسناد ابن ماجة: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات (السلسلة الصحيحة ٩٤٨)

رواه مسلم في باب البر والصلة والآداب برقم ٤٦٥٠

رواه مسلم في باب المساقاة برقم ٢٩٩٦

سير أعلام النبلاء / الذهبي ج ٨ ص ١٢٢

رواية ابن ماجة وردت بلفظ (مخموم) ومعها أغلب روايات الحديث أنظر تاريخ ابن عساكر ومصباح الزجاجية للكناني ح ٤ ص ٢٣٩ ومسند الشاميين للطبراني والترغيب والترهيب برقم ٤٣٨٦ وحلية الأولياء ج ١ ص ١٨٣ وتاريخ واسط للواسطي ج ١ ص ٢٧٣ ونوادر الأصول وشرح الزرقاني ج ٣ ص ٤٦٤

ومما رواها بلفظ (محموم) البيهقي في شعب الإيمان ح ٤ ص ٢٠٥ برقم ٤٨٠٠ والذهبي في ميزان الاعتدال ج ٨ ص ١١٢ والسيوطي في الجامع الصغير والكبير وفي لسان العرب لابن منظور ج: ١٢ ص: ١٨٩

مادة خم: حَمَّ البَيْتَ والبَيْرَ يَحْمُهُمَا حَمًّا وَاخْتَمَّهُمَا: كَنَسَهُمَا، وَالْإِخْتِمَامُ مِثْلُهُ. وَالْمِخْمَةُ: الْمِكْنَسَةُ. وَخُمَامَةُ البَيْتِ والبَيْرِ: مَا كُسِحَ عَنْهُ مِنَ التَّرَابِ فَأَلْقِيَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ؛ عَنِ اللِّحْيَانِيِّ: وَالْخُمَامَةُ وَالْقُمَامَةُ: الْكُنَاسَةُ، وَمَا يُحْمُ مِنَ تَرَابِ البَيْرِ. وَخُمَامَةُ الْمَائِدَةِ: مَا يَنْتَثِرُ مِنَ الطَّعَامِ فَيُؤْكَلُ وَيُرْجَى عَلَيْهِ الثَّوَابُ. وَقَلْبَ مَخْمُومٍ أَي نَقِيٍّ مِنَ الغِلِّ والحسد. وَرَجُلٌ مَخْمُومٌ القَلْبِ: نَقِيٌّ مِنَ الغَشِّ وَالدَّغْلِ، وَقِيلَ: نَقِيُّهُ مِنَ الدَّنَسِ. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ سَيِّدِنَا رَسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: خَيْرُ النَّاسِ الْمَخْمُومُ القَلْبِ. قِيلَ: يَا رَسولُ اللهِ، وَمَا الْمَخْمُومُ القَلْبِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا غَشَّ فِيهِ وَلَا حَسَدَ، وَفِي رِوَايَةٍ: سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الصَّادِقُ اللِّسَانِ الْمَخْمُومُ القَلْبِ، وَفِي رِوَايَةٍ: ذُو القَلْبِ الْمَخْمُومِ وَاللِّسَانِ الصَّادِقِ، وَهُوَ مَنْ خَمَمْتُ البَيْتَ إِذَا كَنَسْتَهُ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ مَالِكٍ: وَعَلَى السَّاقِي خَمُّ العَيْنِ أَي كَنَسَهَا وَتَنظِيفُهَا.

رواه أحمد باقي مسند المكثرين برقم ١٢٢٣٦

البخاري كتاب الأدب برقم ٥٦٢٩، مسلم كتاب الآداب والبر والصلة برقم ٤٧١٩

إيقاظ أولي الهمم العالية / عبد العزيز السلطان / دار الإيمان _ ص ٥٦

المصدر السابق ص ٨٩

المصدر السابق ص ٩٣

صفة الصفوة / ابن الجوزي ج ٣ ص ٦٧

(صحيح) رواه ابن حبان عن أبي الدرداء حديث رقم: ١٣٤ في صحيح الجامع/ السيوطي،

الألباني

(صحيح) رواه أحمد والطبراني عن أبي ثعلبة الخشني. حديث رقم: ١٥٣٥ في صحيح

الجامع.

(صحيح) رواه البزار عن أنس انظر حديث رقم: ١٥٧٨ في صحيح الجامع.

(حسن) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس حديث رقم: ٤٠٤٨ في صحيح الجامع

(صحيح) رواه الحاكم عن أبي هريرة حديث رقم: ٦٤٨٤ في صحيح الجامع.

من آداب الإسلام

عن أبي الأحوص عن أبيه قال: قلت يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقربني ولا يضيفني فيمر بي أفأجزيه؟ قال: (لا، أقره)، قال: ورآني رث الثياب، فقال: (هل لك من مال؟) قلت: من كل المال قد أعطاني الله من الإبل والغنم، قال: (فليُر عليك) (١)

المسلم في دوحة الإسلام لا يجد نفسه إلا بين السماحة وشكر النعمة، وتلك ميزة لا تجدها في أي منهج أرضي، فما بالنا والإسلام منهج رباني تزيد صلته بالسماء قوة وديمومة جعلت العيش في رحابة رحلة مأمونة العواقب ومضمونة النتائج، بعكس أفكار البشر التي يمكن أن تأخذ من جهد وعمر الفرد الكثير ليكتشف بعد طول ممارسة مقدار زيفها وتهافتها فلا يسعه إلا أن يبدأ مشوارا جديدا مع فكر آخر لعله يصل إلى السعادة المنشودة وهيئات أن يدركها في غير طريق الله تعالى.

وقوله في هذا الحديث الجليل (فلا يقربني) تفسيره (ولا يضيفني) وقوله (أفأجزيه) أي أكافئه بترك القرى ومنع الطعام كما فعل بي أم أقره وأضيفه (قال: لا) أي لا تجزه وتكافئه (أقره) أي أضفه، وفي الحديث الحث على القرى الذي هو من مكارم الأخلاق، وفيه دفع السيئة بالحسنة والتي هي من أعظم أخلاق هذا الدين العظيم، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]

وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات، وينقلب الهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينه، والتبجح إلى حياء، على كلمة طيبة ونبرة هادئة وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام! ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجا وغضبا وتبجحا

ومرودا، وخلع حياته نهائيا، وأفلت زمامه وأخذته العزة بالإثم، غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد، وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها، حتى لا يصور الإحسان في نفس المسيء ضعفا، ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا، وهذه السماحة كذلك قاصرة على حالات الإساءة الشخصية لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها، فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها أو الصبر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا (٢)

وقال ابن أبي حاتم: الكريم لا يكون حقودا، ولا حسودا، ولا شامتا، ولا باغيا، ولا ساهيا، ولا لاهيا، ولا فاجرا، ولا فخورا، ولا كاذبا، ولا ملولا، ولا يقطع إلفه، ولا يؤدي إخوانه، ولا يضيع الحفاظ، ولا يجفو في الوداد، يعطي من لا يرجو، ويؤمن من لا يخاف، ويعفو عن قدرة، ويصل عن قطيعة (٣)

أما موقف المسلم تجاه نعم الله تعالى عليه فتكتفه العديد من الآداب والالتزامات، بداية من شكرها، ثم تسخيرها في مرضاته جل وعلا، فضلا عن التمتع بها في غير إسراف ولا مخيلة، فقال -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تعالى جميل، يحب الجمال، ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتبؤس) (٤)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إذا آتاك الله مالا فلير عليك، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا [أي بحسن الهيئة والتجمل] ولا يحب البؤس [أي الخضوع والذلة وورثاة الحال] ولا التبؤس) (٥) أي إظهار التمسك والشكاية لأن ذلك يؤدي لاحتقار الناس له وازدراؤهم إياه وشماتة أعدائه، فأما إظهار العجز فيما بينه وبين ربه بلا كراهة لقضائه ولا تضجر فمطلوب.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يجب أن يرى أثر نعمته على عبده) (٦) قيل المعنى: يرى مزيد الشكر لله تعالى بالعمل الصالح والثناء والذكر له بما هو أهله، والعطف والترحم والإنفاق من فضل ما عنده في القرب قال تعالى: { وأحسن كما أحسن الله إليك } [القصص:٧٧] والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه

أنفعهم لعياله، فيرى في أثر الجدة عليه زياً وإنفاقاً وشكراً، هذا في نعمة الله، أما في النعمة الدينية فبأن يرى على العبد نحو استعماله للعلم فيما أمر به، وتهذيب الأخلاق، ولين الجانب، والحلم على السفية، وتعليم الجاهل، ونشر العلم في أهله، ووضعه في محله بتواضع ولين جانب في أبهة واحتشام، وفي ولاة الأمور بالرفق بالرعية، وإقامة نواميس العدل فيهم، ومعاملتهم بالإنصاف وترك الاعتساف، إلى غير ذلك من سائر ما يجب عليهم، ويترد ذلك في كل نعمة مع أن نعمه تعالى لا تحصى (٧)

فإن قليل إن هذا ينافي ما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة كقوله -صلى الله عليه وسلم-: (البذاذة من الإيمان) (٨) أي رثاثة الهيئة وترك الترفه وإدامة التزين والتنعم في البدن والملبس، وحديث عائشة -رضي الله عنها- أنها أخرجت كساء وإزارا غليظا وقالت: «قبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذين» (٩) ونهى -صلى الله عليه وسلم- عن الترجل إلا غبا (١٠) أي يوماً بعد يوم

فالجواب: أن مقصود هذه الآثار الحث على التواضع وعدم الانغماس في زينة الدنيا والانشغال الزائد بها، ولذلك قال البغوي معلقاً على قوله -صلى الله عليه وسلم-: (فليتر علك) هذا في تحسين ثيابه بالتنظيف، والتجديد عند الإمكان من غير مبالغة في النعومة والترفه، ومظاهرة الملابس على الملابس، على ما هو عادة العجم والمترفين (١١).

أما حديث (البذاذة من الإيمان) فالمقصود أن البذاذة من أخلاق أهل الإيمان إن قصد به تواضعاً وزهداً وكفاً للنفس عن الفخر والتكبر وإيثار الحمول بين الناس، لا إن قصد إظهار الفقر وصيانة المال، وإلا فليس من الإيمان من عرّض النعمة للكفران، وأعرض عن شكر المنعم المنان، فالحسن والقبح في أشباه هذا بحسب قصد القائم بها فإنما الأعمال بالنيات ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم-: (من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها) (١٢)

وأما نهيهِ -صلى الله عليه وسلم- عن الترجل إلا غبا، فالمراد النهي عن المواظبة عليه والاهتمام به، لأنه مبالغة في التزيين وتهالك به، وينسجم هذا التأويل مع قوله -صلى الله عليه وسلم-: (من كان له شعر فليكرمه) (١٣)

وقد يقال إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال، ولكل مقام مقال، وقد كان جعفر الصادق -رضي الله عنه- يلبس الجبة على بدنه، ويلبس الثياب الفاخرة فوقها، فقال له بعض من اطلع على حاله في ذلك، فقال: نلبس الجبة لله والخز لكم فما كان لله أخفيناها، وما كان لكم أبديناها.

وقال الغزالي: اعلم أن الثوب الجيد ليس من ضرورته التكبر في حق كل أحد في كل حال، كما أن الثوب الدون قد لا يكون من التواضع، وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف يكون، وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء حتى في خلوته وحتى في ستور داره (١٤)

الهوامش

(١) رواه الترمذي - كتاب البر والصلة / باب ما جاء في الإحسان والعتق رقم ٢٠٠٦، قال أبو عيسى وهذا حديث حسن صحيح وأبو الأحوص اسمه عوف بن مالك بن نضلة الجشمي، وروى الجزء الأخير منه أبو داود - كتاب اللباس رقم ٣٥٤١، والنسائي - كتاب الزينة رقم ٥١٢٩، وأحمد في مسند المكيين رقم ١٥٣٢٣ والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٦٣٢، وصحيح النسائي رقم ٤٨١٩، وصححه الوادعي في الصحيح المسند رقم ١١١٠ وقال صحيح رجاله رجال الصحيح

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - سورة فصلت (٣) روضة العقلاء / أبي حاتم بن حبان - مكتبة السنة المحمدية بمصر ص ١٧٣ (٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد (صحيح) انظر حديث رقم: ١٧٤٢ في صحيح الجامع (٥) رواه البخاري في التاريخ الكبير والطبراني عن زهير بن أبي عقمة (حسن) انظر حديث رقم: ٢٥٥ في صحيح الجمع (٦) رواه الطبراني عن عمران بن حصين (صحيح) انظر حديث رقم: ١٧١٢ في صحيح الجامع (٧) فيض القدير للمناوي ٤٩٨/٢ (٨) رواه أحمد وابن ماجه عن أبي أمامة الحارثي (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٨٧٩ في صحيح الجامع (٩) متفق عليه (١٠) رواه أحمد عن عبد الله بن مغفل (صحيح) انظر حديث رقم:

٦٨٧٠ في صحيح الجامع (١١) أنظر تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي - كتاب البر والصلة /
باب ما جاء في الإحسان والعفو نقلا عن شرح السنة للبيهقي (١٢) رواه الترمذي عن معاذ بن أنس
(حسن) انظر حديث رقم: ٦١٤٥ في صحيح الجامع (١٣) رواه أبو داود عن أبي هريرة (صحيح)
انظر حديث رقم: ٦٤٩٣ في صحيح الجامع. (١٤) نقلا عن فيض القدير للمناوي ٤٥٦/١

لولا بنو إسرائيل

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَاءُ لَمْ تَخُنْ أَنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ)

وفي رواية مسلم: (لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْبُثِ الطَّعَامُ، وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَاءُ لَمْ تَخُنْ أَنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ)

هذا حديث صحيح، لا مطعن فيه؛ تلقاه أهل العلم بالقبول، وأوردوه في مصنفاتهم، من غير نكير بينهم.

قوله (لولا بنو إسرائيل) هم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل - عليهم الصلاة والسلام.

قال الملا علي القاري - رحمه الله -: " (لولا بنو إسرائيل) أي: في زمن موسى عليه الصلاة والسلام" .. أي: لولا عقوبة الله لهم، أو لولا معاصيهم.

(لم يخبث الطعام) أي: لم يتغير ريحه وطعمه.. قال العلماء: أن بني إسرائيل لما أنزل الله عليهم المن والسلوى هُؤوا عن ادخارهما، فادَّخَرُوا، ففسد وأنتن، واستمر من ذلك الوقت، والله أعلم.

كما قال في كتابه: { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة: ٥٧] فكان المنُّ يسقط عليهم في مجالسهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، كسقوط البلح، فيؤخذ منه بقدر ما يكفي ذلك اليوم، إلا يوم الجمعة فيأخذون منه للجمعة والسبت، فإن تعدوا إلى أكثر من ذلك فسد.

قال قتادة: كَانَ السَّلْوَى مِنْ طَيْرٍ إِلَى الحُمْرَةِ يَحْشُرُهَا عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الجُنُوبُ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَذْبَحُ مِنْهَا قَدْرَ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ، فَإِذَا تَعَدَّى، فَسَدَ وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ سَادِسِهِ، لِيَوْمِ جَمَعْتُهُ، أَخَذَ مَا يَكْفِيهِ لِيَوْمِ سَادِسِهِ وَيَوْمِ سَابِعِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَ عِبَادَةِ لَا يَشْخَصُ فِيهِ لِشَيْءٍ وَلَا يَطْلُبُهُ.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن وهب بن منبه قال: وجدت في بعض الكتب عن الله تعالى: لولا أني كتبت النتن على الميت لحبسه أهله في بيوتهم، ولولا أني كتبت الفساد على الطعام لحزنه الأغنياء عن الفقراء.

(ولم يخنز اللحم): يقال: خنز اللحم يخنز: إذا أنتن وتغير.

قال ابن الجوزي - رحمه الله -: المراد أن بني إسرائيل لما نهبوا أن يدخروا فخالفوا، ففسد اللحم، واطردت الحال فيه عند كل مدخر.

فلم يكن اللحم يخنز كالحب حتى منع بنو إسرائيل عن ادخاره فلم ينتهوا عنه، فأسرع الخنز إلى ما ادخروا؛ عقوبة لهم.

وهو الادخار الناشئ من عدم الثقة بالله، قال الله تعالى - جل شأنه -: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، ثم استمر النتن من ذلك الوقت؛ لأن البادئ للشئ كالحامل للغير على الإتيان به، أو لأن يعتبر غيرهم بهم؛ فيتركوا المخالفة، قال تعالى: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ} [الحشر: ٢]

فالحديث نص على أن فساد اللحم المعروف، قدره الله تعالى بسبب عصيان حصل من بني إسرائيل بأن أمروا ألا يدخروا، بل يأخذون من ذلك قدر حاجتهم؛ فعصوا وخالفوا، فقضى الله تعالى - منذ ذلك الحين - بسرعة الفساد إلى اللحم، على ما هو معروف بين الناس.

وقال الشيخ ابن جبرين - رحمه الله -: في هذه الأزمنة قرأت لبعضهم إنكاراً لبعض الأحاديث، كقوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لولا بني إسرائيل لم يخنز اللحم» أي: لم ينتن، يعني: أنهم لما أعطاهم الله تعالى السلوى صاروا يدخرون لغدٍ ولبعْدِ غدٍ، فصار اللحم ينتن،

نقول: وما المانع من ذلك؟ وإن كانت طبيعة اللحم أنه إذا تأخر يتغير، لكن قد يجعل الله له ما يكافحه، وما يزيل عنه ذلك النتن... والحاصل أننا لا نلتفت إلى هؤلاء الذين يطعنون في الأحاديث لمجرد عرضها على العقل.

قوله: (ولولا حواء لم تَخُنْ أنثى زوجها الدهر)

قال النووي -رحمه الله-: أي: لم تخنه أبداً، وحواء: بالمد، روينا عن ابن عباس قال: سُميت حواء؛ لأنها أم كل حيٍّ، قيل: إنها ولدت لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، في كل بطن ذكر وأنثى.

وفي الكلام مضاف محذوف، والتقدير: لولا خيانة حواء لآدم وقوله: (الدهر) أي: لم تخنه أبداً..

فالخيانة هنا: المقصود بها عدم الإخلاص في النصح، وليس الخيانة في الفراش، فهذه غير مقصودة من الحديث أصلاً، فالعقل يدل على استحالة وقوع هذا النوع من الخيانة من حواء؛ لأنها لم يكن معها من البشر إلا آدم عليه السلام.

وقد وردت روايات توضّح السبب الذي عوتبت عليه حواء، وهي عدم نصحتها لآدم عليه السلام حين دعت له للأكل من الشجرة وزيّنت له هذا الأمر.

فَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: "إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيُّ بَنِيَّ إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَذَهَبُوا يَطْلُبُونَ لَهُ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَمَعَهُمْ أَكْفَانُهُ وَحَنُوطُهُ، وَمَعَهُمُ الْفُؤُوسُ وَالْمَسَاحِي وَالْمَكَاتِلُ، فَقَالُوا لَهُمْ: يَا بَنِي آدَمَ، مَا تُرِيدُونَ وَمَا تَطْلُبُونَ، أَوْ مَا تُرِيدُونَ وَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟، قَالُوا: أَبُونَا مَرِيضٌ فَاشْتَهَى مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، قَالُوا لَهُمْ: ارْجِعُوا فَقَدْ قُضِيَ قَضَاءُ أَبِيكُمْ. فَجَاءُوا، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوَاءُ عَرَفَتْهُمْ، فَلَاذَتْ بِآدَمَ، فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنِّي إِنَّمَا أُوتِيتُ مِنْ قَبْلِكَ، حَلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى

[رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند، ورواه الحاكم في "المستدرک"، وصححه الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة"؛ حيث قال: "وجملة القول: أن الحديث عن أبي صحيح مرفوعاً وموقوفاً"] انتهى.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: "لَمَا أَكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَا حَمَلَكَ عَلَيَّ أَنْ عَصَيْتَنِي؟ قَالَ: رَبِّ زَيْنَتْ لِي حَوَاءُ. قَالَ: فَإِنِّي أَعَقَبْتُهَا أَنْ لَا تَحْمِلَ إِلَّا كَرْهًا وَلَا تَضَعْ إِلَّا كَرْهًا وَدَمِئْتُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّتَيْنِ. فَلَمَّا سَمِعَتْ حَوَاءُ ذَلِكَ رَنَّتْ [صاحت] فَقَالَ لَهَا: عَلَيْكَ الرِّئَةُ وَعَلَى بَنَاتِكَ" [رواه الحاكم في "المستدرک"، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ"، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"]

قال القاضي عياض -رحمه الله-: قوله: (لولا حواء لم تكن أنثى زوجها) يعني: أنها أمهنا فأشبهناها بالولادة ونزع العرق؛ لما جرى لها في قصة الشجرة مع إبليس، وأن إبليس إنما بدأ بحواء فأغواها وزين لها، حتى جعلها تأكل من الشجرة، ثم أتت آدم فقالت: له مثل ذلك حتى أكل أيضًا هو.

وقال ابن هبيرة -رحمه الله-: قيل: إن خيانتها لزوجها: أنها لما رأت آدم قد عزم على الأكل من الشجرة تركت نصحه في النهي له؛ لأن ذلك كان ترك النصح له خيانة؛ فعلى هذا كل من رأى أخاه المؤمن على سبيل ذلك، فترك نصحه بالنهي عن ذلك النهي فقد خان، ولا يخرج هذا من تسمية الخائنين.. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨]، اللهم إلا أن يسكت تقية، فذلك له حكم تعلق به.

فلما خان حواء زوجها أطردت الحال في بناتها.. أي لولا أن حواء خان آدم في إغرائه، وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة، وسنت هذه السنة؛ لما سلكتها أنثى مع زوجها، فإن البادئ بالشيء كالسبب الحامل لغيره على الإتيان به، والافتداء عليه.

وقال العراقي -رحمه الله-: ليس المراد خيانة في فراش، فإن ذلك لم يقع لامرأة نبي قط، حتى ولا امرأة نوح، ولا امرأة لوط الكافرتان، فإن خيانة الأولى إنما هو بإخبارها الناس أنه مجنون، وخيانة الثانية بدلالاتها على الضيف كما ذكره المفسرون.

وقال ابن حجر -رحمه الله-: ليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة

له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها، وقريب من هذا حديث: (جَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذَرِيَّتَهُ)

فحيث زَيَّنت لزوجها آدم -عليه السلام- الأكل من الشجرة، سرى في أولادها مثل ذلك، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو القول.

فأحسن ما يحمل عليه الحديث: أنَّ حواء -عليها السلام- قيل: إنها حسَّنت له الأكل من الشجرة حين وسوس لهما الشيطان، فاجتمع على آدم تغريب الشيطان وتسويله، وتحسين زوجته له، فوقع الأكل، ولكن تاب الله عليهما حين تابا وندما...، ومضمون ذلك: أنَّ الواجب على المرأة أن يكون زوجها عندها محترماً احتراماً حقيقياً، وتبني أمرها معه على الصدق والصراحة، وعدم الخيانة، ولكن وقعت حواء، فوقع بناهما.

وقال الأصبهاني -رحمه الله-: فيه: دليل أن الأمور صائرة إلى ما قضاه الله وقدره، واللوم لاحق بالمسيء.

وقال ابن حجر -رحمه الله-: في الحديث: إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمههن الكبرى، وأن ذلك من طبعهن، فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه، أو على سبيل الندور، وينبغي لهن ألا يتمكنَّ بهذا في الاسترسال في هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن، والله المستعان.

وقال الكشميري -رحمه الله-: فيه: دليل على أن من سنَّ سنَّة سيئة فإنها تتسلسل وتلزم، كقبايل؛ فإنه قتل أخاه، فظهر شؤمه في سبِّه السابع، فكانت الدنيا على صرافتها خالية عن المعاصي، فجاء شقيِّ وسنَّ معصية، ثم تسلسلت، وهكذا إلى أن امتلأت ظلماً وجوراً، وهذا معنى قوله: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها» أي: ظهرت معصية من أحد على وجه الأرض، ثم تسلسلت، وبقي أثرها.

وقال الشيخ محمد بن علي الإتيوبي -رحمه الله-: في فوائده على هذا الحديث:

منها: بيان ما جُبلت عليه النساء من خيانة أزواجهن.

ومنها: بيان ما جعل الله -عز وجل- في بني آدم من افتتان بعضهم ببعض، كما قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}** [الفرقان: ٢٠]

وقال ابن هبيرة -رحمه الله- في الحديث من الفقه: أن الله سبحانه إذا أدرّ رزقاً، وأنزل خيراً، فإنه ينبغي للمُدّرّ عليه أن يكون غير مرتاب بأن الله سبحانه لا يجوز عليه البخل، ولا يقطع ذلك الإمداد إلا لحكمة، فلا يدخر مما أنعم به عليه، كالمُنّ والسلوى الذي كان يأتي كل يوم إلى بني إسرائيل...، فإن ادخاره دليلٌ على ارتياب حُسن نيته مع ربه -عز وجل-... وعلى هذا فإن ما أنعم الله به مساقاةً كالحبوب والثمار، فإنه لم يأت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه ادخر من ذلك أكثر من قوت عام؛ من جهة أن درور ذلك في كل عام، وإنما فسد الطعام على بني إسرائيل؛ لأنهم ادخروا من ذلك أكثر من قوت.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-: قد وقع (أي: من قول: لولا) من ذلك مواضع كثيرة في الكتاب والسنة، وكلام السلف...، كقوله -صلى الله عليه وسلم-: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر، ولولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم»، فأما قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيح: (لا يقولن أحدكم: لو؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان) فمحمول على من يقول ذلك معتمداً على الأسباب، مُعرضاً عن المقدور، أو متضجراً منه، كما حكاه الله تعالى من قول المنافقين، حيث قالوا: **{لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}** [آل عمران: ١٦٨]، ثم رد الله قولهم، وبين لهم عجزهم، فقال: **{قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**، فالواجب عند وقوع المقدور التسليم لأمر الله، وترك الاعتراض على الله، والإعراض عن الالتفات إلى ما فات، فيجوز النطق بـ "لو" عند السلامة من تلك الآفات، والله تعالى أعلم

وقال النووي -رحمه الله-: (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن امرأة زوجها) فلا معارضة بين هذا وبين حديث النهي عن "لو" وقد قال الله تعالى: **{قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ}** [عمران: ١٥٤]؛ لأن الله تعالى

مخبر في كل ذلك عما مضى، أو يأتي عن علم، خبراً قطعياً، وكل ما يكون من "لو" و"لولا" مما يخبر به الإنسان عن علة امتناعه من فعله مما يكون فعله في قدرته فلا كراهة فيه؛ لأنه إخبارٌ حقيقة عن امتناع شيء لسبب شيء، وحصول شيء لامتناع شيء، وتأتي "لو" غالباً لبيان السبب الموجب أو النافي، فلا كراهة في كل ما كان من هذا، إلا أن يكون كاذباً في ذلك، كقول المنافقين: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ} [آل عمران: ١٦٧] والله أعلم

وهل ثبت أن الله سبحانه وتعالى عاقب حواء عليها السلام بسبب الأكل من الشجرة؟ فقد قيل "إنها لما أكلت من شجرة التين، قال الله تعالى (وعزتي لأدمينك في كل شهر مرة)، يقصد الحيض.

لكن لم يثبت عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شيء يدل على هذا، وثبت من قول ابن عباس رضي الله عنه، وهو من الإسرائيليات التي لا نصدقها ولا نكذبها.

فروى الطبري في "تفسيره"، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي، والخرائطي في "اعتلال القلوب"، وابن أبي الدنيا في "العقوبات" كلهم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "لَمَّا أَكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُحِيَ عَنْهَا، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ عَصَيْتَنِي؟) قَالَ: رَبِّ زَيْنَتْ لِي حَوَاءُ. قَالَ: (فَإِنِّي أَعَقَبْتُهَا أَنْ لَا تَحْمِلَ إِلَّا كَرْهًا، وَلَا تَضَعْ إِلَّا كَرْهًا، وَدَمِئْتُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّتَيْنِ) فَلَمَّا سَمِعَتْ حَوَاءُ ذَلِكَ رَنَّتْ، فَقَالَ لَهَا: (عَلَيْكَ الرَّثَةُ وَعَلَى بَنَاتِكَ).

وهذا الأثر صححه الحاكم في المستدرک. وقال الحافظ في "المطالب العالیة" هذا موقفٌ صحیح الإسناد.

وقال في «فتح الباري»: روى الحاكم وابن المنذر - بإسنادٍ صحیح -، عن ابن عباس: أن ابتداء الحيض كان على حواء بعد أن أهبطت من الجنة.

وهذا القول الثابت عن ابن عباس، مما يغلب على الظن أنه أخذه واستفاده من أهل الكتاب، ولذا فلا يظهر أن يكون حجةً، مع ذلك الاحتمال الظاهر، أو غلبة الظن به؛ وليس هو بقول المعصوم، -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

ولعله مما يقوي احتمال تلقي ابن عباس له عن أهل الكتاب، أنا نجد قريبا من معناه في التوراة، كما في سفر التكوين، ورواية ابن عباس لهذا الأثر لا يلزم منها قبوله وتصديقه، فهو -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يرويه بناء على الإذن النبوي في قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ) [البخاري] وقوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ) [البخاري]

والذي جاء في شرعنا أن الله تاب على آدم وحواء، وغفر لهم هذه الخطيئة: {قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]

قال السعدي رحمه الله: "أي: قد فعلنا الذنب، الذي نهيتنا عنه، وأضرنا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا، فغفر الله لهما ذلك" [تفسير السعدي]

وأما الحيض، فشيء كتبه الله على بنات آدم عليه السلام، كما قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ) [البخاري، ومسلم]

وهو يفيد بظاهره: أنه مما قدر الله بحكمته وعلمه، وليس هو من جنس العقوبات، كتلك التي كتبتها على بني إسرائيل من الإصر والتشديد عقوبة لهم على بغيهم وظلمهم.

قال ابن بطال: "هذا الحديث يدلُّ على أنَّ الحيض مكتوب على بنات آدم فمن بعدهنَّ من البنات، كما قال، وهو من أصل خلقتهنَّ الذي فيه صلاحهنَّ" انتهى

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ

فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيَّصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمُرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيءَ آدَمَ فَخَطِيءَتْ ذُرِّيَّتُهُ) «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

قوله (لما خلق الله آدم) انتهى من خَلْقَتِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ (مسح ظهره) ظَهَرَ آدَمَ (فسقط) خَرَجَ (من ظهره) وفي نسخة صحيحة (عن ظهره) ومن بيانية. وفي هذا الحديث دليل بين على أن إخراج الذرية كان حقيقيا (كل نسمة) هي كلُّ ذِي رُوحٍ وَنَفْسٍ، وَهَمَّ ذُرِّيَّتُهُ آدَمَ، وَقِيلَ: كل ذِي نَفْسٍ مَأخُوذَةٌ مِنَ النِّسِيمِ (هو خالقها من ذريته) صفة نسمة ذكرها لِيَتَعَلَّقَ بِهَا قَوْلُهُ (إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان) في موضع جَبْهَتِهِ، وَفِيهِ إِذْئَاتُ أَنَّ الذَّرِيَّةَ كَانَتْ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى مِقْدَارِ الذَّرِّ (وببصا) بَرِيْقًا وَمَلْعَانًا (من نور) إِشَارَةً إِلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ (ثم عرضهم على آدم، فقال أي رب، من هؤلاء؟ قال) سبحانه وتعالى: هُم (ذريتك) نَسَلُكَ الَّذِينَ سَيَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكَ (فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، قال) بغير الفاء (أي رب! من هذا؟ فقال: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ) إِشَارَةً إِلَى كَثْرَةِ الْأُمَمِ (يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ) وَتَخْصِيصِ التَّعْجَبِ مِنْ وَبِيصِ دَاوُدَ إِظْهَارَ لِكِرَامَتِهِ، وَمَدْحَ لَهُ، فَلَا يَلْزَمُ تَفْضِيلُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّ الْمَفْضُولَ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَزِيَّةٌ، بَلْ مَزَايَا لَيْسَتْ فِي الْفَاضِلِ، وَلَعَلَّ وَجْهَ الْمَلَاءَمَةِ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكُ نِسْبَةِ الْخِلَافَةِ (فقال: رب) وفي نسخة صحيحة: أَيُّ رَبِّ (كم جعلت عُمُرَهُ؟) كم سنة جعلت عمره (قال: ستين سنة. قال: رب زده من عمري) من جملة الألف (أربعين سنة)

قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (فلما انقضى عمر آدم) انتهى وجاء أجله، بعد نَقْصِ مَا وَهَبَهُ لِدَاوُدَ (إلا أربعين) سنة (جاءه ملك الموت) لِيَقْبِضَ رُوحَهُ (فقال آدم:

أولم يبقَ، من عمري أربعون سنة؟! استفهام إنكاري (قال: أولم تعطها) أتقول ذلك، ولم تعطها أي: الأربعين (ابنك داود؟! فجد آدم) أنكّر آدم، وفيه: إشارة إلى أنّ آدم عليه السّلام لم يتذكّر سريعاً ما نسيه، بل ربّما ظهر منه ما يُنكر ما يُذكره به الملّك، ذلك لأنّه كان في عالم الذر فلم يستحضره حالة مجيء ملك الموت له (فجحدت ذريته) فأنكرت مثله ذريته من بعده، لأنّ الولد سر أو تابع أبيه (ونسي آدم) إشارة إلى أنّ الجحد كان نسيانا أيضا إذ لا يجوز جحده عنادا (وأكل من الشجرة) قيل: نسي أن النهي عن جنس الشجرة، أو الشجرة بعينها فأكل من غير المعينة، وكان النهي عن الجنس، والله أعلم (فنسيت ذريته) بمثل ما نسي آدم عليه السّلام، ولذا قيل: أول الناس أول الناسي (وخطأ) في اجتهاد من جهة التعيين، والتخصيص، أو عصى ربّه لَمَّا نَهَاه عن الأكلِ مِنَ الشَّجَرَةِ (وخطأت ذريته) والأظهر أن خطأ بمعنى عصى؛ لقوله تعالى {وعصى آدم ربه} ولقوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (كلكم خطاءون، وخير الخطائين التوابون).

قال الطيبي: وفي الحديث إشارة إلى ما نقله الشيخان: يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان: الحرص على المال، والحرص على العمر، وابن آدم وارد على سبيل الاستطراد، وابن آدم مجبول من أصل خلقته على الجحد والنسيان، والخطأ إلا من عصمه الله.

لعل ذلك يسوءك

روى البخاري عن سعد بن عبيدة، قال: "جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان، فذكر عن محاسن عمله، قال: لعل ذلك يسوءك؟ قال: نعم، قال: فأرغم الله بأنفك، ثم سأله عن علي فذكر محاسن عمله، قال: هو ذلك بينته، أو سبط بيوت النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: لعل ذلك يسوءك؟ قال: أجل، قال: فأرغم الله بأنفك انطلق فاجهد علي جهدك"

قوله: (جاء رجل إلى ابن عمر) هو نافع بن الأزرق، وهو رأس الأزارقة وهي فرقة من

الخواارج

والخواارج أول من كفر أهل القبلة بالذنوب، واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك، فكانوا كما نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان) وكفروا علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ومن والأهمل، وقتلوا علي بن أبي طالب مستحلين لقتله، قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي منهم، وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين في العبادة لكن كانوا جهلاً فارقوا السنة والجماعة؛

فقال هؤلاء الخوارج: ما الناس إلا مؤمن أو كافر؛ والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات؛ فمن لم يكن كذلك فهو كافر؛ مخلد في النار. ثم جعلوا كل من خالف قوتهم كذلك، فقالوا: إن عثمان وعلياً ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا فصاروا كفاراً.

ومذهب هؤلاء باطلٌ بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة.. فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله، ولو كان كافراً مرتدّاً لوجب قتله؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من بدل دينه فاقتلوه).

وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُجْلَدَ الرَّابِيُّ وَالرَّائِيَةُ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَوْ كَانَا كَافِرَيْنِ لِأَمْرِ بِقَتْلِهِمَا،
وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يُجْلَدَ قَازِفُ الْمُحْصَنَةِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَوْ كَانَ كَافِرًا لِأَمْرِ بِقَتْلِهِ
وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُجْلَدُ شَارِبَ الْحُمْرِ وَلَمْ يَقْتُلْهُ، بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَشْرَبُ الْحُمْرَ وَكَانَ اسْمُهُ عَبْدَ
اللَّهِ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ كُلَّمَا أُتِيَ بِهِ إِلَيْهِ جَلَدَهُ، فَأُتِيَ بِهِ
إِلَيْهِ مَرَّةً فَلَعَنَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ)
فَنَهَى عَنْ لَعْنِهِ بَعِيْنِهِ، وَشَهِدَ لَهُ بِحُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ لَعَنَ شَارِبَ الْحُمْرِ عُمُومًا.
وقد أورد نافع بن الأزرق الخارجي المشهور على ابن عباس - رضي الله عنهما - كثيرا
من الآيات المتشابهات التي ظاهرها التعارض، وأجاب عنها - رضي الله عنهما - في آيات
متعددة ذكرها السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن».

ولما أتى برووس الأزارقة من البصرة، نصبت على درج مسجد دمشق، فجاء أبو أمامة
- رضي الله عنه - فلما رآهم دمعت عيناه، فقال: (كلاب النار) ثلاث مرات (هؤلاء شر
قتلى قتلوا تحت أديم السماء، وخير قتلى قتلوا تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء) قيل:
فما شأنك دمعت عيناك؟! قال رحمة لهم، إنهم كانوا من أهل الإسلام

(فَسَأَلَهُ عَنْ عُثْمَانَ، فَذَكَرَ عَنْ مُحَاسِنِ عَمَلِهِ) وكأنه ذكر للرجل إنفاق عثمان في جيش
العسرة، وتسبيله بئر رومة.. وغير ذلك من محاسنه - رضي الله عنه - (لعل ذاك يسوءك؟)
أي لعل ما ذكرت من محاسنه لا يطيب لك ويصعب عليك (قال: نعم) يسوءني (فأرغم الله
بأنفك) الباء فيه زائدة، يقال أرغم الله أنفه أي ألصقه بالرغام [التراب] أي أذله وأهانته،
فكأنه يقول «أسقطك الله على الأرض فيلصق وجهك بالرغام» (ثم سأله عن علي) رضي
الله تعالى عنه، فذكر ابن عمر محاسن عمله من شهوده بدرا وفتح خيبر على يديه وقتله
مرحبا اليهودي وغير ذلك (قال: هُوَ ذَاكَ بَيْتُهُ، أَوْسَطُ بُيُوتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)
يشير بذلك إلى أن لعلي منزلة عند النبي من حيث أن بيته أوسط بيوت النبي، وقيل أحسنها
بناء (ثم قال: انطلق) أي اذهب من عندي (فاجهد علي جهدك) أي ابلغ غايتك في هذا

الأمر، واعمل في حقي ما تستطيع وتقدر، فإنني قلت حقا، وقائل الحق لا يبالي بما يقال في حقه من الأباطيل.

وفي رواية عطاء بن السائب عن سعد بن عبيد: فقال الرجل «فإنني أبغضه» قال ابن عمر: «أبغضك الله»

** السائل على ضربين سائل يسأل ليتعلم ويفصل القول في أمر اختلط عليه أو غاب عنه، وسائل يسأل إحراجا للمسؤول أو حملا له على توجه معين أو محاولة للظفر منه بتأييد وموافقة بغیضة في نيته وتوجهه، وكلاهما يعرف من أول وهلة وجلسة ونظرة وأسلوب.

** المسؤول اللبيب هو هذا الذي يفهم ما وراء السؤال والسائل، ويعرف أرضه ويفهم مقصده وغايته، وهذا يحصل بطول الاختلاط ومعرفة العباد مع فراسة صادقة يبلغها من عند الله بخشيته وخوفه، وعبادته وورعه

** قد يحمل لين المقتي وطيبة قلبه ودماثة أخلاقه بعض المغرضين وأصحاب النوايا السيئة من استضعافه أو الظفر منه بطعن أو تجريح فيطير بكلمته ويؤول جملة لأبعد ما يكون التأويل والتشهير

** هناك من يكره العظماء والكبار والربانيين حقدا وحسدا (أعداء النجاح) فبدلا من السير على ضربهم وتلمس آثارهم وتمني أن يكون مثلهم إذا به يختار طريق الهدم للرموز ومحاولة التسفيه وتحطيم السيرة والمسيرة، فلا هو ظفر بما أراد فكسب دنياه، ولا عقل واقتدى فظفر بآخرته ودنياه

** من غرابة هذا الكاره للرمز أن خصومته ليست مع شخص بعينه إنما لمسيرة بعينها ومورد واحد، فلا هو ذكي في عداوته ولا هو منصف في خصومته.

** احذر الاسترسال في النقيصة أو السكوت عند النيل من الرمز فهذا يكفي صاحب السوء منك ويعتبره موافقة وتأييدا لفكرته ورأيه

وقد قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: "حَمْسٌ إِذَا أَخْطَأَ الْقَاضِي مِنْهُنَّ خَصْلَةً، كَانَتْ فِيهِ
وَصْمَةٌ: أَنْ يَكُونَ فَهَمًّا، حَلِيمًا، عَفِيفًا، صَلِيْبًا، عَالِمًا، سَأُولًا عَنِ الْعِلْمِ"

من شرب الخمر غضب الله عليه

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
(من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه،
فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه،
فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه،
فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب لم يتب الله عليه،
وغضب الله عليه وسقاه من نهر الخبال) قيل: يا أبا عبد الرحمن! وما نهر
الخبال؟ قال: نهر يجري من صديد أهل النار. (١)

المعروف أن تناول الخمر اصطبغ بمفاهيم متناقضة عبر العصور والبيئات الثقافية، فلقد
رسخ في وجدان بعض الناس أن الخمر تجعل المتعاطي أكثر فحولة وشجاعة في الحياة حتى
أن الفرنسيين يقولون مثلا شعبيا: «الخمر للرجال، والماء للضفادع»، وقد يقبل المتعاطي
على الخمر لدفع الفشل في الحب أو في الزواج، وهو يفعل ذلك بدعوى النسيان، والبعض
يقصد من التعاطي أن يزكي الرغبة الجنسية، وأن تكون له قدرة جنسية أكبر.

وتحاط الخمر بهالة فلكلورية لها تأثيرها الخاص في جذب المتعاطين، ولشخصية
المتعاطي دور في تحديد هذا التأثير واستجلابه، كما تعمل بعض وسائل الإعلام المختلفة
وخاصة السينما على نشر التعاطي، فتجعل المتعاطي يبدو في صورة زاهية وكأنه بطل، بما
تضفي عليه من التحدي والتمرد والتحرر، وترتبط هذه الصورة في ذهن الشباب بالمتعة
الجنسية وكسر التقاليد والقيود.

والخمر برغم أن الكثيرين لا يضعونها في مستوى خطورة عقاقير مثل الهيروين، إلا أنها
مثل بقية العقاقير التي يعتاد عليها الجسم وقد يدمنها، وهي من أكثر العقاقير من حيث

سوء الاستخدام، وما يجعلها أكثر خطورة من المخدرات أنها مباحة في العالم كله تقريبا ويقدمها الناس في المناسبات وفي الزيارات إظهارا للتودد والكرم، وقد يضطر البعض إلى تناولها تجاوبا مع لطف أصحابها، ومع استمرار تناول الأناخب في الاحتفالات تزيد الجرعات وتكون لها تأثيرات غاية في الضرر جسديا ونفسيا واجتماعيا، وكثيرا ما يرجع سبب العنة عند الرجال في منتصف العمر إلى إدمان الخمر، وقد تبين من البحوث أن المدمنين يعانون غالبا من تدني عدد الحيوانات المنوية في المني إلى أدنى حد، وتذكر التقارير أن ٨٪ من المدمنين يعانون العنة، وفي حالة علاجهم من الإدمان استمرت العنة مع نصف هذا العدد نتيجة التلف الذي استحدثته الخمر.

ورغم أن للعنة أسبابها النفسية والفسولوجية، إلا أن للتعاطي تأثيره ومردوده البدني والنفسي أيضا. فقد تبين أن الإفراط في التعاطي يؤثر في أيض هرمون التستوستيرون ويخفضه في الدم، وتكون له تأثيرات على البنية ومظهر الذكورة والسلوك، وقد يكون المتعاطي أجبن من أن يخاطب امرأة بعينها فيستطيع ذلك بعد أن يحتسي بضعة كؤوس من الخمر.

وربما يكون المتعاطي شاذا ويستشعر ميولا عاطفية لا يصرح بها فيجهر بها مع الخمر. فالخمر ترفع الكلفة وتخفف السيطرة على السلوك والتصرفات ويكون المرء مستهترا مع نفسه. وهي تغيب العقل أو تستره وكأنها تسدل عليه خمارا، ومن ثم فقد تختلط الأمور على المتعاطي، ويفقد القدرة على التمييز وتسفر الغريزة الجنسية.

ويصف شكسبير وصفا رائعا تأثير الخمر على المتعاطي على لسان (ماكدوف) في مسرحية «ماكبث»، حيث يسأل محدثه ما هي المسائل الثلاث التي تستحدثها الخمر؟ فيقول: إنها لا تجعلك تميز، وتبعث على النوم، وتدر البول، ثم يردف قائلا: "إنها يا سيدي تستحث الرغبة ولكنها تفقدك القدرة على القيام بما تقتضيه هذه الرغبة "

وبالرغم من أن المدمن على الكحول غالباً ما يستحوذ عليه شعور بالنشاط والحيوية، فإن الكحول يكون عادة محبطا للعزيمة ومكدرًا لصفاء النفس مع إحداث تأثيرات تخديرية على الجهاز العصبي، والشعور بالقوة والنشاط يحدث عادة نتيجة لتحرر مراكز الأعصاب

السفلى من سيطرة المراكز العصبية العليا الموجودة في المخ. وهذا يطلق العنان لحيوانية الإنسان ويجرره من قيود الخجل والأخلاق ويصبح في حالة اللامبالاة مع زيادة الشعور بالعظمة والثقة بالنفس وبالمقدرة المزيفة على تحمل المخاطر.

ومع ازدياد معدل الكحول في الدم يبدأ تأثيرها الكئيب بالانتشار في مراكز المخ التي تسيطر على التوازن الجسماني وتسبب اختلال التوازن في الكلام وعدم السيطرة على الأطراف لكن مثل هذا التأثير يختلف من شخص إلى آخر تبعاً لعوامل مختلفة كالحالة الصحية ووزن الجسم وكمية الغذاء في المعدة وسرعة تناولها وقوتها ونوعها، أيضاً يحدث انخيار الحالة الأخلاقية لدى الشخص المدمن والتي تجلب معها آثاراً اجتماعية خطيرة منها الاعتداءات الجنسية والسلوك العدواني وحوادث المرور التي غالباً ما تؤدي إلى قتل البشر وزيادة حالات الانتحار والجرائم وما شابه ذلك.

وهناك فكرة خاطئة بين عامة الناس أن الخمر يزيد من قوة الشخص وقدرته وقهبه الشجاعة والجرأة فإذا به يعمل من الأعمال ما لا يستطيع أن يعملها بدونه. والحقيقة أنه يعمل ذلك وهو فاقد لشعوره وما تلك القدرة إلا وهم. وهذه القوة والشجاعة إنما هي العقل الذاهب والرأس الدائر.. وهي في الحقيقة أقل من طاقته الحقيقية الواعية.

هذا قليل من كثير حول مضار أم الخبائث، ولذلك فليس مستغرباً ولا مستهجننا هذه الحملة الضروس التي شنها الإسلام الطاهر على الخمر مكنم الرجس، وأساس كل شر.

قال المباركفوري معلقاً على هذا الحديث الجليل: والمعنى لم يكن له ثواب وإن برئ الذمة وسقط القضاء بأداء أركانه مع شرائطه كذا قالوا.

وقال النووي: إن لكل طاعة اعتبارين: (أحدهما) سقوط القضاء عن المؤدي، (وثانيهما) ترتيب حصول الثواب، فعبر عن عدم ترتيب الثواب بعدم قبول الصلاة انتهى. وخص الصلاة بالذكر لأنها سبب حرمتها أو لأنها أم الخبائث على ما رواه الدارقطني عن ابن عمر، كما أن الصلاة أم العبادات، كما قال الله تعالى ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء

والمنكر { [العنكبوت: ٤٥] ، وقيل إنما خص الصلاة بالذكر لأنها أفضل عبادات البدن، فإذا لم يقبل منها فالأن لا يقبل منها عبادة أصلاً كان أولى.
ويتبادر إلى الفهم من قوله أربعين صباحاً أن المراد صلاة الصبح وهي أفضل الصلوات، ويحتمل أن يراد به اليوم أي صلاة أربعين يوماً (٢)

الهوامش

(١) الحديث رواه الترمذي - كتاب الأشربة - باب ما جاء في شارب الخمر رقم ١٨٦٢ وقال هذا حديث حسن، والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٥١٧ وصحيح الجامع رقم ٦٣١٢ (٢) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي - المباركفوري ج ٥ ص ٥٠٩ ط دار الفكر بيروت

من خشى الله أتى منه كل خير

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
(من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة) [١]

ما أجمل أن ترزق الخوف من الله، وما أحلى أن تكون وقفا عند أوامره؛ وما أروع أن تتيقن أنك موعود بالفلاح والنجاح إن اتقيته.. إن مسألة الخوف من الله عز وجل ومراقبته من لوازم الأمور في كل وقت، وفي وقتنا هذا بالأخص الذي أصبح يعج بأنواع المغريات والفتن التي تتعارض مع أوامر الله تعالى ونواهيه.

والخوف هو ألم يلزم القلب المقبل على الله بسبب توقع المكروه في المستقبل. والفرق بين الخوف من الله والخوف من غيره يقول أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه. وأخبر الحق جل شأنه عن حال أهل الجنة وهم يذكرون حالهم في الدنيا: {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم} [الطور: ٢٥-٢٧].

وفي الحديث القدسي: (قال الله تعالى: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإن أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة) [٢]
وعلى قدر العلم بالله سبحانه وتعالى ومعرفة العبد بنفسه يكون الخوف والخشية، فكلما قوي إيمان العبد وزادت معرفته بربه زاد خوفه منه وخشيته، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «فو الله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية» [٣]

إن الخوف من الله سبحانه وتعالى يبعث على نيل الطاعات وترك المنهيات ولا خير فيمن لا يخاف الله سبحانه، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز

وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [٤]

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «لا يلج النار من بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم أبدا» [٥] ومن أعظم ثمرات الخوف أنه يجمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي التي كانت محببة إلى النفس مكروهة، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحسد والحقد ويصير مستوعباً لهم خوفاً من ربه عز وجل وينظر في خطر عاقبته.

قال الله تعالى: {قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين} [الأنعام: ١٥-١٦]

والمأمل في أقوال السلف يجد العجب العجيب على صلاحهم وطاعتهم وجهادهم. فهذا عمر -رضي الله عنه- كان في وجهه خيطان أسودان من الدموع، وكان يأخذ تبنة من الأرض ويقول: (يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أكل شيئاً مذكوراً).

وهذا أبو عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه- يقول: (وددت أني شاة فيذبجني أهلي فيأكلون لحمي ويحتسون مرقتي).

وهذا عبد الله بن المبارك يقول: (لو أن رجلاً وقف على باب المسجد ونادى ليخرج شر الناس لما سبقني إليه إلا رجل أوتي أكثر مني قوة أو سمعاً).

وعن مالك بن دينار قال: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: يا رب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها، يا رب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار.. وتبكي، فما زال مقامها حتى طلع الفجر.. قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخاً أقول: ثكلت مالكا أمه.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

وقال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة.

وقال ذو النون: من خاف الله ذاب قلبه، واشتد حبه، وصح له لبه.

يقول الغزالي رحمه الله: والحمد لله من الخوف هو الاعتدال والوسط، فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر على البال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفويض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع، وأما الخوف المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم لأنه يمنع من العمل، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل، ولذلك قيل أن الخوف هو سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى [٦]

قال المناوي: (من خاف أدلج) سار من أول الليل (ومن أدلج بلغ المنزل) يعني من خشى الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر، وقال في الرياض: المراد التشمير في الطاعة. وقيل: معناه من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالعمل الصالح وخوف القواطع والعوائق. والأظهر أنه ضرب مثلاً لكل من خاف الردى أو فوت ما يتمنى أن يصل إلى السير بالسرى ولا يركن إلى الراحة والهوى حتى يبلغ المنى.

(ألا إن سلعة الله غالية) أي ربيعة القدر (ألا إن سلعة الله الجنة) قال الطيبي: هذا مثل ضربه لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه، والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانه، فإن تيقظ في سيره وأخلص في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق. وثمن هذه السلعة العمل الصالح المشار إليه بقوله: {والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً} [الكهف: ٤٦]، وقال العلائي: أخبر أن الخوف من الله هو المقتضي للسير إليه بالعمل الصالح والمشار إليه بالإدلاج، وعبر ببلوغ المنزلة عن النجاة المترتبة على العمل الصالح وأصل ذلك كله الخوف [٧]

الهوامش

- [١] رواه الترمذي في الزهد والحاكم في الرقاق (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٢٢٢ في صحيح الجامع. [٢] رواه ابن حبان مرسلا [٣] صحيح الجامع ٥٥٧٣ [٤] رواه البخاري ومسلم [٥] صحيح مشكاة المصابيح ٣٧٥١ [٦] إحياء علوم الدين باب الخوف بتصريف [٧] فيض القدير للمناوي ١٢٥/٢ بتصريف

من جوامع الدعاء النبوي

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ حُصَيْنٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، كَانَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ خَيْرًا لِقَوْمِهِ مِنْكَ، كَانَ يُطْعِمُهُمُ الْكَبِدَ، وَالسِّنَّامَ، وَأَنْتَ تَنْحَرُهُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ إِنَّ حُصَيْنًا، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَاذَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَقُولَ؟ فَقَالَ: تَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَعْزِمَ لِي عَلَى رُشْدِ أَمْرِي"، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ حُصَيْنًا أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ سَأَلْتُكَ الْمَرَّةَ الْأُولَى، وَإِنِّي الْآنَ أَقُولُ فَمَاذَا تَأْمُرُنِي أَقُولُ؟ قَالَ: "قُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَخْطَأْتُ وَمَا عَمَدْتُ، وَمَا جَهَلْتُ وَمَا عَلِمْتُ". (١)

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي)

قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي} [يوسف: ٥٣] ومكايد الشيطان تتفق مع حظوظ النفوس وطبائعها، كما أشار إلى ذلك ابن الجوزي بقوله: "فتن الشيطان ومكايد كثيرة.. ولكثرة فتنه وتشبهها بالقلوب عزت السلامة، فإن من يدع إلى ما يحث عليه الطبع كمداد سفينة منحدره فيا سرعة انحدارها".

وقمة ذرى إيمان الموحدين حين ينسبون التقصير إلى نفوسهم إقراراً منهم بضعف الإنسان، وشدة افتقاره إلى مولاه وخالقه في إصلاح شؤونه واستقامة أموره، وأنه لا غنى له عن ربه وسيده؛ لذا يجار كل واحد منهم إلى ربه: (اللَّهُمَّ أَهْمِنِي رُشْدِي، وَأَعِدِنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي). (يا حيُّ يا قيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ) [رواه النسائي: ١٠٤٠٥].

وورد في حديث آخر: (فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر، وتباعدي من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك) [رواه أحمد].

وورد في حديث آخر: (وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك) [رواه أحمد].

(وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَعَزِّمَ لِي عَلَى رُشْدِ أَمْرِي)

العزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر؛ فإن أصل العزم: هو الجد والصبر، قال الله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥]، والرشد ضد الغي، وهو الطاعة والصلاح والصواب. وفي رواية: (وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَعَزِّمَ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي).

سأل العزيمة على الرشد؛ لأنها مبدأ الخير؛ فإن الإنسان قد يعلم الرشد، وليس له عزم؛ فإذا عزم على فعله أفلح، والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر الذي يستلزم القصد الجازم المتصل بالفعل، وقيل: استجماع قوى الإرادة على الفعل، ولا قدرة للعبد على ذلك إلا بالله تبارك وتعالى؛ فلهذا سأل الله تعالى أن يمضي قلبه وقصده إلى أحسن الصلاح، والطاعة له تعالى في كل أحواله وأموره؛ لأنه طريق النجاة في الدار الآخرة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله تعالى، والتوكل عليه في تحصيل العزم، وفي العمل بمقتضى العزم، بعد حصول العزم، قال الله تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٣]، والعزم نوعان:

عزم في الدخول إلى الهدى والرشاد.

وعزم على الدوام والثبات على هذا الهدى، بعد الدخول فيه، والانتقال من حال إلى حال أكمل منها؛ ولهذا سمي الله تعالى خواص الرسل «أولي العزم».

فإن عون الله تعالى للعبد على قدر قوة عزمته وضعفها، فمن صمم على إرادة الخير أعانه ربه تعالى، وثبته عليه [فيض القدير، ومجموعة رسائل ابن رجب]

وفي رواية (اللهم إني أستهديك لأرشد أمري) السين: سين الطلب، أي أطلب الهداية. ففيه سؤال الله تعالى طلب الهداية. والهداية نوعان:

هداية دلالة وإرشاد، قال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣] أي دللناه طريق الحق، وطريق الباطل، وهذه الهداية هي التي دعا إليها الرسل، وأولو العلم، والصالحون في كل زمان ومكان.

هداية توفيق: وهي لا يقدر عليها إلا الله تعالى {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦].

والعبد يسأل الله تعالى الهدايتين: أن يدلّه على طريق الخير، وأن يوفقه ويثبتّه عليه، وقوله: (لأرشد أمري): أي أن توفقني إلى أفضل السبل الموصلة إلى صلاح أموري، وشؤوني، في ديني، ودنياي، فأفوز برضاك، وأنال جنتك.

رَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (قُلِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَادْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتِكَ الطَّرِيقَ، وَبِالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ).

قال الرازي: "والذي جربته من أول عمري إلى آخره؛ أن الإنسان كلما عوّل في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية، وإذا عوّل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه؛ فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين؛ فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه.. ومن كان له ذوق في مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه"

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ)

وهذا مطلب الأكابر، ومطمح السادة الذين لهم في الإيمان القدم الراسخ، ومن محبة الرحمن الحظ الوافر.. في غزوة تبوك جهز عثمان بن عفان -رضي الله عنه- جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً، وأتم الألف بخمسين فرساً، وألقى في حجر النبي -صلى الله عليه وسلم- ألف دينار، وجاء بسبعمائة أوقية ذهب صبها بين يدي رسول الله حتى جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يقلب يديه ظهرًا لبطن ويدعو له ويقول: (غفر الله لك يا عثمان ما

أسررت وما أعلنت، وما أخفيت، وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ما يبالي عثمان ما عمل بعد هذا). [كنز العمال ٣٦١٨٩]

(وَمَا أَخْطَأْتُ وَمَا عَمَدْتُ)

المراد بالخطأ هو الذي يخطئ به المرء جهة الصواب من قوله تعالى {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا} ليس المراد ضد العمد، فإنه لا يؤاخذ به، قال تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ} [الأحزاب: ٥] وكذا المراد بقوله تعالى {أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة: ٢٨٦] فإنه المكسوب بقصدهم إليها وتعمدهم إياها. [مشكل الآثار للطحاوي]

(وَمَا جَهَلْتُ وَمَا عَلِمْتُ)

وما جهلت أي ما عملته جاهلاً بقصدي إليه مع معرفتي به وجنابتي على نفسي بدخولي فيه وعملي إياه في استعمال ما فيمن يعقل. [مشكل الآثار للطحاوي]
ولا يخفى ما في هذه الأدعية من معاني الشمول والإحاطة وتلك ميزة نبوية اختص الله بها حبيبه محمد - صلى الله عليه وسلم - فأعطاه من جوامع الكلم الباهرات، ومن فصيح العبارات، وجميل الإشارات، مما هو من دلائل نبوته وعلو درجته، فصلى الله عليه في الأولين والآخرين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وسؤال الله تعالى المغفرة يقصد بها الستر والتجاوز عن كل الذنوب بكل مراتبها وأنواعها التي يقترفها العبد في كل أحواله وأوقاته، فما من ذنب إلا وقد دخل فيه هذا الاستغفار العظيم؛ فإن الفائدة في سؤال الله تعالى غفران الذنوب بهذا التفصيل والتعميم تكثيراً لمقام العبودية والذل لله تعالى، وحتى يستحضر العبد ما يدعو به؛ فإن استحضار هذه الذنوب بأنواعها وإفرادها له وقع عظيم في النفس في تقوية إرادتها في عدم الوقوع بها في العاجل والآجل.

والله أسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل، وأن يبصرنا بأرشد أمرنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه.

الهوامش

(١) أخرجه النسائي في الكبرى، ٦ / ٢٤٦، برقم ١٠٨٣٠، والحاكم، ١ / ٥١٠، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد، ٣٣ / ١٩٧، برقم ١٩٩٩٢، وصحيح ابن حبان، ٣ / ١٨١، وقال الحافظ في الإصابة: ((إسناده صحيح))، وصححه الألباني في تخريج رياض الصالحين، في تعليقه على الحديث رقم ١٤٩٥، والتعليقات الحسان، برقم ٨٩٦، والأرناؤوط في تعليقه على المسند، ٣٣ / ١٩٧.

تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
(تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتْ النَّارُ أُوثِرْتُ [أَيِ اخْتَصَصْتُ] بِالْمُتَكَبِّرِينَ
وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهَا قَالَ
اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي وَقَالَ
لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا
مِلْوَاهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ قَطُّ قَطُّ [أَيِ حَسَبَ وَكْفَى]
فَهُنَالِكَ تَمْتَلِي وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا
وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا) [البخاري]

** قوله: (تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ) أي تخصصتا، ولا مانع من أن الله يجعل لهما تمييزا
يدركان به فيتحاجان، ولا يلزم من هذا التمييز دوامه فيهما، والأظهر أن هذه الحاجة ليست
للمغالبة، بل بمعنى حكاية كل منهما بما اختصت به، وفيه شائبة من معنى الشكاية لقوله
للجنة: (أنت رحمتي)، وللنار: (أنت عذابي)، فأفحم كلا منهما بما اقتضته مشيئته سبحانه
وتعالى.

** قوله: (أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ) أي اختصت، بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ
وهما سواء من حيث اللغة فالثاني تأكيد للأول معنى، وقيل المتكبر المتعظم بما ليس فيه،
والمتجبر الممنوع الذي لا يوصل إليه أو الذي لا يكثر بأمر الناس.

** قوله: (ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهَا): أي الساقطون من أعينهم لتواضعهم لربهم وذلتهم
له .. هذا بالنسبة إلى ما عند الأكثر من الناس، وبالنسبة إلى ما عند الله هم عظماء رفعا
الدرجات، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم لعظمة الله عندهم وخضوعهم له في غاية

التواضع لله والذلة في عبادته، فوصفهم بالضعف والسقط بهذا المعنى صحيح، وأما معنى الحصر فبالنظر إلى الأغلب فإن أكثرهم الفقراء والمساكين وأمثالهم، وأما غيرهم من أكابر الدارين فهم قليلون وهم أصحاب الدرجات العلى.

** قوله: (وَيُرَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ) أي تجتمع وتلتقي على ما فيها.

** قوله: (أَنْتَ رَحْمَتِي) سمي الجنة رحمة، لأن بها تظهر رحمة الله تعالى على خلقه كما قال: (أرحم بك من أشياء) وإلا فرحمة الله تعالى من صفاته التي لم يزل بها موصوفا ليس لله سبحانه وتعالى صفة حادثة، ولا اسم حادث، فهو قديم بجميع أسمائه وصفاته جل جلاله، وتقدست أسماؤه.

** القدم والرجلان المذكوران في هذا الحديث من صفات الله سبحانه وتعالى المنزه عن التكيف والتشبيه، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب أو السنة كاليد والإصبع، والعين والمحيء، والإتيان، فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكر معطل، والمكيف مشبه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} سبحانه ربنا رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

** قوله: (وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا) أي يخلق للجنة خلقا، وفي رواية مسلم من حديث أنس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (يبقى من الجنة ما شاء الله تعالى أن يبقى ثم ينشئ الله لها خلقا مما يشاء) وفي رواية له: (ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة)

فالمعروف في هذا الموضوع أن الله تعالى ينشئ للجنة خلقا، وأما النار فيضع فيها قدمه، ولا أعلم في شيء من الأحاديث أنه ينشئ للنار خلقا.

وقال النووي: هذا دليل لأهل السنة على أن الثواب ليس متوقفا على الأعمال، فإن هؤلاء يخلقون حينئذ ويعطون في الجنة وما يعطون بغير عمل، وفيه دليل أيضا على عظم سعة الجنة.. فقد جاء في الصحيح أن للواحد فيها مثل الدنيا عشرة أمثالها ثم يبقى فيها شيء

خلق ينشئهم الله تعالى لها، ويروى أن الله لما خلقها قال لها امتدي فهي تتسع دائماً أسرع من النبل إذا خرج من القوس.

** وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعود المرضى من مساكين أهل المدينة ويشيع جنازتهم، وكان لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين حتى يقضي حاجتهما، وعلى هذا الهدى كان أصحابه من بعده والتابعون لهم بإحسان.

وروي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين ويجلس إليهم، ويحدثهم ويحدثونه، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكنيه: أبا المساكين. وفي رواية: أنه كان يطعمهم، وربما أخرج لهم عكَّة فيها العسل فشقوها ولعقوها. وكانت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين تسمى «أم المساكين» لكثرة إحسانها إليهم، وقد توفيت في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقال ضرار بن مرة في وصف علي بن أبي طالب في أيام خلافته: كان يعظم أهل الدين، ويحب المساكين.

ومر ابنه الحسن رضي الله عنهما على مساكين يأكلون، فدعوه فأجابهم وأكل معهم، وتلا: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل: ٢٣] ثم دعاهم إلى منزله فأطعمهم وأكرمهم. وكان ابن عمر لا يأكل غالباً إلا مع المساكين، ويقول: لعل بعض هؤلاء أن يكون ملكاً يوم القيامة.

وجاء مسكين أعمى إلى ابن مسعود وقد ازدحم الناس عنده فناده: يا أبا عبد الرحمن! آويت أرباب الخز واليمنية وأقصيتني لأجل أبي مسكين. فقال له: أدنه. فلم يزل يدينه حتى أجلسه بجانبه أو بقربه.

وكان مطرف بن عبد الله يلبس الثياب الحسنة ثم يأتي المساكين ويجالسهم. وكان سفيان الثوري يعظم المساكين ويجفو أهل الدنيا، فكان الفقراء في مجلسه هم الأغنياء، والأغنياء هم الفقراء.

وقال سليمان التيمي: كنا إذا طلبنا علياً أصحابنا وجدناهم عند الفقراء والمساكين.

وقال الفضيل: من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين.

ومن فضائل المساكين أنهم أكثر أهل الجنة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:
(قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين). وقال: (تحتاج الجنة والنار، فقالت
الجنة: لا يدخلني إلا الضعفاء والمساكين) وسئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: عن أهل
الجنة، فقال: (كل ضعيف متضعف). [أي متواضع متذل خامل]

وهم أول الناس دخولاً كما صح عنه -صلى الله عليه وسلم- أن الفقراء يسبقون
الأغنياء إلى الجنة بأربعين عاماً. وفي رواية: "أنهم يدخلون الجنة بنصف يوم، وهو خمسمائة
سنة".

وهم أول الناس إجازة على الصراط كما صح عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل:
من أول الناس إجازة على الصراط؟ فقال: (فقراء المهاجرين).

وهم أول الناس وروداً الحوض كما قال -صلى الله عليه وسلم-: (أول الناس وروداً
عليه: فقراء المهاجرين، الدنس الثياب والشعث رؤوساً، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا
تفتح لهم السدد).

وهم أتباع الرسل كما أخبر الله تعالى عن نوح عليه السلام أن قومه عيروه باتباع
الضعفاء له فقالوا: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ} [الشعراء: ١١١]، وكذلك قال هرقل
لأبي سفيان لما سأله عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: وهل يتبعه أشرف الناس أم
ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاءهم. قال هرقل: هم أتباع الرسل.

وهم أفضل من الأغنياء عند كثير من العلماء أو أكثرهم، وقد دل على ذلك أدلة
كثيرة، منها قول النبي -صلى الله عليه وسلم- حين مر به الغني والمسكين في المسجد:
"هذا يعني: المسكين خير من ملء الأرض من مثل هذا يعني: الغني". وقد خرجه البخاري
وغيره.

ومنهم من لو أقسم على الله لأبره كما في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-
أنه قال في أهل الجنة: (كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره). وفي رواية: (أشعث

ذو طَمْرَيْنِ) [أي ثوبين خلقين]، وفي رواية خرجها ابن ماجة: (أثم ملوك الجنة)، وفي الحديث المشهور: (رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) خرجته الحاكم وغيره

قال ابن مسعود: كونوا جدد القلوب، خلقان الثياب، سرج الليل، مصابيح الظلام، تعرفون في أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض.

** واعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة، منها: أنها توجب إخلاص العمل لله عز وجل، لأن الإحسان إليهم لمحببتهم لا يكون إلا لله عز وجل، لأن نفعهم لا يرجى غالباً. فأما من أحسن إليهم ليمدح بذلك فما أحسن إليهم حباً لهم، بل حباً لأهل الدنيا، وطلباً لمدحهم له بحب المساكين.

ومنها: أنها تزيل الكبر، فإن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب ومن حذا حذوهم من هذه الأمة ممن تشبه بهم، حتى إن بعض علماء السوء كان لا يشهد الصلاة في جماعة خشية أن تراحمه المساكين في الصف.

ويمتنع بسبب هذا الكبر خير كثير جداً، فإن مجالسة الذكر والعلم يقع فيها كثيراً مجالسة المساكين، فإنهم أكثر هذه المجالس، فيمتنع المتكبر من هذه المجالس بتكبره، وربما كان المسموع منه الذكر والعلم من جملة المساكين، فيأنف أهل الكبر من التردد إلى مجلسه كذلك يفوتهم خير كثير.

وقد أخبر الله تعالى عن المشركين أنهم قالوا: {لولا نَزَّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم} [الزخرف: ٣١] يشيرون إلى عظماء مكة والطائف كعتبة بن ربيعة وأخيه شيبه ونحوهما من صنديد قريش وثقيف ذوي الأموال والشرف فيهم ممن كان أكثر مالاً من محمد -صلى الله عليه وسلم- وأعظم رياسة عندهم، ورد عليهم سبحانه بأنه يقسم رحمته كما يشاء، وأنه كما رفع درجات بعضهم على بعض في الدنيا فكذلك يرفعها في الآخرة، وأن رحمته بالنبوة والعلم والإيمان خير مما يجمعونه من الأموال التي تفتى، فهو يخص بهذه الرحمة الدينية من يشاء ويرفعه على أهل النعم الدنيوية، وقد خص محمداً -صلى الله عليه

وسلم- بما لم يشركه غيره من هذه النعم كما قال تعالى: {وأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: ١١٣].

وقد كان علي بن الحسين يجلس في مجلس زيد بن أسلم فيعاتب علي ذلك فيقول: إنما يجلس المرء حيث يكون له فيه نفع.

يشير إلى أنه ينتفع بسماع ما لم يسمعه من العلم والحكمة، وزيد بن أسلم أبوه مولى لعمر، وعلي بن الحسين سيد بني هاشم وشريفهم.

تَدْوُرُ رَحَى الْإِسْلَامِ

** روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (تَدْوُرُ رَحَى الْإِسْلَامِ بِخَمْسٍ وَثَلَاثِينَ أَوْ سِتِّ وَثَلَاثِينَ أَوْ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ، فَإِنْ يَهْلِكُوا فَسَبِيلُ مَنْ قَدْ هَلَكَ، وَإِنْ يَقُمْ لَهُمْ دِينُهُمْ يَقُمْ لَهُمْ سَبْعِينَ عَامًا) قَالَ: قُلْتُ أَمَّا مَضَى أَمْ مِمَّا بَقِيَ؟ قَالَ: (مِمَّا بَقِيَ) [أحمد وأبو داود وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي]

** وفي رواية مسروق (إن رحى الإسلام ستزول بعد خمس وثلاثين، فإن يصطلحوا فيما بينهم على غير قتال يأكلوا الدنيا سبعين عاما رغدا، وإن يقتتلوا يركبوا سنن من كان قبلهم)

** قوله: (تَدْوُرُ رَحَى الْإِسْلَامِ) مثل يريد أن هذه المدة إذا انتهت حدث في الإسلام أمر عظيم يخاف لذلك على أهله المهلاك، يقال للأمر إذا تغير واستحال: "قد دارت رحاه" وهذا والله أعلم إشارة إلى انقضاء مدة الخلافة.

وقوله: (وَإِنْ يَقُمْ لَهُمْ دِينُهُمْ) أي: ملكهم وسلطانهم، والدين: الملك والسلطان، ومنه قوله تعالى: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [يوسف: ٧٦] وكان بين مبايعة الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان إلى انقضاء ملك بني أمية من المشرق نحو من سبعين سنة.

وقال الخطابي في المعالم والشيخ في شرح السنة المراد بدوران رحى الإسلام الحرب والقتال وشبهها بالرحى الدوارة بالحب لما فيها من تلف الأرواح والأشباح انتهى

وقوله: (فَإِنْ يَهْلِكُوا فَسَبِيلُ مَنْ قَدْ هَلَكَ وَإِنْ يَقُمْ لَهُمْ دِينُهُمْ يَقُمْ لَهُمْ سَبْعِينَ عَامًا) أعلم أنهم لما اختلفوا في المراد بدوران رحى الإسلام على القولين المذكورين، اختلفوا في بيان معنى هذا الكلام وتفسيره أيضا على قولين:

فتفسير هذا الكلام على قول الأكثرين (فإن يهلكوا) يعني بالتغيير والتبديل والتحريف والخروج على الإمام وبالمعاصي والمظالم وترك الحدود وإقامتها، وقوله: (فسبيل من هلك) أي فسبيلهم في الهلاك بالتغيير والتبديل والوهن في الدين سبيل من هلك من الأمم السالفة والقرون الماضية في الهلاك بالتغيير والتبديل والوهن في الدين، وقوله (وإن يقيم لهم دينهم) أي لعدم التغيير والتبديل والتحريف والوهن يقيم لهم سبعين عاما.

قال في جامع الأصول: قيل إن الإسلام عند قيام أمره على سنن الاستقامة والبعث من إحداثات الظلمة إلى أن ينقضي مدة خمس وثلاثين سنة ووجهه أن يكون قد قاله وقد بقيت من عمره خمس سنين أو ست، فإذا انضمت إلى مدة خلافة الخلفاء الراشدين وهي ثلاثون سنة كانت بالغة ذلك المبلغ، وإن كان أراد سنة خمس وثلاثين من الهجرة ففيها خرج أهل مصر وحصروا عثمان -رضي الله عنه- وإن كانت سنة ست وثلاثين ففيها كانت وقعة الجمل وإن كانت سنة سبع وثلاثين ففيها كانت وقعة الصفين انتهى

وقال الطحاوي في مشكل الآثار (بتصرف): قوله صلى الله عليه وسلم (تدور أو تزول رحي الإسلام) يريد بذلك الأمور التي عليها يدور الإسلام، وشبه ذلك بالرحى فسماه باسمها، وكان قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعد خمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين ليس على الشك، ولكن على أن يكون ذلك فيما يشاؤه الله عز وجل من تلك السنين.

فشاء عز وجل أن كان في سنة خمس وثلاثين فتهياً فيها على المسلمين حصر إمامهم وقبض يده عما يتولاه عليهم مع جلالته مقداره لأنه من الخلفاء الراشدين المهديين حتى كان ذلك سبباً لسفك دمه -رضوان الله عليه- وحتى كان ذلك سبباً لوقوع الاختلاف وتفرق الكلمة واختلاف الآراء فكان ذلك مما لو هلكوا عليه لكان سبباً مهلكاً لعظمه ولما حل بالإسلام منه.

ولكن الله ستر وتلافى وخلف نبيه في أمته من يحفظ دينهم عليهم ويبقى ذلك لهم ثم تأملنا ما بقي من هذه الآثار فوجدنا في حديث مسروق منها عن عبد الله (فإن يصطلحوا

فيما بينهم على غير قتال يأكلوا الدنيا سبعين عاما رغدا) فإن يصطلحوا بينهم على غير قتال يأكلوا الدنيا سبعين عاما رغدا، ولم يصطلحوا على غير قتال، فتكون المدة التي يأكلون الدنيا فيها كذلك سبعين عاما ثم تنقطع فلا يأكلونها بعدها، ولكن جرت أمورهم على غير ذلك مما لا ينقطع معهم القتال فكان ذلك رحمة من الله لهم وسترا منه عليهم فجرى على ذلك أن يأكلوا الدنيا بلا توقيت عليهم فيه، وقد وجدناهم بحمد الله ونعمته أكلوها بعد ذلك سبعين عاما وسبعين عاما وزيادة على ذلك ودينهم قائم على حاله ففعلنا بذلك أن أصل الحديث في ذلك كما رواه مسروق فيه.

وقيل: إن المقصود بدوران الرحي: الحروب التي تحصل وتقع، ولا شك أن مدة الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله تعالى عنهم كانت خلافة راشدة، وكان الخير عظيماً والإسلام منتشراً، وقد حصل بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وتولي علي رضي الله عنه شيء من الاقتتال والاختلاف حيث وجدت الفتن، وحصل اقتتال بين المسلمين، ثم بعد ذلك حصل اجتماع للمسلمين على يدي الحسن بن علي رضي الله عنهما بتنازله لمعاوية وحصول اجتماع الكلمة على معاوية بعدما كانت الفرقة وكان الخلاف قبل ذلك.

وعلى هذا يكون المقصود برحي الإسلام: قوته واستقامته وسلامته، وكونه على منهاج النبوة، وكون الخلافة خلافة نبوة، ويكون بدوران الرحي حصول الخير والنفع، كما أن الرحي إذا دارت على الحب وصار طحيناً ودقيقاً بسبب دوران الرحي حصل بذلك النفع. فيكون معنى هذا: أن الدوران يشبه دوران الرحي بطحن الحب، فيكون في ذلك فوائد للناس.

فعلى هذا يكون المعنى: حصول استقامة وقوة خلافة راشدة، وخلافة نبوة في خمس وثلاثين سنة؛ منها ثلاثون مدة الخلفاء، ومنها خمس هي المدة الباقية من حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد قوله ذاك.

قوله: (فإن يهلكوا فسبيل من هلك)، يعني: من الأمم السابقة، والهلاك لا يلزم أن يكون بتلف وذهاب أجسادهم، بل يكون بانحرافهم وحصول فتن وأمور مضلة.

قوله: (وإن يقيم لهم دينهم يقيم لهم سبعين سنة)، ولا شك أنه لم يحصل الهلاك، ولكن حصل قيام الدين، وقيام الملك لبني أمية بعد عهد الراشدين، وقد حصل في زمن بني أمية خير ونفع عظيم، وفتحت الفتوحات وبلغت الديار الإسلامية المفتوحة إلى المحيط الأطلسي غرباً، وإلى بلاد الهند والصين شرقاً، وفي حديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمِّي سَيَبِلُغُ مَلِكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا) [ابن ماجة]، وقد بلغ ملك هذه الأمة في زمن بني أمية مبلغاً وصل إلى حد المحيط الأطلسي غرباً وإلى الصين شرقاً، فصار في ذلك القوة للإسلام وأهله.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: (لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر خليفة) [مسلم وغيره]، والخلفاء الثمانية هم خلفاء بني أمية، وقبلهم الخلفاء الراشدون الهادون المهديون، فهذا فيه بيان أن الإسلام قوي حيث انتشر في هذه المدة، وفتحت الفتوحات، وكثرت الخيرات، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية.

قوله: (وإن يقيم لهم دينهم يقيم لهم سبعين عاماً)، قيل المقصود به: ملكهم، وقد قام ملك بني أمية هذه المدة من حين بويع معاوية -رضي الله عنه- بالخلافة بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه، فمدة سبعين بعد ذلك فيها قوة، وبعد ذلك حصل الضعف في بني أمية، وحصلت الحروب والافتتال الذي أدى إلى ظهور بني العباس وتغلبهم على بني أمية وانتزاعهم الملك منهم، فتكون مدة السبعين هي من خلافة معاوية إلى تمام السبعين، وخلافة بني أمية تبلغ تسعاً وثمانين سنة، لكن في آخرها حصل اضطراب وقلقل وفتن، ولكن مدة السبعين سنة هي مدة الخلفاء الأقوياء

قوله: (قال: قلت: أما بقي أو مما مضى؟ قال: مما مضى). يعني: كأن السبعين بعدما

مضى.

تعلموا القرآن

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:
(تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَسَلُّوا بِهِ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ بِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ
الْقُرْآنَ يَتَعَلَّمُهُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ يُبَاهِي بِهِ، وَرَجُلٌ يَسْتَأْكِلُ بِهِ، وَرَجُلٌ يَقْرَأُ لِلَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ) [البيهقي في شعب الإيمان وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة ٢٥٨]

** وفي رواية: (تعلموا القرآن واسألوا الله به..) [رواه أبو عبيد في فضائل القرآن،
وصححه الحاكم]

** وأخرجه الإمام أحمد بلفظ آخر، وفي آخره: (ويقرا القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق
وفاجر). وفسر الراوي عن أبي سعيد الفاجر بمن يتأكل بالقرآن.
فقوله في رواية أبي عبيد: (ورجل يستأكل به) بمعنى الفاجر في رواية الإمام أحمد.
ويكون حينئذ قوله في رواية أبي عبيد (رجل يباهي به) بمعنى قوله في الرواية الأخرى:
(ومنافق).

** عن بشير بن أبي عمرو الخولاني: أن الوليد بن قيس التُّجِيبِيَّ حدثه: أنه سمع أبا
سعيد الخدري -رضي الله عنه- يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول:
(يكون خلف من بعد الستين سنة أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا، ثم
يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرا القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر).
قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به،
والمؤمن يؤمن به. [رواه: الإمام أحمد، وابن أبي حاتم، وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم في
"مستدرکه"، والبيهقي في "شعب الإيمان". قال ابن كثير: (وإسناده جيد قوي". وقال
الحاكم: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه"].

قوله: (رَجُلٌ يُبَاهِي بِهِ)

** وهو المنافق، ودل الحديث على ذم المباهي بتلاوته. وكثيرا ما يقصد قراء زماننا المباهة بأصواتهم والفخر بحفظهم، فليحذر من يجد هذا من نفسه وليعلم أن كتاب الله هداية تخشع لها القلوب، وتستسلم الجوارح.

** قال حذيفة: أقرأ الناس بالقرآن منافق يقرؤه، لا يترك منه ألفا ولا واوا، لا يجاوز ترقوته.

لا يجاوز ترقوته أو حناجرهم. يعنى: لا يرتفع إلى الله، ولا يؤجرون عليه لعدم خلوص النية بقراءته لله تعالى، ولذلك شبه قراءة المنافق لما كانت رياء وسمعة بطعم الريحانة المر الذي لا يلتذ به آكله، كما لا يلتذ المنافق والمرائي بأجر قراءته وثوابها.

** عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: "لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل، يقول أتلى ولا يعمل بي»

** عن أبي العالية: "لا تذهب الدنيا حتى يخلق القرآن في صدور قوم ويبلى كما تبلى الثياب، إن قصرنا عما أمرنا به، قالوا: سيغفر لنا، وإن انتهكوا ما حرم عليهم، قالوا: إنا لن نشرك بالله شيئا، أمرهم إلى الضعف الذي لا يخالطه مخافة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أفضلهم في أنفسهم المداهن".

** عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: "أقرأ الناس لهذا القرآن المنافق؛ لا يذر منه ألفا ولا واوا، يلفه بلسانه كما تلف البقرة الكلاً بلسانها" [رواه عبد الرزاق، ورجاله كلهم ثقات].

قوله: (وَرَجُلٌ يَسْتَأْكِلُ بِهِ)

** وهو الفاجر، ودل الحديث على ذم من يأخذ على القراءة أجراً كما عليه كثير من القراء الذين يتأكلون بالقراءة في المآتم والمحافل وغيرها، وكذلك من يجعل القراءة وسيلة

لسؤال الناس، وقد يفعلون ذلك في المسجد الحرام؛ يجلس أحدهم، فيقرأ قراءة متكلفة ينتطع فيها، ويعالج في أدائها أعظم شدة ومشقة، وتنتفخ أوداجه، ويحمر وجهه، ويكاد يغطي عليه مما يصيبه من الكرب في تكلفه وتنطعه، ويفرش عنده منديلاً أو نحوه؛ ليلقي فيه المستمعون لقراءته ما يسمحون به من أوساخهم، وهذا مصداق ما في حديث عمران بن حصين وحديث أبي سعيد رضي الله عنهما.

** عن رجل أن عمران بن الحصين مر على رجل يقرأ على قوم، فلما قرأ سأل، فقال عمران: "إنا لله وإنا إليه راجعون، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من قرأ القرآن فليسأل الله، فإنه سيحيي أرقام يقرؤون القرآن يسألون الناس به). [قال أبو عيسى: هذا حديث حسن]

** عن عمران بن حصين رضي الله عنه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اقرأوا القرآن وسلوا الله به، فإن من بعدكم أرقام يقرءون القرآن يسألون به الناس) وفي رواية: (من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيحيي قوم يقرءون القرآن يسألون الناس به)

** وعن علي -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من اقترب الساعة إذا كثرت خطباء المنابر) ... الحديث وفيه (واتخذتم القرآن تجارة).
** وعن زاذان قال: "من قرأ القرآن ليستأكل به الناس، جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم".

** وقال ابن مسعود: سيحيي على الناس زمان يُسئل فيه بالقرآن، فإذا سألوكم فلا تعطوهم.

وفي الفتح: وأخرج أحمد وأبو يعلى من حديث عبد الرحمن بن شبل رفعه: (أقرأوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه ولا تأكلوا به) الحديث وسنده قوي
[ولا تغلوا فيه] أي تتعدوا حدوده من حيث لفظه أو معناه
[ولا تجفوا عنه] أي تعاهدوه ولا تبعدوا عن تلاوته وهو من الجفاء

[ولا تأكلوا به] لا تجعلوا له عوضاً من سحت الدنيا

** قال ميمون بن مهران: "يا أصحاب القرآن لا تتخذوه بضاعة تلتمسوا به الشنْفَ في الدنيا - يعني الربح - واطلبوا الدنيا بالدنيا، والآخرة بالآخرة".

** قال أحد العلماء: الغريب هو القرآن في جوف الفاجر.

** عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -؛ قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن، وفينا العجمي والأعرابي. قال: فاستمع، فقال: (اقرأوا؛ فكل حسن، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقيم القدح؛ يتعجلونه ولا يتأجلونه) أي أجره. [رواه: الإمام أحمد ورواته ثقات، وأبو داود وإسناده صحيح على شرط مسلم]

- يقيمونه: أي يجتهدون ويبالغون في عمل القراءة رياء وسمعة

- كما يقيم القدح: هو جسم السهم المستوي قبل أن يراش وينصل

- يتعجلونه: أي يؤثرون ثواب العاجلة وهي الدنيا

- ولا يتأجلونه: أي لا يطلبون الأجر في الآخرة

// وفي رواية لأحمد؛ قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد؛ فإذا فيه قوم يقرؤون القرآن؛ قال: (اقرأوا القرآن، وابتغوا به الله عز وجل من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح؛ يتعجلونه ولا يتأجلونه). [إسناده صحيح على شرط مسلم].

// وعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه -؛ قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ونحن نقترى، فقال: (الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر، وفيكم الأبيض، وفيكم الأسود، اقرأوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم؛ يتعجل أجره ولا يتأجله). [رواه أبو داود وإسناده حسن].

// ورواه الإمام أحمد، ولفظه: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (فيكم كتاب الله؛ يتعلمه الأسود والأحمر والأبيض، تعلموه قبل أن يأتي زمان يتعلمه ناس ولا يجاوز تراقيهم، ويقومونه كما يقوم السهم، فيتعجلون أجره ولا يتأجلونه).

// وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه-؛ قال: "بينما نحن نقرأ فينا العربي والعجمي والأسود والأبيض؛ إذ خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: (أنتم في خير، تقرأون كتاب الله، وفيكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وسيأتي على الناس زمان يثقفونه كما يثقفون القدح؛ يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها) [رواه الإمام أحمد].

** وفي هذه الأحاديث فوائد:

إحداها: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحب القراءة السهلة.

الثانية: أنه كان يأمر أصحابه أن يقرأ كل منهم بما تيسر عليه وسهل على لسانه.

الثالثة: ثناؤه عليهم بعدم التكلف في القراءة.

الرابعة: ذم المتكلفين في القراءة، المتعمقين في إخراج الحروف.

** ولا يتناول هذا الذم من يأخذ الأجرة على تعليم القرآن إذا كانت في مقابلة تعب، وشغل وقته، ولم يتخذ تعليمه صناعة من الصناعات المادية المحضة، بل على هذا المعلم -إن أراد السلامة من ذلك الذم- أن يكون هو نفسه عاملاً بكتاب الله، وأن يقصد من تعليمه الدعوة إلى العمل به.

قوله: (وَرَجُلٌ يَقرَأُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)

** عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: "كنا إذا تعلمنا من النبي -صلى الله عليه وسلم- عشراً من القرآن، لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم ما نزل في هذه من العمل".

** عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: "لقد عشنا برهة من دهرنا واحدنا يؤتى الإيمان من قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد -صلى الله عليه وسلم- فيتعلم حلالها وحرامها وزاجرها وآمرها وما ينبغي أن يقف عنده منها، كما تعلمون أنتم القرآن، لقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده، يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ ". [ردئ التمر ويابس، وذلك أن الدَّقَلَ من الثمر لا يَكَادُ يَلْصُقُ بَعْضُهُ بَعْضٍ إِذَا نُثِرَ يَفْرُقُ سَرِيعاً]

** عن الحسن رحمه الله: "لم يبعث الله رسولا إلا أنزل عليه كتابا، فإن قبله قومه وإلا رفع فذلك قوله {أفنزرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين} [الزخرف: ٥] لا تقبلونه فنلقيه على قلوب بقية، قالوا: قبلناه ربنا، قبلناه ربنا، ولو لم يفعلوا لرفع ولم ينزل منه شيء على ظهر الأرض".

** قال الليث بن سعد: يقال: "إنما يرفع القرآن حين يقبل الناس على الكتب ويكبون عليها ويتركون القرآن".

** قال مجاهد - رحمه الله -: إن القرآن يقول: "إني معك ما تبعني فإذا لم تعمل بي تبعتك حتى آخذك على أسوأ عملك".

** قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: لإياس بن عامر: "إنك إن بقيت فسيقرأ القرآن ثلاثة أصناف؛ صنف لله، وصنف للدنيا، وصنف للجدل"
** يقول صاحب الظلال - رحمه الله تعالى -:

"هذا القرآن لا يفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرؤه مجرد التبرك! ولا لمن يقرؤه مجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسه مجرد تتبع الأداء البياني فيه!

إن هؤلاء جميعاً لن يدركوا من هذا القرآن شيئاً يذكر. فإن هذا القرآن لم ينزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو؛ إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه".

ويقول أيضاً: هذا القرآن لا يكشف عن أسراره إلا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهاداً كبيراً.. إن هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون في مثل الجو الذي تنزل فيه القرآن؛ ومن ثم يتذوقونه ويدركونه؛ لأنهم يجدون أنفسهم مخاطبين خطاباً مباشراً به، كما خوطبت به الجماعة المسلمة الأولى، فتذوقته وأدركته وتحركت به"

حديث (يا عبادي...)

روى الإمام مسلم عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا
يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ
إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ
فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي
أَغْفِرْ لَكُمْ

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا صَرِيَّ فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي
يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ
مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ
مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي
فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيضُ
إِذَا أُدْخِلَ النَّبْرَ

يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوْفِّيْكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا
فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ

وفي رواية الترمذي: ذلك بأني جواد ماجد، أفعل ما أريد، عطائي كلام،
وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون.

** حديث قدسي .. الألفاظ فيه نبوية، والمعاني ربانية.

** النداء الرباني تكرر عشر مرات في هذا الحديث الجليل

** قال عنه الإمام أحمد -رحمه الله-: "هو أشرف حديث رواه أهل الشام" ... رواه

التابعي أبو إدريس الخولاني عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري.

** وأبو إدريس الخولاني قاضي دمشق وعالمها وواعظها، من كبار التابعين، ولد عام

الفتح، وأدرك عدد كبيراً من الصحابة.. وكان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جثا على ركبتيه من شدة وقعه عليه وتأثره به.

** والصحابي الجليل أبي ذر جندب بن جنادة -رضي الله تعالى عنه-، الذي قال فيه

-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ما أظلت الخضراء [أي السماء]، ولا أقلت الغبراء [أي حملت

الأرض] من ذي لهجة أصدق من أبي ذر [مبالغة في صدقه] [أحمد والترمذي]

(يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا)

** الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وكل وضع للشيء في غير موضعه فالله تبارك

وتعالى منزله عنه.

** قال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ

هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ

أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]

** وقال {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

[الأنعام: ١٢]

** فهو سبحانه إن عذب الخلق، فلا يعذبهم إلا عدلاً، وإن رحمهم فلا يرحمهم إلا

فضلاً منه عز وجل وتكرماً.

** والله تبارك وتعالى قال عن نفسه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} [يونس: ٤٤]، وقال: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} [غافر: ٣١]، فهو عز وجل لا يريد الظلم ولا يجبه، وقد حرمه على نفسه، لن يريده ولن يقبله من أحد أبداً.

** بل هو تعالى كما أخبر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إن الله يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)، وقال تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٣].

** وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الظلم ظلمات يوم القيامة)، وقال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه..)

** والمقصود بذلك هو أن يقوم الناس بالقسط، وَقَدْ جَاءَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. وَرُويَ مَرْفُوعًا (الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ دَوَاوِينُ: فِدْيَوَانٌ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيَوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيَوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا).

فَأَمَّا الدِّيَوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا فَهُوَ الشِّرْكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَأَمَّا الدِّيَوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا فَهُوَ ظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا بُدَّ أَنْ يُنْصِفَ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ.

وَأَمَّا الدِّيَوَانُ الَّذِي لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ ظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَي: مَغْفِرَةٌ هَذَا الصَّرْبِ مُكِنَّةٌ بَدُونَ رِضَا الْخَلْقِ؛ فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ هَذَا الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ.

** وَكَانَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ يَقُولُ: يَا بَقَايَا الْعَرَبِ يَا بَقَايَا الْعَرَبِ إِنَّمَا أَحَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْحَفِيَّةُ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيُّ صَاحِبُ السُّنَنِ الْمَشْهُورَةِ: الشَّهْوَةُ الْحَفِيَّةُ: حُبُّ الرِّيَاسَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ حُبَّ الرِّيَاسَةِ هُوَ أَصْلُ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ، كَمَا أَنَّ الرِّيَاءَ هُوَ مِنْ جِنْسِ الشِّرْكِ أَوْ مَبْدَأُ الشِّرْكِ.

** وَمَنْ تَابَ مِنْ ظُلْمٍ لَمْ يَسْقُطْ بِتَوْبَتِهِ حَقُّ الْمَظْلُومِ لَكِنْ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِهِ أَنْ يُعَوِّضَهُ بِمِثْلِ مَظْلَمَتِهِ. وَإِنْ لَمْ يُعَوِّضْهُ فِي الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَوْضِ فِي الْآخِرَةِ، فَيَنْبَغِي لِلظَّالِمِ التَّائِبِ أَنْ يَسْتَكْتِرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ حَتَّى إِذَا اسْتَوْفَى الْمَظْلُومُونَ حُقُوقَهُمْ لَمْ يَبْقَ مُفْلِسًا. وَمَعَ هَذَا فَإِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعَوِّضَ الْمَظْلُومَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، كَمَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَغْفِرَ مَا دُونَ الشَّرِكِ لِمَنْ يَشَاءُ.

وَهَذَا فِي حَدِيثِ الْقِصَاصِ الَّذِي رَكِبَ فِيهِ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَيْسٍ شَهْرًا حَتَّى شَافَهُهُ بِهِ.. وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ وَاسْتَشْهَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ؛ وَهُوَ مِنْ جِنْسِ حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ صَحَاحِهِ أَوْ حِسَانِهِ؛ قَالَ فِيهِ:

(إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الْخَلَائِقَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ. ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدِ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَبْلَهُ مَظْلَمَةٌ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ).
فَبَيَّنَ فِي الْحَدِيثِ الْعَدْلَ وَالْقِصَاصَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: (أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هَدَّبُوا وَنُقُّوا أُذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ)

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (مَنْ كَانَ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عَرَضٍ فَلْيَأْتِهِ فَلْيَسْتَحِلِّ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَيْسَ فِيهِ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ إِلَّا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ. فَإِنْ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ وَإِلَّا أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ يُلْقَى فِي النَّارِ)

** وَهَذَا فِيمَا عَلِمَهُ الْمَظْلُومُ مِنَ الْعَوْضِ فَأَمَّا إِذَا اغْتَابَهُ أَوْ قَدَفَهُ وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ فَقَدْ قِيلَ: مِنْ شَرْطِ تَوْبَتِهِ إِعْلَامُهُ وَقِيلَ: لَا يُشْتَرَطُ ذَلِكَ وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ وَهُمَا رَوَايَتَانِ عَنِ أَحْمَدَ. لَكِنَّ قَوْلَهُ مِثْلَ هَذَا أَنْ يَفْعَلَ مَعَ الْمَظْلُومِ حَسَنَاتٍ كَالدُّعَاءِ لَهُ وَالِاسْتِغْفَارِ وَعَمَلٍ

صَالِحٍ يَهْدِي إِلَيْهِ يَقُومُ مَقَامَ اغْتِيَابِهِ وَقَدْ فَهِمَهُ... قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَفَّارَةُ الْغِيْبَةِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمَنْ اغْتَيْبْتَهُ.

** فَكُلَّ خَيْرٍ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ وَكُلَّ شَرٍّ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الظُّلْمِ. وَهَذَا كَانَ الْعَدْلُ أَمْرًا وَاجِبًا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَالظُّلْمُ مُحَرَّمًا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلِكُلِّ أَحَدٍ فَلَا يَحِلُّ ظُلْمُ أَحَدٍ أَصْلًا سِوَاءَ كَانَ مُسْلِمًا أَوْ كَافِرًا

** فَإِنَّ هَذَا خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْعِبَادِ أَنْ لَا يَظْلِمَ أَحَدٌ أَحَدًا وَأَمْرٌ الْعَالَمِ فِي الشَّرِيعَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا وَهُوَ الْعَدْلُ فِي الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ؛ وَالْأَبْضَاعِ وَالْأَنْسَابِ؛ وَالْأَعْرَاضِ. وَهَذَا جَاءَتْ السُّنَّةُ بِالْقِصَاصِ فِي ذَلِكَ وَمُقَابَلَةَ الْعَادِي بِمِثْلِ فِعْلِهِ.

لَكِنَّ الْمُمَاتِلَةَ قَدْ يَكُونُ عِلْمُهَا أَوْ عَمَلُهَا مُتَعَدِّرًا أَوْ مُتَعَسِّرًا؛ وَهَذَا يَكُونُ الْوَاجِبُ مَا يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَيْهَا بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ وَيُقَالُ: هَذَا أَمْتَلٌ؛ وَهَذَا أَشْبَهُ.

وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ الْمُثَلِّي لِمَا كَانَ أَمْتَلًا بِمَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ إِذْ ذَاكَ مَعْجُوزٌ عَنْهُ

وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [الأنعام: ١٥٢] فَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا حِينَ أَمَرَ بِتَوْفِيَةِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ؛ لِأَنَّ الْكَيْلَ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يُفْضَلَ أَحَدَ الْمَكِيلِينَ عَلَى الْآخَرَ وَلَوْ بِحَبَّةٍ أَوْ حَبَاتٍ وَكَذَلِكَ التَّفَاضُلُ فِي الْمِيزَانِ قَدْ يَحْصُلُ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ لَا يُمْكِنُ الْإِحْتِرَازُ مِنْهُ فَقَالَ تَعَالَى: {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}

(يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ)

** لَمَّا ذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ مَا أَوْجَبَهُ مِنَ الْعَدْلِ وَحَرَمَهُ مِنَ الظُّلْمِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى عِبَادِهِ: ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِحْسَانَهُ إِلَى عِبَادِهِ مَعَ غِنَاهُ عَنْهُمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَيْهِ وَأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى جَلْبِ مَنَفَعَةٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا دَفْعِ مَضَرَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَيْسِرَ لِذَلِكَ.

وَأَمَرَ الْعِبَادَ أَنْ يَسْأَلُوهُ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نَفْعِهِ وَلَا ضَرِّهِ مَعَ عِظَمِ مَا يُوَصِّلُ إِلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمَاءِ؛ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ

** فاستهدوني أهدكم:

أي أخرجكم من الضلال الذي يسبب شقاء الدنيا والآخرة، والذي لا فلاح معه ولا نجاح، ولا خير فيه ولا سعادة.

** ومن هدايته لهم: أنه خلقهم على الفطرة القويمة، وأنه أرسل إليهم الرسل، وأنه أنزل عليهم الكتب، وأنه أعطاهم العقول ليفكروا بها وليتدبروا طريقهم بها، قال تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل: ٧٨].
فإذاً كلنا ضلال إلا من هدى الله، فماذا ينبغي لنا أن نفعل؟!

(فاستهدوني أهدكم)، فما علينا إلا أن نطلب الهداية من الله -تبارك وتعالى- آناء الليل وآناء النهار، ولهذا أمر المؤمنون أن يقرءوا في كل ركعة من صلاتهم أم الكتاب، وفيها يقولون: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٦-٧].

** فإذا أقبل العبد على الله وطلب الهداية ورجاه، فإن الله تبارك وتعالى يهديه ولا يخيبه، قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩] فمن جاهد في الله يريد وجه الله ويريد معرفة الحق، أوصله الله تبارك وتعالى إليه.

** إذاً الافتقار ابتداء هو الافتقار إلى الهداية، وهو أشد أنواع الافتقار بالنسبة للمخلوق، فالعبد المخلوق أفقر ما يكون إلى هداية الله، ولذلك قدمت الهداية على الطعام وعلى الكساء، لأن أهم شيء هو: أن يهتدي الإنسان إلى الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ} [الرحمن: ١-٣].

فامتَنَ اللهُ تبارك وتعالى بتعليم القرآن قبل منة خلق الإنسان، مع أن الإنسان لن يستطيع قراءة القرآن إلا إذا خُلق، ولكن أعظم من كونه مخلوقاً: أن يكون عالماً بالقرآن، عاملاً به، مهتدياً إلى ربه، وإلا فكم من مخلوق لا يعرف ربه ولا يعرف القرآن، فحياته نقمة عليه، لأنه والدواب سواء، قال تعالى: {إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الفرقان: ٤٤]، فهم أضل من الأنعام.

** فالهداية هي أحوج ما يبحث عنه الإنسان، وأشد ما يفتقر إليه، ولذلك فإنها قدمت في هذا الحديث، على ما سيلحقها بعد ذلك.

(يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أُطْعِمْكُمْ)

** قال تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} [العنكبوت: ١٧] فالناس غالباً ما يعلقون طلب الرزق بالأسباب، وينسون خالق الأسباب، وهو القائل {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦].

** وقال تعالى {قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنِّي وَلِيًّا فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٤]

** وَمَنْ هُنَا يُعْرِفُ أَنَّ السَّبَبَ الْمَأْمُورَ بِهِ أَوْ الْمُبَاحَ لَا يُنَافِي وَجُوبَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي وُجُودِ السَّبَبِ؛ بَلْ الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ إِلَى اللَّهِ ثَابِتَةٌ مَعَ فِعْلِ السَّبَبِ؛ إِذْ لَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ وَحْدَهُ سَبَبٌ تَامٌّ حِصُولِ الْمَطْلُوبِ.

** رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ يَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ فَإِذَا قَدِمُوا سَأَلُوا النَّاسَ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [١٩٧]

(يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ)

** فكثير من الناس لا يفتنون ولا يتنبهون إلى نعمة الكساء؛ لأنها لكثرتها ولوفرتها ولعموم فائدتها تبرد الإحساس بها، إلا من عانى ومن ذاق عدم اللباس.

** وَفِي الطَّبْرَانِيِّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (لَيْسَ أَلْأَحَدُكُمْ رَبُّهُ حَاجَتُهُ كُلَّهَا حَتَّى شِئِعَ نَعْلُهُ إِذَا انْقَطَعَ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُبَسِّرْهُ لَمْ يَتَبَسَّرْ)

(يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ)

** فهذه حقيقة لا مناص لأي إنسان أن يفر منها أو يكابر أو ينكرها، فنحن العباد نخطئ بالليل والنهار، وكل بني آدم خطاء، فالقلب يخطئ بالخطرات والأفكار والوساوس

الرديئة والأمامي الكاذبة.. والعين.. والأذن.. واللسان، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)

** وقد كان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يستغفر الله في اليوم مائة مرة أو أكثر من مائة مرة، بل كان ربما استغفر في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة... ففي حديث مسلم (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)

** فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَائِلُ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥]، فهذا الغني الحميد هو من يقول لهؤلاء الفقراء -وكلنا فقير-: يا أيها العبيد استغفروني؛ واطلبوني الهداية، واطلبوني الإطعام؛ واطلبوني الكساء؛ واطلبوني أن أغفر لكم ذنوبكم، لأنكم لا تنفكون عن ذنب آناء الليل وآناء النهار، فأبي إنعام وإحسان وتكرم وفضل بعد ذلك؟! وهو عز وجل لا يُقْنِطُ عباده ولا يجيب من أتاها ومن رجاه، ولو أتاها بجملاء الأرض من الخطايا.

** وفي الحديث القدسي: (يا بن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي) سبحان الله! لا يبالي مهما كان عظم ذنبه...! فأين المستغفرون؟! وأين الأوابون؟! وأين التائبون؟! فيكفي أن تقبل على الله وأن تطرق باب الكريم الودود، فلا يردك أبداً، ولا يخيبك أبداً، فالله -عز وجل- منه المفر وإليه الملجأ، كما جاء في دعائه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك...).

(يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)

** بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ فِيمَا يُحْسِنُ بِهِ إِلَيْهِمْ مِنْ إِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ وَغُفْرَانِ الزَّلَّاتِ بِالْمُسْتَعِيزِ بِذَلِكَ مِنْهُمْ جَلْبَ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعَ مَضْرَّةٍ كَمَا هِيَ عَادَةُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يُعْطَى غَيْرُهُ نَفْعًا لِيُكَافِئَهُ عَلَيْهِ بِنَفْعٍ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ ضَرَرًا لِيَتَّقِيَ بِذَلِكَ ضَرَرَهُ.

** ولو أراد أحد أن ينفع الله تبارك وتعالى، فهل ينفع رب العالمين بشيء؟! لا، لأنك أنت الفقير وأنت المحتاج إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.. فهو الغني الحميد، والعباد هم الفقراء إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

** ثم وضع الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ذلك وجَلَّاهُ وَبَيَّنَّه فيما بعد، فقال:

**(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرِكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ
وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا)**

** فلا يزيد ملكه بالطاعة، ولا ينقص بالمعصية، كما قال بعد ذلك:

**(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرِكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ
وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)**

ولهذا ذَكَرَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ بَعْدَ هَذَا فَذَكَرَ أَنَّ بَرَّهُمْ وَفُجُورَهُمُ الَّذِي هُوَ طَاعَتُهُمْ وَمَعْصِيَتُهُمْ لَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ وَلَا يَنْقُصُ، وَأَنَّ إِعْطَاءَهُ إِيَّاهُمْ غَايَةُ مَا يَسْأَلُونَهُ نِسْبَتَهُ إِلَى مَا عِنْدَهُ أَدْنَى نِسْبَةٍ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَزْدَادُ مِلْكُهُ بِطَاعَةِ الرَّعِيَّةِ وَيَنْقُصُ مِلْكُهُ بِالْمَعْصِيَةِ. وَإِذَا أَعْطَى النَّاسَ مَا يَسْأَلُونَهُ أَنْفَدَ مَا عِنْدَهُ وَمَنْ يُغْنِيهِمْ وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَبْلُغُونَ مَضْرَبَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ وَهُوَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ إِحْسَانٍ وَعَفْوٍ وَأَمْرٍ وَهَيِّ لِرَجَاءِ الْمَنْفَعَةِ وَخَوْفِ الْمَضْرَبَةِ.

** ثم أخبر الله تبارك وتعالى بعد ذلك بما يدل على الغنى المطلق الذي لا يحده حد، والعتاء الواسع، فقال:

**(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرِكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتْكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي
فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ
إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)**

** فهو كما قال عز وجل، كما في مسند الإمام أحمد: (عطائي كلام، وعذابي كلام) أي: يقول للشيء: كن فيكون، فماذا ينقص من خزائن الله تبارك وتعالى، وهو الذي يقول للشيء: كن فيكون!

** كما أنه لا يكون علم المخلوقين بالنسبة إلى علم الله -تبارك وتعالى- إلا كهذه النسبة، كما ضرب الخضر -عليه السلام- لموسى -عليه السلام- ذلك حين قال: (ما مثل علمي وعلمك في علم الله -تبارك وتعالى- إلا كمثل ما أخذ ذلك الطائر من البحر)، وكما أخذ من البحر؟! فهذا هو العليم؛ علمه كذلك، وملكه كذلك، وغناه كذلك سبحانه وتعالى.

(يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)

** هذا هو النداء العاشر، والخلاصة المهمة التي يجب أن ينتبه لها كل المخلوقين.
** فبين سبحانه أنه مُحْسِنٌ إِلَى عِبَادِهِ فِي الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ إِحْسَانًا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْحَمْدَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ بِالْأَمْرِ بِهَا؛ وَالْإِرْشَادِ إِلَيْهَا وَالْإِعَانَةَ عَلَيْهَا ثُمَّ إِحْصَائِهَا ثُمَّ تَوْفِيَةَ جَزَائِهَا. فَكُلُّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْهُ وَإِحْسَانٌ؛ إِذْ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ وَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ.. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ وَجُوبُ ذَلِكَ كَوُجُوبِ حُقُوقِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِ الَّذِي يَكُونُ عَدْلًا لَا فَضْلًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِكُونِ بَعْضِ النَّاسِ أَحْسَنَ إِلَى الْبَعْضِ فَاسْتَحَقَّ الْمَعَاوِضَةَ.

** وَكَمَا بَيَّنَّ جَلَّ شَأْنُهُ أَنَّهُ مُحْسِنٌ فِي الْحَسَنَاتِ؛ مُتِمًّا إِحْسَانَهُ بِإِحْصَائِهَا وَالْجَزَاءِ عَلَيْهَا؛ بَيَّنَّ أَنَّهُ عَادِلٌ فِي الْجَزَاءِ عَلَى السَّيِّئَاتِ فَقَالَ: (وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)، لِأَنَّ الْحِجَةَ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ، وَلِأَنَّ الْإِعْذَارَ قَدْ آتَاهُ، وَالنَّذِيرَ قَدْ جَاءَهُ، وَأَيًّا كَانَ هَذَا النَّذِيرَ، فَقَدْ جَاءَهُ النَّذِيرَ، وَقَدْ رَأَى الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَمَا عَصَى إِلَّا عَلَى بَيْنَةٍ وَعِلْمٍ

** فاللوم حينئذٍ يتوجه إلى ذلك العبد وإلى نفسه الأمانة بالسوء، وليس إلى الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس إلى المقادير، كما يفعل ذلك الكفار: {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا} [المؤمنون: ٦٠، ٦١]، فهذه العلة وهذه الأعذار لا تنفع حينها.

** وَهَذَا انْقِسَامَ النَّاسِ أَقْسَامٍ فِي إِضَافَةِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ الَّتِي هِيَ الطَّاعَاتُ
وَالْمَعَاصِي إِلَى رَبِّهِمْ وَإِلَى نَفْسِهِمْ

فَشَرُّهُمْ الَّذِي إِذَا أَسَاءَ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى الْقَدْرِ وَاعْتَدَرَ بِأَنَّ الْقَدَرَ سَبَقَ بِذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا
خُرُوجَ لَهُ عَلَى الْقَدْرِ فَرَكِبَ الْحُجَّةَ عَلَى رَبِّهِ فِي ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ وَإِنْ أَحْسَنَ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى
نَفْسِهِ وَنَسِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَيْسِيرِهِ لِلْيُسْرَى. وَهَذَا حَالُ شِرَارِ الْجَاهِلِينَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ لَا
حَفِظُوا حُدُودَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَلَا شَهِدُوا حَقِيقَةَ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، كَمَا قَالَ فِيهِمُ الشَّيْخُ أَبُو
الْفَرَجِ ابْنُ الْجُوزِيِّ: "أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدْرِيٌّ؛ وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ
تَمَذَّهَبْتَ بِهِ".

وَخَيْرُ الْأَقْسَامِ - وَهُوَ الْقِسْمُ الْمَشْرُوعُ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ -: أَنَّهُ إِذَا
أَحْسَنَ شُكْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَحَمْدَهُ؛ إِذْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِأَنْ جَعَلَهُ مُحْسِنًا وَلَمْ يَجْعَلْهُ مُسِيئًا؛ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ
مُحْتَاجٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ إِلَى رَبِّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، فَلَوْ لَمْ يَهْتَدِ
لَمْ يَهْتَدِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ
لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٤٣] وَإِذَا أَسَاءَ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ
مِنْهُ وَكَانَ كَأَبِيهِ آدَمَ الَّذِي قَالَ: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣] وَلَمْ يَكُنْ كَابِلَيْسَ الَّذِي قَالَ: {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: ٣٩]

المصادر

** تأملات في حديث يا عبادي د. سفر الحوالي

** مجموع فتاوى ابن تيمية

** إنعام الباري في شرح حديث أبي نر الغفاري تحقيق د. عبد العلي حامد

حسن الأخوة

عن ابن عمر -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
(من استعانكم بالله فأعيزوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) (١)

أجمل ما في المشاعر النبيلة أن تتحول إلى واقع عملي ولا تقف عند حدود الكلمات الصماء والشعارات الجوفاء، فالترجمة الفعلية لهذه المشاعر هي المؤشر والبرهان الأوضح على صدقها ونبيلها، وتتجلى روعة المنهج الإسلامي في هذا النجاح الباهر في عملية التحول تلك التي خلقت في أبنائه نماذج شامخة في الإيثار والتعاون قلما نجد أمثالها في ظل المجتمعات التي تسودها القوانين الوضعية والفلسفات الأرضية، لتتفوق المناهج الربانية مرة أخرى على المناهج الوضعية التي ألفت بأتباعها من العلمانيين والقوميين في هوة سحيقة صاروا فيها عبيدا لنزواتهم ومصالحهم الشخصية وفق قانون شيطانهم الأكبر «الغاية تبرر الوسيلة».

قال تعالى {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب} [المائدة: ٢] إنها قمة في ضبط النفس وفي سماحة القلب.. ولكنها القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها لكي تقوم على البشرية لتهدئها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء، وهو تكليف ضخم يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى لا في الإثم والعدوان، ويخوفها عقاب الله ويأمرها بتقواه، ولقد استطاعت التربية الإسلامية بالمنهج الرباني أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية والاعتقاد لهذا السلوك الكريم، وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوى وهذا الاتجاه.

كان المنهج العربي المسلموك والمبدأ العربي المشهور «انصر أخاك ظالما أو مظلوما».. كانت حمية الجاهلية ونعرة العصبية، كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى، وكان الحلف على النصرة في الباطل قبل الحق، وندر أن قام في الجاهلية حلف للحق وذلك طبيعي في بيئة لا ترتبط بالله ولا تستمد تقاليدھا ولا أخلاقھا من منهج الله وميزان الله، ثم جاء الإسلام والمنهج الرباني للتربية ليربط القلوب بالله وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله، جاء ليخرج العرب ويخرج البشرية كلها من حمية الجاهلية ونعرة العصبية وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء، والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية وأفق الإسلام هي المسافة بين قول الجاهلية «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» وقول الله العظيم: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} وشتان شتان!! (٢)

وقال -صلى الله عليه وسلم-:

- (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) (٣)

- (المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه) (٤)

- (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) (٥)

- (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) (٦)

- (من نفس عن غريمه أو محبا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة) (٧)

- (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة) (٨)

- (ما من امرئ يخذل امراً مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته) (٩)

- (من لا يشكر الناس لا يشكر الله) (١٠)

- (من أتى إليكم معروفا فكافتوه فإن لم تجدوا فادعوا له) (١١)

- (من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء) (١٢)

وهذه حقيقة الفتوة، وهي أن يكون العبد أبداً في أمر غيره، وقيل هي أن لا تحتجب ممن قصدك، قال ابن عمر -رضي الله عنه-: لقد رأيتنا وما أحدنا بأحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم.

وقال الحسن: كنا نعد البخيل الذي يقرض أخاه (١٣)

وقال أبو الأعرج: لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها أدنى خصلة فينا

التواسي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه محاربين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا (١٤)

وقال ابن القيم: وما رأيت أحداً أجمع للفتوة من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه. وما رأيتهم يدعوا على أحد منهم قط وكان يدعو لهم، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له، فنهزني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام، فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه فرحمه الله ورضي عنه

(١٥)

قال المناوي: (من استعاذكم) أي من سأل منكم الإعاذة مستعيناً (بالله) عند

ضرورة أو حاجة حلت به أو ظلم ناله أو تجاوز عن جنابة (فأعيذوه) أي أعيذوه أو أجيئوه

فإن إغاثة الملهوف فرض وفي رواية بدل أعيذوه أعيذوه أي على ما تجوز الإعانة فيه

{وتعاونوا على البر والتقوى} [المائدة: ٢] (ومن سألكم بالله) أي بحقه عليكم وأياديه لديكم

أو سألكم بالله أي في الله أي سألكم شيئاً غير ممنوع شرعاً دنيوياً أو أخروياً (فأعطوه) ما يستعين به على الطاعة إجلالاً لمن سأل به فلا يعطى من هو على معصية أو فضول كما صرح به بعض الفحول (ومن دعاكم فأجيبوه) وجوباً إن كان لوليمة عرس وتوفرت الشروط المبينة في الفروع وندباً في غيرها ويحتمل من دعاكم لمعونة في بر أو دفع ضرر (ومن صنع إليكم معروفاً) هو اسم جامع للخير (فكافئوه) على إحسانه بمثله أو خير منه (فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له) وكرروا له الدعاء (حتى تروا) أي تعلموا (أنكم قد كافأتموه) يعني من أحسن إليكم أي إحسان فكافئوه بمثله فإن لم تقدروا فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى تحصل المثلية، ووجه المبالغة أنه رأى من نفسه تقصيراً في المجازاة فأحاله إلى الله ونعم المجازي هو، قال الشاذلي: إنما أمر بالمكافأة ليستخلص القلب من إحسان الخلق ويتعلق بالملك الحق (١٦)

الهوامش

(١) رواه أبو داود - كتاب الأدب رقم ٥٠٩٩ باب في الرجل يستعيز من الرجل، وأحمد - مسند المكثرين من الصحابة رقم ٥٤٨٤ والحديث رواه أيضاً النسائي في باب الزكاة وابن حبان والحاكم، وقال النووي في رياضته: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع للسيوطي (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٠٢١ في صحيح الجامع. (٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - أول سورة المائدة ص ٨٣٩ بتصريف (٣) رواه أحمد عن ابن عمر (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٧٠٧ في صحيح الجامع (٤) رواه أبو داود عن أبي هريرة (حسن) انظر حديث رقم: ٦٦٥٦ في صحيح الجامع (٥) رواه أحمد والترمذي عن جرير (صحيح) حديث رقم: ٦٥٩٧ في صحيح الجامع (٦) رواه مسلم عن وأحمد عن أبي هريرة (صحيح) حديث رقم: ٦٥٧٧ في صحيح الجامع (٧) رواه أحمد ومسلم عن أبي قتادة (صحيح) حديث رقم: ٦٥٧٦ في صحيح الجامع (٨) رواه أحمد والترمذي عن أبي الدرداء (صحيح) حديث رقم: ٦٢٦٢ في صحيح الجامع (٩) رواه أحمد وأبو داود عن جابر (حسن) انظر حديث رقم: ٥٦٩٠ في صحيح الجامع (١٠) رواه الترمذي عن أبي هريرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٦٠١ في صحيح الجامع (١١) رواه الطبراني عن الحكم بن عمير (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٩٣٧ في صحيح الجامع

(١٢) رواه الترمذي عن أسامة بن زيد (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٣٦٨ في صحيح الجامع. (١٣) التبصرة لابن الجوزي (١٤) السير ٣١٦/٥-٣١٧ (١٥) مدارج السالكين ٣٤٤/٢-٣٤٥ بتصريف يسير (١٦) فيض القدير للمناوي ٤٣٥/٢

شكر الناس

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (من لا

يشكر الناس لا يشكر الله) (١)

كم فرقنا النعرات المنتنة وجمعنا الإسلام، وكم وعدونا في ظل الليبرالية، والقومية والبعثية والعلمانية.. بالرشاء والوحدة والأمن والاستقرار والرفعة، فإذا الأمر سراب، وإذا التجربة المريرة تثبت أنهم شتتونا أكثر مما جمعونا وأخافونا أكثر مما آمنونا، وأذلونا أكثر مما أعزونا، وإذا قول الله الحق يعلو على كل هذا الركام، وإذا خير الهدي هدي خير الأنام، وأعطر التاريخ تاريخ السلف الكرام، وإذا بصوت الضمير يقول: حين شقائي حين جهلت طريق إلهي، حين تركت سيرة أجدادي وآبائي، حين تصورت الدنيا حسي وغذائي وكسائي.

(من لا يشكر الناس لا يشكر الله) قال القاضي: وهذا إما لأن شكره تعالى إنما يتم بمطاوعته وامتنال أمره وأن مما أمر به شكر الناس الذين هم وسائط في إيصال نعم الله إليه، فمن لم يطاوعه فيه لم يكن مؤدياً لشكر نعمه، أو لأن من أخل بشكر من أسدى نعمة من الناس مع ما يرى من حرصه على حب الثناء والشكر على النعماء وتأذيه بالإعراض والكفران كان أولى بأن يتهاون في شكر من يستوي عنده الشكر والكفران (٢)

وفي رواية لهذا الحديث (أشكر الناس لله أشكرهم للناس) (٣) قال المناوي: (أشكر الناس لله) تعالى أي من أكثرهم شكراً له (أشكرهم للناس) لأنه سبحانه جعل للنعم وسائط منهم وأوجب شكر من جعله سبباً لإفاضتها كالأنبياء والصحابة والعلماء فزيادة العبد في شكرهم زيادة في شكر ربه، إذ هو المنعم بالحقيقة، فشكرهم شكره، ونعم الله منها بغير واسطة كأصل خلقته، ومنها بواسطة وهي ما على أيدي الناس فتتقيد بشكرهم ومكافأتهم ففي الحقيقة قد شكر المنعم بإيجاد أصل النعمة ثم بتسخير الوسائط.

قال بعض العارفين: لو علم الشيطان أن طريقاً توصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها ألا تراه قال: {ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} [الأعراف: ١٧] ولم يقل لا تجد أكثرهم صابرين أو نحوه (٤) وقال ذو النون المصري أبو الفيض: الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال (٥)

وقال أبو حاتم: الواجب على من أسدى إليه معروف أن يشكره بأفضل منه أو مثله لأن الإفضال على المعروف في الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قل، فمن لم يجد فليشكر عليه فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف وما استغنى أحد عن شكر الناس، وقال أيضاً: الحر لا يكفر النعمة ولا يتسخط المصيبة، بل عند النعم يشكر وعند المصائب يصبر، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع أوشك أن لا يشكر الكثير منه، والنعم لا تستجلب زيادتها ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله جل وعلا ولمن أسداها إليه (٦)

وفي الحديث قال -صلى الله عليه وسلم-:

- (من أتى إليكم معروفا فكافتوه فإن لم تجدوا فادعوا له) (٧)

- (من أعطى شيئاً فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليشكر به، فإن أثنى به فقد شكره وإن

كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور) (٨)

- (من أوتي معروفا فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره) (٩)

- (من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء) (١٠)

- وعن أنس -رضي الله عنه- قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ذهب الأنصار

بالأجر كله ما رأينا قوماً أحسن بدلاً لكثير ولا أحسن مواساة في قليل منهم ولقد كفونا

المؤنة، قال -صلى الله عليه وسلم-: (أليس تشنون عليهم به، وتدعون لهم، قالوا بلى قال

فذاك بذاك) (١١) أي ما دمتم تدعون لهم بخير فإن دعائكم يقوم بحسناتهم إليكم، وثواب

حسنتكم راجع عليكم. قال الطيبي رحمه الله: يعني إذ حملوا المشقة والتعب على أنفسهم

وأشركونا في الراحة والمهناً فقد أحرزوا المثوبات فكيف نجازيهم؟ فأجاب لا. أي ليس الأمر كما زعمتم إذا أثبتتم عليهم شكراً لصنيعهم ودمتم عليه فقد جازيتموه (١٢)

مر سعيد بن العاص بدار رجل بالمدينة فاستسقى فسقوه، ثم مر بعد ذلك بالدار ومناد ينادي عليها فيمن يزيد قال لمولاه: سل لم تباع هذه؟ فرجع إليه فقال: على صاحبها دين، قال: ارجع إلى الدار فرجع فوجد صاحبها جالسا وغريمه معه، فقال: لم تباع دارك؟ قال: لهذا على أربعة آلاف دينار، فنزل وتحدث معهما وبعث غلامه فأتاه ببذرة فدفع إلى الغريم أربعة آلاف ودفع الباقي إلى صاحب الدار وركب ومضى.

وأقبل سعيد بن العاص يوماً يمشي وحده من المسجد، فقام إليه رجل من قريش فمشى عن يمينه، فلما بلغا دار سعيد التفت إليه سعيد فقال: ما حاجتك؟ قال: لا حاجة لي، رأيتك تمشي وحدك فوصلتك، فقال سعيد: لقهرمانه ماذا لنا عندك؟ قال: ثلاثون ألفاً، قال: ادفعها إليه.

وعن أبي عيسى قال: كان إبراهيم بن أدهم إذا صنع إليه أحد معروفا حرص على أن يكافئه أو يتفضل عليه، قال أبو عيسى: فلقيني وأنا على حمار وأنا أريد بيت المقدس وقد اشترى بأربعة دنانير تفاحاً وسفرجلاً وخوخاً وفاكهة، فقال: يا أبا عيسى أحب أن تحمل هذا، قال وإذا عجوز يهودية في كوخ لها، فقال: أحب أن توصل هذا إليها فإنني مررت وأنا ممس فبيتي عندها فأحب أن أكافئها على ذلك.

ومر عمر بن هبيرة - لما انصرف في طريقه - فسمع امرأة من قيس تقول: لا والذي ينجي عمر بن هبيرة، فقال: يا غلام أعطها ما معك وأعلمها أنني قد نجوت.

وعن إبراهيم بن محمد قال: خرجت لأبي جائزته فأمرني أن أكتب خاصته وأهل بيته ففعلت فقال لي: تذكر هل بقي أحد أغفلناه؟ قلت لا، قال بلى رجل لقيني فسلم على سلاماً جميلاً صفتة كذا وكذا اكتب له عشرة دنانير (١٣)

وعن الربيع بن سليمان قال: أخذ رجل بركاب الشافعي فقال: يا ربيع أعطه ديناراً. سلام على القمم، سلام على خير الأمم.

الهوامش

(١) رواه الترمذي - باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٦٠١ في صحيح الجامع. (٢) تحفة الأحوزي - المباركفوري ج ٦ ص ٦١ ط دار الفكر (٣) رواه أحمد والطبراني عن الأشعث بن قيس (صحيح) انظر حديث رقم: ١٠٠٨ في صحيح الجامع (٤) فيض القدير للمناوي ج ١ ص ٣٤١ (٥) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٩٨ (٦) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء - أبي حاتم محمد بن حبان ص ٢٦٣ (٧) رواه الطبراني عن الحكم بن عمير (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٩٣٧ في صحيح الجامع (٨) رواه أبو داود والترمذي عن جابر (حسن) انظر حديث رقم: ٦٠٥٦ في صحيح الجامع (٩) رواه الطبراني عن طلحة بن عبيد الله ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عائشة رضي الله عنها والحديث حسنه الألباني في صحيح الترغيب رقم ٩٦٤ (١٠) رواه الترمذي والنسائي عن أسامة بن زيد (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٣٦٨ في صحيح الجامع

(١١) رواه أبو داود والنسائي واللفظ له وصححه الألباني في صحيح الترغيب رقم ٩٦٧ (١٢) تحفة الأحوزي - المباركفوري ج ٧ ص ٢٠٣ ط دار الفكر (١٣) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص

٩٠-٩١

فَهَذِهِ يَهَذِهِ

روى الإمام أحمد وأبو داود عن امرأة من بني عبد الأشهل قالت: قلت: يا رسول الله إن لنا طريقاً إلى المسجد مُنْتَنَةً فكيف نصنع إذا مُطِرْنَا؟ قال: (أليس بعدها طريقٌ هي أطيبٌ منها؟) قلت: بلى، قال: (فهذه بهذه) إسناده

صحيح

** عن أم ولد لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنها سألت أم سلمة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم- فقالت: أي امرأة أطيل ذيلي [طرف الثوب] وأمشي في القدر فقالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (يطهره ما بعده)

** وجر المرأة ذيلها معروف مشهور.. قال مالك: في هذا الحديث أن من سنة المرأة في لبستها أن تطيل ذيلها فلا تنكشف قدمها لأنها لا تلبس الخفين والله أعلم لأن المرأة أخبرت بأنها تطيل ذيلها فلم ينكر ذلك عليها، وفي حديث مالك عن أبي بكر بن نافع عن أبيه عن صفية عن أم سلمة أن المقدر الذي لا تزيد عليه في ذلك ذراع.

** اختلف الفقهاء في طهارة الذيل على المعنى المذكور في هذا الحديث، فقال مالك: معناه في القشب اليابس [الصدأ] والقدر الجاف الذي لا يتعلق منه بالثوب شيء فإذا كان هكذا كان ما بعده من المواضع الطاهرة حينئذ تطهيرا له، وهذا عنده ليس تطهيرا من نجاسة لأن النجاسة عنده لا يطهرها إلا الماء، وإنما هو تنظيف لأن القشب اليابس ليس ينجس ما مسه ألا ترى أن المسلمين مجتمعون على أن ما سفت الريح من يابس القشب والعدرات التي قد صارت غبارا على ثياب الناس ووجوههم لا يراعون ذلك ولا يأمرؤن بغسله ولا يغسلونه لأنه يابس وإنما النجاسة الواجب غسلها ما لصق منها وتعلق بالثوب وبالبدن.

فعلى هذا المحمل حمل مالك وأصحابه حديث طهارة ذيل المرأة وأصلهم أن «النجاسة لا يزيلها إلا الماء» وهو قول زفر بن الهذيل والشافعي وأصحابه وأحمد وغيره أن النجاسة لا يطهرها إلا الماء لأن الله تعالى سماه {طهورا} ولم يقل ذلك في غيره.

قال الخطابي: كان الشافعي يقول إنما هو فيما جر على ما كان يابس لا يعلق بالثوب منه شيء، فأما إذا جر على رطب فلا يطهره إلا بال غسل.

وقال أحمد ليس معناه إذا أصابه بول ثم مر بعده على الأرض أنها تطهره ولكنه يمر بالمكان فيقدره ثم يمر بمكان أطيب منه فيكون هذا بذلك لا على أنه يصيبه منه شيء وقال مالك فيما روي عنه إن الأرض يطهر بعضها بعضا وإنما هو أن يطاء الأرض القدرة ثم يطاء الأرض اليابسة النظيفة فإن بعضها يطهر بعضها فأما النجاسة مثل البول ونحوه يصيب الثوب أو بعض الجسد فإن ذلك لا يطهره إلا الغسل.

** لكن في تحفة الأحوذى: قَالَ الشَّيْخُ الْأَجَلُّ وَيُّ اللَّهِ الْمُحَدِّثُ الدَّهْلَوِيُّ فِي «الْمُسَوَّى شَرْحُ الْمُوْطَأِ» تَحْتَ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ: إِنَّ أَصَابَ الدَّيْلَ نَجَاسَةً الطَّرِيقِ ثُمَّ مَرَّ بِمَكَانٍ آخَرَ وَاخْتَلَطَ بِهِ بِمَكَانٍ آخَرَ وَاخْتَلَطَ بِهِ طِينُ الطَّرِيقِ وَغُبَارُ الْأَرْضِ وَتُرَابُ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَيَبَسَتْ النَّجَاسَةُ الْمُعْلَقَةُ فَيَطْهَرُ الدَّيْلُ الْمَنْجَسُ بِالتَّنَاطُرِ أَوْ الْفَرَكِ وَذَلِكَ مَعْفُوٌّ عَنْهُ مِنَ الشَّارِعِ بِسَبَبِ الْحَرَجِ وَالصِّيْقِ، كَمَا أَنَّ غَسَلَ الْعُضْوِ وَالثُّوبِ مِنْ دَمِ الْجِرَاحَةِ مَعْفُوٌّ عَنْهُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ بِسَبَبِ الْحَرَجِ، وَكَمَا أَنَّ النَّجَاسَةَ الرُّطْبَةَ الَّتِي أَصَابَتْ الْحُفَّ تَزِيلُ بِالدَّلْكِ وَيَطْهَرُ الْحُفُّ بِهِ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ بِسَبَبِ الْحَرَجِ، وَكَمَا أَنَّ الْمَاءَ الْمُسْتَنْقَعَ الْوَاقِعَ فِي الطَّرِيقِ وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ نَجَاسَةٌ مَعْفُوٌّ عَنْهُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ بِسَبَبِ الْحَرَجِ

وَإِنِّي لَا أَحِدُ الْفَرْقَ بَيْنَ الثُّوبِ الَّذِي أَصَابَهُ دَمُ الْجِرَاحَةِ وَالثُّوبِ الَّذِي أَصَابَهُ الْمُسْتَنْقَعُ النَّجَسُ وَبَيْنَ الدَّيْلِ الَّذِي تَعَلَّقَتْ بِهِ نَجَاسَةٌ رَطْبَةٌ ثُمَّ اخْتَلَطَ بِهِ تُرَابُ الْأَرْضِ وَغُبَارُهَا وَطِينُ الطَّرِيقِ فَتَنَاطَرَتْ بِهِ النَّجَاسَةُ أَوْ زَالَتْ بِالْفَرَكِ فَإِنَّ حُكْمَهَا وَاحِدٌ

وَمَا قَالَه الْبَغَوِيُّ إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مَحْمُولٌ عَلَى النَّجَاسَةِ الْيَابِسَةِ الَّتِي أَصَابَتْ الثُّوبَ ثُمَّ تَنَاطَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ النَّجَاسَةَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالدَّيْلِ فِي الْمَشْيِ فِي الْمَكَانِ الْقَدِيرِ

تَكُونُ رَطْبَةً فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالْقَطْعِ فِي عَادَةِ النَّاسِ فَاخْرَاجِ الشَّيْءِ الَّذِي تَحَقَّقَ
وُجُودُهُ قَطْعًا أَوْ غَالِبًا عَنْ حَالَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ بَعِيدًا

وَأَمَّا طِينُ الشَّارِعِ يُطَهِّرُهُ مَا بَعْدَهُ فَفِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّوَسُّعِ فِي الْكَلَامِ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَتَّقِضِي
أَنْ يُقَالَ هُوَ مَغْفُورٌ عَنْهُ أَوْ لَا بَأْسَ بِهِ لَكِنْ عَدَلَ مِنْهُ بِإِسْنَادِ التَّطَهِيرِ إِلَى شَيْءٍ لَا يَصْلُحُ أَنْ
يَكُونَ مُطَهَّرًا لِلنَّجَاسَةِ فَعَلِمَ أَنَّهُ مَغْفُورٌ عَنْهُ وَهَذَا أَبْلَغُ مِنَ الْأَوَّلِ (انتهى كلامه)

** قال المباركفوري: قلت أقرب هذه الأقوال عندي قول الشيخ الأجل الشاه ولي الله

والله أعلم

** قال في مرقاة المفاتيح: (فهذه بهذه) أي: ما حصل التنجس بتلك يطهره انسحابه
على تراب هذه الطيبة. وهذا الحديث موافق لما تقدم من حديث أم سلمة، وهما يدلان
صريحاً على أن الذيل المنجس بنجاسة الطريق الرطبة يطهر إذا انسحب على الطريق
الطاهرة، واختلط بالتراب الطاهر من الطريق وقت المرور، ولا يصح حمل القدر على اليابس
لأنه يأبى عنه قولها «فكيف نفع إذا مطرنا؟» وكذا لا يصح تخصيص الحديث بالنعل والخف
لأنه يبطله حديث أم سلمة، ففي الحديثين رد صريح على الأئمة الأربعة وأتباعهم (انتهى)

** بل إن حديث أم سلمة وحديث الباب بينهما عموم وخصوص فإن الأول مطلق

قابل أن يقيد باليابس، وأما الثاني فصريح في الرطب

** في الحديث: دلالة ارتباط الصحابييات بالمسجد وحرصهم على حضور الجماعات

فكيف بالرجال.

** فيه بيان لبعض ما كان يفكر فيه النساء في المجتمع النبوي سمائية في التفكير وحرصا

في مزيد تحصيل.

** فيه دلالة السؤال عن كل ما يشغل البال ويعكر الصفو ويغير الحال مخافة من بوار

العمل وخسرانه، أو طمعا في تجويده وتحسينه.

** فيه دلالة الاهتمام من الصحابييات بالأعلام بطهارة الثوب والبدن والنعال مخافة

الظاهر فكيف بالبواطن.

** فيه السؤال عن المستجدات كل يلحظ بعينه وينشغل بما يصلح أمره وأمر غيره
ويحتاج إجابة يترتب عليها عمل ولا تجبر قعود أو كسل.
** إجابة النبي الشافية بمحو أثر كل خبث بطيب يتعبه وتطهير يخلفه
** تبسيط المعضلات بفقهِ الإزالات والبدائل
** كل سيء في حياتك اتبعه بطيب وألحقه بخير يمحو أثره ويختم بخيره ولا تحرم جماعة
المسلمين بسببه.

خير الخاتمة

عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-:
(إذا أراد الله بعبد خيراً طهره قبل موته قالوا: وما طهور العبد؟ قال: عمل صالح يلهمه إياه حتى يقبضه عليه) (١)

الحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء، وأحصى كل شيء عدداً، رحم من شاء من عباده فهياً لهم في الدنيا ما يرفع به درجاتهم في الآخرة، فثابروا على طاعته واجتهدوا في عبادته، إن أصابتهم سراء شكروا فكان خيراً لهم، وإن أصابتهم ضراء صبروا، فكانوا ممن قال الله فيهم: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب} [الزمر: ١٠] أما بعد:

فقد نبه الله في كتابه جميع المؤمنين إلى أهمية حسن الخاتمة، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [آل عمران: ١٠٢]

وقال تعالى: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} [الحجر: ٩٩]

وحسن الخاتمة هو: أن يوفق العبد قبل موته للتقاضي عما يغضب الرب سبحانه، والتوبة من الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات وأعمال الخير، ثم يكون موته بعد ذلك على هذه الحال الحسنة، أما الخاتمة السيئة فهي: أن تكون وفاة الإنسان وهو معرض عن ربه جل وعلا، مقيم على مساخطه سبحانه، مضيع لما أوجب الله عليه، ولا ريب أن تلك نهاية بائسة، طالما خافها المتقون، وتضرعوا إلى ربهم سبحانه أن يجنبهم إياها.

وقد كان السلف الصالح يخافون من سوء الخاتمة خوفاً شديداً، قال سهل التستري: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: {وقلوبهم وجلة} [المؤمنون: ٦٠].

لأجل ذلك كان جديراً بالعقل أن يحذر من تعلق قلبه بشيء من المحرمات، وجديراً به أن يلزم قلبه ولسانه وجوارحه ذكر الله تعالى، وأن يحافظ على طاعة الله حيثما كان، من أجل تلك اللحظة التي إن فاتت وخذل فيها شقي شقاوة الأبد.

قال المناوي في تعليقه على حديثنا الجليل: (إذا أراد الله بعبد خيراً طهره قبل موته قالوا) له (وما طهور العبد) أي ما المراد بتطهيره (قال عمل صالح يلهمه) أي يلهمه الله تعالى (إياه) والإلهام ما يلقي في الروح بطريق الفيض ويدوم كذلك (حتى يقبضه عليه) أي يميته وهو متلبس به، فمن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الوفاة، حتى لا يحتاج لدخول النار ليطهره، فيلهمه الله تعالى التوبة ولزوم الطاعات وتجنب المخالفات، أو يصاب بالمصائب وأنواع البلاء المكفرات ليطهر من خبائثه مع كراهته لما أصابه {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم} [البقرة: ٢١٦]

ولهذا كان الأب أو الأم يسوق لولده الحجام أو الطبيب ليعالجه بالمراهم المؤلمة الحادة ولولا إطاعة الولد لما شفي (٢)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قيل: كيف يستعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه) (٣) أي يلهمه التوبة وملازمة العمل الصالح كما يجب وينبغي حتى يملّ الخلق ويستقذر الدنيا ويحن إلى الموت ويشتاق إلى الملاء الأعلى فإذا هو برسول الله تعالى يردون عليه بالروح والريحان والبشرى والرضوان من رب راض غير غضبان فينقلونه من هذه الدار الفانية إلى الحضرة العالية الباقية فيرى لنفسه الضعيفة الفقيرة نعيماً مقيماً وملكاً عظيماً.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أراد الله بعبد خيراً غسله قيل: وما غسله؟ قال: يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه) (٤)

قال المناوي: (إذا أراد الله بعبد خيراً غسله) أي طيب ثناءه بين الناس من غسل الطعام يغسله إذا جعل فيه العسل (قيل) أي قالوا يا رسول الله (وما غسله) أي ما معناه (قال: يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه) شبه ما رزقه الله من العمل الصالح

الذي طاب ذكره وفاح نشره بالعسل الذي هو الطعام الصالح الذي يحلو به كل شيء
ويصلح كل ما خالطه (٥)

ولقد حفل تاريخنا بقمم من الذين رزقهم الله خير الخاتمة، فعن أم هشام الطائية قالت:
"رأيت عبد الله بن بسر يتوضأ فخرجت نفسه -رضي الله عنه- ."

ومات حميد الطويل وهو قائم يصلي.

ومات حماد بن سلمة في الصلاة في المسجد.

وقال أبو بكر العطوي: "كنت عند الجنيد لما احتضر فختم القرآن ثم ابتداء سورة
البقرة، فتلا سبعين آية ومات".

ولما حضرت إبراهيم بن هاني الوفاة، قال: أنا عطشان، فجاءه ابنه بماء، فقال: أغابت
الشمس؟ قال: لا. فردده وقال: {لمثل هذا فليعمل العاملون} [الصفات: ٦١] ثم مات.

وقال ابن سكينه: كنت حاضرا لما احتضر إسماعيل بن أبي سعيد النيسابوري، فقالت
له أمي: يا سيدي، ما تجد؟ فما قدر على النطق، فكتب على يدها {فروح وريحان وجنة
نعيم} [الواقعة: ٨٩] ثم مات.

الهوامش

(١) رواه الطبراني (صحيح) حديث رقم: ٣٠٦ في صحيح الجامع. (٢) فيض القدير للمناوي
٥٤/١ بتصرف (٣) رواه أحمد والترمذي عن أنس (صحيح) رقم ٣٠٥ في صحيح الجامع (٤) رواه
أحمد والطبراني عن أبي عنبه. (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٠٧ في صحيح الجامع. (٥) فيض
القدير للمناوي ٤٥/٢ بتصرف

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

مصر